
عبد الحميد جودة السحار
صدى السنين

مطبوعات مكتبة مصر

صدى السنين

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر:

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جوده السحار وشركاه

صدى السنين

دخلت مكتبى ، وأمسكت بالقلم ، وحاولت أن أكتب . ولكن لم تكن نفسى متفتحة للكتابة ؛ كنت أحس كأن حملا ثقيلا حط على رأسى ، فعطل تفكيرى ، فألقيت القلم ، وقعدت ساكنا أتلفت حولى فى خمول ، فوقعت عيناى على كتاب كنت اشتريته وأبقيته لساعات فراغى ، فمددت يدى وتناولته ، وفتحته ورحت أقرؤه ، ولكن ما إن قرأت بضعة أسطر حتى عافت نفسى القراءة ، فرميت بالكتاب ، وقمت كوسنان يداعب النوم جفنيه ، وسرت إلى غرفة أخرى حتى بلغت مقعدا وثيرا ، فارتميت فيه ، وأرخيت جسمى ، ورحت أنعم بالكسل اللذيذ .

وتقلبت فى رقدتى ، فرأيت على نضد قريب (ألبوماً) للصور ، فخطر لى أن أتسلى بتقليب صفحاته ، فتناولته وفتحته ، فرأيت صورة زميل من زملائى فى المدرسة الثانوية ؛ كان شابا صغيرا ، فى وجهه صفاء ، وفى عينيه ذكاء ، فأخذت أتأمل الصورة مليا . فتزاحمت الأفكار فى رأسى ، وعادت لى الذكريات سنين طوالا ، فشخصت ببصرى إلى السقف ، وجعلت أعرض حوادث تلك الأيام فى شغف وحنين .

كنا صديقين قلما نفترق ، وكنا فى الفصل متجاورين ، فإذا انتهى اليوم الدراسى انطلق معى إلى بيتنا ، أو انطلقت معه إلى بيتهم الرحب العتيق ، وكان فى حى قديم من أحياء قاهرة المعز ، قريبا من ضريح من أضرحة القاهرة

الشهيرة ، التى يفد إليها الفلاحون من أقاصي البلاد للتبرك والزيارة ، فكنا نشق طريقنا بين جموع زاخرة من الفلاحين والفلاحات ، والشحاذيين والمجذوبين ، وبائعى المسابح ، وحاملى قدور العرقسوس . وأوانى الخروب ، ونخترق صفوفا من عربات اليد الصغيرة المصطفة على جانبى الطريق ، محملة بأساور من زجاج أخضر وأحمر وأزرق وأصفر . أو بأكداس الترمس التى حفت بها قلل رشق فى أفواهها الفل والزهر . أو بأكوام اللادن أو الجوافة الضامرة التى دب فيها الفساد ، وكنا نستنشق الهواء يعبق بدخان المباخر الممزوج بالدخان المنبعث من الصينيات التى تحمر فيها الأكباد والقلوب ، وكانت الأصوات المتنافرة الصادرة من هنا وهناك تصك آذاننا ، فنغذ السير ، لنفر من تلك الضوضاء الذى يدير الرءوس .

وكنا إذا بلغنا دارهم نلج من باب هائل كبير ، صنع من خشب متين ، وحصن بأزرار من حديد ، دقت فيه فى صفوف ، وما إن ننطلق خطوات فى ممر قصير حتى نجد بابا آخر يوصل إلى فناء الدار الواسع ، الذى صفت فيه أرائك خشبية عالية من طراز عربى قديم ، فكنا نجلس على أريكة من تلك الأرائك نستذكر دروسنا أو نتجاذب أطراف الحديث ، حتى إذا جن الليل انصرف كل منا إلى أهله .

وقابلت أهله وعرفتهم ، وأمضيت معهم أوقاتا طويلة . وكنت أقابل أباه فأحييه فى إجلال ، فقد كان رجلا وقورا ؛ كان مدرسا للكيمياء فى مدرسة من المدارس الثانوية ، وكان شيخ طريقة من الطرق الصوفية ، فكان قليل الكلام ، فى وجهة مهابة . وكان الأتباع يفدون إلى داره لتقديم فروض الولاء ، فكان يقابلهم فى منظرة رحبة ، يصغى إليهم فى تواضع ، ويقبل عليهم فى بشاشة ، ويحدثهم حديث الدين فى طلاقة ، فيقومون من عنده يتغنون بكريم خلقه ، وإيمانه الصحيح .

وفى يوم من الأيام قال لى صديقى : إنهم يحتفلون الليلة فى دارهم احتفالا دينيا

كبيرا ، يحضره الأتباع من كل البقاع ، وأنه يدعونى لمشاهدة ذلك الاحتفال الرائع ، فاعتذرت إليه ، وقلت له : إن والدى لا يوافق على سهرى خارج البيت ، فقال لى إنه سيذهب معى إلى والدى تستأذنه فى حضور ذلك الاحتفال ؛ وأنه على ثقة من أن والدى لن يمانع فى أن أحضر جفلا دينيا جليلا . وانطلقنا إلى والدى ، وتقدم منه صديقى ، والتمس منه أن يأذن لى الليلة بالسهر عندهم ، فوافق و لم يبد اعتراضا ، ولعله قد سره أن يندمج ابنه فى زمرة رجال الدين .

وذهبت إلى دارهم نشوان ، وجعلت أغدو واروح فى فناء الدار الكبير الذى جهز لاستقبال الوفود وأنا أحس اغتباطا ، ودوت فى الفضاء أصوات دفوف وطبول وصنوج ، وجاء صديقى وجذبنى ، لنخرج لاستقبال طلائع الناس ، فانطلقنا حتى وقفنا على وصيد الباب ننظر ، فرأيت رجالا فى ثياب قذرة ، أرخوا الحاهم ، يحملون رايات نصل لونها ، وراحوا يقفزون ويتمايلون على دق الدفوف . وأناسا يسيرون فى صفين طويلين وقد تشابكت أيديهم ، وراحوا يذكرون الله وهم يقصرون ويطولون ، ويتمايلون ويترنحون ، ورءوسهم فوق صدورهم تدور ، فشعرت بشعور غريب ، كان دق الدفوف ينزل الرهبة بقلبى ، ومنظر الرجال وهم يتمايلون يخز روحى ويجعلنى أحس تضاؤلا وأسى عميقا ، وانطلقت الزغاريد من وراء الشبابيك ؛ وأقبل شيخ وقور فى ثياب سود ، وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، يتهادى على بغلة مطهمة تحت الرايات التى عقدت فوق رأسه ، ودنا الركب منى ، فتفرست فى وجه الشيخ ، فإذا به والد صديقى ، مدرس الكيمياء فى المدارس الثانويه .

وتدفق الركب إلى فناء الدار ، واشتد دق الطبول ، وارتفعت أنغام النأى

حلوة عذبه تهز القلوب ، وانسابت أصوات الصفارات ، فراح الرجال يذكرون الله فى حرارة ، ويتمايلون فى سرعة وتوافق ، فجعلت أرصد ما يجرى أمامى كالمأخوذ .

ودوى المكان دوى النحل ، واستمر الطبل والزمر ، واختفى الشيخ من جوف داره ، وراح الوقت يمر والناس يتمايلون مطبقى الجفون ، كأنهم قد غابوا عن الوجود ، وأقبل خدم شداد ، يحملون طناجير الثريد . فخفتت الأصوات وتعلقت العيون بقطع اللحم التى كانت تخفى وجوه الطناجير ، ووضعت على الأرض ، فتحلق الناس حولها خفافا ، ولم تمتد إليها يد ، وتطلعت الأنظار إلى باب صغير ، وما انقضى كثير وقت حتى انفرج الباب عن الشيخ فى جبة زاهية ، وفى يده عصا طويلة ، وتقدم الشيخ فى وقار ، وهو يتمتم بكلمات خافتة ، ومد العصا ولمس طرف طنجير من الطناجير ، فانبعث لهب أخضر ، فهلل الناس وكبروا ، ودار على الطناجير كلها يلمسها بعصاه ، فانبعث منها ضياء ، فزاد التهليل ، وارتفع التكبير ، حتى شق عنان السماء .

وخفتت الأصوات ، وراحت الأيدى تتسابق إلى القصاع ، وتلقى فى الأفواه المفتوحة ما تصل إليه ، واستمر الناس فى ازدراد الطعام الذى باركه الشيخ ، وبقيت واقفا أنظر وقد ارتسمت الحيرة على وجهى ، فقد حيرنى ما فعله مدرس الكيمياء ، لانبعاث ذلك الضياء !

وتلفت حولى ، فرأيت صديقى ينظر إلىّ وقد رفت على شفتيه ابتسامة فأردت أن أبتسم ، ولكنى لم أستطع ، كان ذلك الضياء يحيرنى ، فاتجهت إلى صديقى ، وجذبته من يده ، حتى إذا ابتعدنا عن الحشد المنهمك فى طناجير الثريد قلت له :

ـــ ماذا فعل أبوك ؟ .

فقال فى بساطة :

ـــ لم يفعل شيئا .

ـــ وما هذه النار التى بعثها من الطناجير ؟

فقال مى خبث :

ـــ بركة من بركاته .

فدفعته فى كتفه فى رفق ، وقلت له :

ـــ لا تضحك على ، فلست من أتباع أبيك .

ـــ هذا سر الأسرة .

ـــ لن أنافسكم فى مشيخة الطريقة يوما .

فقال فى همس :

ـــ أقول لك على ألاتبوح بسرنا ؟

ـــ أفعل .

ـــ لقد ثبت فى كعب العصا قطعة من الفسفور ، فإذا ما لامست نحاس الطناجير انبعث ذلك الضياء .

وعدنا إلى حيث كان الناس ، ونظرت إلى مدرس الكيمياء الوقور فى ثيابه الزاهية ، وعمامته الخضراء الكبيرة ، وتطلعت إلى وجهه الهادئ الذى ينم عن التقوى والصلاح ، فأحسست قهقهة ساخرة تدوى فى جوفى دويا .

وقلبت صفحة فى (الألبوم) ، فرأيت صورة ما إن وقعت عليها عيناى حتى اضطربت ، كانت صورة فتاة واسعة العينين . باسمة الثغر ، فى خديها غمازتان زادتا فى فتنتها ، وقرأت الإهداء .

« إلى عزيزتى التى أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة ، لن تمحوها

يد السنين » . فخفق قلبى ، وسرى فى صدرى إحساس غامض لذيذ ، ولفتنى الحيرة التى طالما دثرتنى كلما قرأت ذلك الإهداء . لم أكن أدرى أكتبته لزوجتى أم كتبته لى .

كان ذلك من عدة سنوات . يوم كنت أذهب عصر كل خميس لأمضى بعض الوقت مع أبناء عمى ، ثم أهبط . أنا وابن عمى الذى كان فى مثل سنى نقطع الوقت فى الطواف فى الشوارع القريبة من دارهم ، حتى إذا وفد الليل عاد كل منا إلى داره .

وفى ذات يوم ، قابلت عندهم درية ، كانت شابة فى السابعة عشرة ، حلوة كالبدر ، نديه كالفجر ، يزين وجهها الجميل عينان واسعتان آسرتان ، وغمازتان بديعتان فى وجنتيها ، وفم حلو صغير ، يغرى من يراه بلثمه وتقبيله . وجلست قبالتها ، ورحت أسترق النظر إليها فى نشوة ، وخفق قلبى فى فرح ، والتقت عيناى بعينيها مرات ، فعبث بأوتار فؤادى ذلك البريق الخاطف المنبعث من مقلتيها ، وهامت روحى تحلق فى سماء صافية من الحب والوداد ، وتقضى الوقت وأنا نشوان ، وأقبل الليل فانصرفت ، ولو طاوعت قلبى ما غادرت المكان .

وسرت فى الطريق مطرقا أفكر ، وما كنت وحيدا ، فقد كان طيف درية يرافقنى فى طريقى . فكرت فى تلك الفتاة الفتانة التى قطنت دار عمى حديثا ، فغمرتنى نشوة لذيذة ، سأراها كلما زرت عمى ، وسأنعم بالإصغاء إلى حديثها الشهى الذى كان يدغدغ حواسى .

ومرت الأيام بطيئة ، وصورة درية تحتل ذهنى ، وخطر لى أكثر من مرة أن أنطلق فى أثناء الأسبوع إلى دار عمى ، لأرى من هفت النفس إليها ، وتعلق القلب بها ، ولكنى أحجمت على مضض فقد كنت معتادا أن أذهب إلى هناك

يوم الخميس ، وخشيت أن يفطنوا إلى ما اعترانى من تغيير !

وجاء يوم الخميس ، فانطلقت إلى دار عمى ، وقد ارتديت حلة بديعة ، وزينت شعرى ، ورحت أغذ السير ، وقلبى فى صدرى نشوان ، ودنوت من البيت ، ورفعت عينى ، فقفز قلبى فى جنون ، وسرى فى بدنى تيار كهربى ، كانت درية تطل من شرفتها ، وخيل إلى أن ثغرها قد افتر عن ابتسامة حلوة لما لمحتنى .

وصعدت فى الدرج خفيفا كالطيف ، تدثرنى الغبطة ، ويلفنى السرور ، ورأيتها تفتح باب شقتها ، فاضطربت واعترانى ارتباك ، ولكن ذلك الإشراق الساحر الذى ارتسم على وجهها . والبريق اللطيف المنبعث من عينيها ، وتلك الابتسامة الحلوة التى رفت على شفتيها ، أفرخ بها روعى ، فحنيت لها رأسى محييا ، فردت على تحيتى ، وصعدنا معا فى الدرج ، كانت لحظة سعيدة لن أنساها .

وجلسنا فى شقة عمى ، وراحت تتحدث ، وأنا أصغى إليها كالمأخوذ ، كان حديثها يخلبنى ، ويستولى على لبى ، أو يسلبنى تفكيرى .. ورحت أرقبها ، كانت حركاتها تستهوينى ، وسكناتها ترضينى ، كنت أراها بعين الحب التى ما كانت تقع إلا على الروعة والجمال .

وأخذت درية ترصد مقدمى كل خميس ، فإذا لمحتنى مقبلا من شرفتها هرعت إلى الدرج تستقبلنى ، وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب ، ثم نصعد معا إلى شقة عمى ، نمضى الساعات الهنية التى كانت تمر كلمح البصر ، ويا طالما اجتررت حديث تلك الساعات فى الليالى والأيام !

وفى يوم من الأيام ، أخذنا أنا ودرية نرتقى الدرج ، لنصل إلى شقة عمى ، وقد لمس كتفى كتفها ، فخفق قلبى فى جوفى ، وتحركت إحساسات

الحب . وراحت تنساب فى صدرى ، فالتفت إليها ، فرأيت فى عينيها بريقا هز كيانى ، وجعلنى أهفو لأنفرد بها وحدىّ . وبلغنا شقة عمى ، ولكنى لم أعرج عليها لأدق الجرس ، بل وجدت نفسى أنساب فى الدرج كالمأخوذ ، وأجذب درية من يدها فى رفق فتنساب خلفى ، كأنما ألقت إلى مقاليد أمرها .

وبلغنا سطح الدار ، فوقفنا برهة ننظر إلى الأفق البعيد ، لا ينبس أحدنا بكلمة ، وراح قلبى يقفز ليغوص ، ثم يغوص ليقفز ، وأخذ الدم يتدفق حارا إلى رأسى ، واعترتنى رهبة واستولى على ارتباك ، وأخيرا وجدت لسانى ، فرحت أشرح لها حبى ، وأبثها وجدى ، وكانت تلك اللحظات أشهى لحظات حياتى ، التى عشت أنعم بذكراها سنين .

وأخذنا نتلاقى فوق سطح الدار ، وبعيدا عن العيون ، نسعد بحبنا ، ولكن لم يدم لنا الصفاء ، ففى يوم من الأيام هرعت إلى السطح لأقابلها ، فألفيتها مطرقة ، فدنوت منها ، ونفخت فى وجهها الهواء . ظلت فى عبوسها ، فقلت لها فى حنان :

— ماذا يا درية ؟

فرفعت وجهها ، فانخلع قلبى ؛ كانت الدموع تترقرق فى عينيها الساحرتين ، فقلت فى صوت مخنوق :

— ماذا جرى ؟

فقالت فى نبرات متهدجة :

— لن نتقابل بعد اليوم .

وشعرت بخنجر يمزق قلبى ، وبنار تشوى كبدى ، وبمطرقة هائلة تهوى على رأسى ، فقلت فى فزع :



— ماذا تقولين ؟

— انتهى كل شيء بيننا .

— ماذا حدث ؟

— خطبت ، وسيكتب العقد يوم الخميس القادم .

وأطرقت ، ولم أنبس بكلمة وإن كانت النار تحرق جوفى . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا ؛ وكنت لا أزال طالبا ، وكان أمامى خمس سنوات لأتم دراستى العالية ، وما كان من المعقول أن أتقدم لخطبتها ، وأطلب منها أن تنتظر هذه السنوات .

ونهضت درية تودعنى ، وفى عينيها دموع ، وفى جهها أسى ، فأحسست يدا قوية تضغط على رقبتى ، وجفافا فى حلقى ، وخطر لى أن اضمها إلى صدرى ، وأمسح دموعها بشفتى . ولكننى أحجمت ، فقد انتهى كل ما كان بيننا كحلم قصير ، وتقضت لحظات الهناء ، ولم يبق إلا الضنى والعذاب .

وهبطت درية ، وبقيت وحدى فريسة للعذاب ، ثم هبطت فى الدرج وفى جوفى لوعة ، وعزمت على أن أعود إلى بيتى لأنزوى بعيدا ، حتى لا يفطن أحد إلى ما أكابد من كرب وهموم ، ولكنى وجدت باب شقة عمى مفتوحا ، فلم أجرؤ على متابعة النزول خشية أن يلمحنى أحد . فدخلت وجلست صامتا لا أنطلق بشىء . وجاءت درية وأمها ، ودعت الأم زوج عمى وأبناءها لتشريف الحفل المقام ، بمناسبة كتابة عقد زواج درية ، ودعتنى الأم لتشريفهم فى ذلك اليوم ، فوعدتها بأنى سأفعل مسرورا ، وقمت لأنصرف ، فهمست درية لى بأنه يسرها أن أجئ ، فاربد وجهى ولم أستطع أن أدارى ما بى ، وانطلقت وفى صدرى ثورة ، ورحت أهبط فى الدرج كمجنون لا يلوى على شىء .

وجاء اليوم الموعود ، ففكرت فى أن أذهب إرضاء لدرية ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، فقد ثار وتمرد ، فبقيت فى حجرتى مطرقا مهموما . ومر الوقت بطيئا ، فرحت أذرع الغرفة صاعدا هابطا ، لأطرد صورة درية التى راحت تلاحقنى ، وتحتل تفكيرى ، وتعذبنى وتضنينى ، وسمعت طرقا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدت خادم عمى الصغيرة تقدم لى لفافة ، فقلت لها :

ــ ماهذا ؟

ــ إنه من درية هانم .

دوى قلبى دويا شديدا ، وفارت دمائى فى عروقى ، وتناولت اللفافة وقد سرت فى بدنى رعدة ، وتفككت مفاصلى ، وأغلقت الباب خلفى ، وأخذت أفض اللفافة على عجل ، وانتابنى قلق ، ووقعت عيناى على ما أرسلته لى درية ، فانقبضت ، يا للسخرية ! كانت أول هدية بعثت بها إلى « علبة ملبس » ليلة كتابة عقد زواجها ، ورفعت يدى ، وهممت بتطويح هديتها من النافذة ، ولكنى لم أفعل . إنها من درية ، وما كان لى أن أحطم آخر ما جاءنى منها .

ومرت عشر سنين ، وزوجت من ابنة عمى التى كانت طفلة فى تلك الأيام ، وجلسنا يوما ننسق « ألبوم » الصور ، فقدمت إلى صورة درية فارتبكت ، وقرأت الإهداء ، فزاد ارتباكى . ترى أكتبته لى ؟! وخطر لى أن أستفسر من زوجتى متى أهدت إليها هذه الصورة ، فقلت :

ــ أظن هذه الصورة قديمة .

ــ لا ، إنها أهدتها إلى قريبا .

وبقت حيرتى ، ترى أتوطدت الصداقة بين زوجتى وبين درية حتى إنها تكتب إليها : « إلى عزيزتى التى لن أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة

لن تمحوها يد السنين ، أم أنها ما زالت تذكر تلك اللحظات السعيدة التى قضيناها معا فى شرخ الشباب ؟!

والله إن هذا يحيرنى كلما نظرت إلى صورة درية ، وقرأت إهداءها العجيب .

وقلبت صفحة « الألبوم » فرأيت صورة أشاعت البهجة فى نفسى . إنها صورة شاب بارز الفكين ، ذى شارب أصفر قصير فى وجهه طيبة وبساطة ، عرفته فى المصلحة ، وعطفت عليه لما رأيت من اضطهاد رئيسه له ، لا لذنب إلا أن ذلك الرئيس يعتقد أن واجب الرؤساء الأول اضطهاد المرءوسين ، وكان من سوء حظه أن رئيسه فى الدرجة السابعة إذ كان هو على أعتاب الدرجة الثامنة ، وإنه لبون شاسع وفرق كبير .

وأحس الشاب عطفى ، فأحبنى ووثق بى ، حتى إنه كان يعرض على مشاكله ، ويستشيرنى فى أموره ، وفى يوم من الأيام جاءنى على استحياء ، وقال لى :

ـــ سأطلب منك طلبا أخشى أن ترفضه .

ـــ لن أرفض لك طلبا إذا كان فى مقدورى أن أحققه .

فقال وقد تضرج وجهه بحمرة الخجل :

ـــ سأتزوج ..

ـــ مبارك .

ـــ وستذهب معى لتطلب لى يد من سأتزوجها .

ـــ أنا ؟ وما دخلى فى ذلك ؟ إننى آخر من يصلح لمثل هذه المهمة .

ـــ لا أطمئن إلى أحد غيرك .

ـــ أرجو منك أن ..

— والله لن أذهب إلا معك .

فقلت فى استسلام :

— أمرى إلى الله .

— سنسافر يوم الجمعة .

— إلى أين ؟

— إلى بلدة قريبة من طنطا .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة كنا فى طريقنا إلى طنطا ، وراح يقص على قصة الفتاة التى يريد أن يتزوجها : إنها تعمل مدرسة مع شقيقته فى إحدى مدارس القاهرة ، وقد رآها فى بيتهم فأعجب بها ، ولم يزد على ذلك شيئا .

وغادرنا القطار فى طنطا ، وذهبنا إلى السكة الحديدية الضيقة ، لتحملنا إلى بلد المحبوب . قعدنا فى مكان مكشوف فقد كان الجو صحوا جميلا ، وكانت الخضرة الزاهية التى تكسو الأراضى المترامية على مدى البصر ، تهفو إليها النفوس ، وتشيع البهجة فى الصدور .

وزأر القطار ، وهاج وماج ، ثم زحف زَحْفَ السلحفاة . إنه قطار عجيب ، يتهادى فى وقار الشيوخ ، لا يحفل بالزمن ، ولا يخضع لنظام ، يسير كما يشاء ، ويقف حيثما يحلو له . وظل القطار فى تسكعه ، ونحن فى سمر شهى ، وخطر لى أن أتمشى قليلا فى ذلك الجو البديع ، فهبطت من القطار وهو يسير ، ومشيت فى خطوات ثابتة أملأ رئتى بالهواء المنعش ، وأحسست نشاطا يدب فى جسمى ، فأغذذت السير ، وبعد مدة تلفت خلفى فألفيت القطار مقبلا نحوى بضجيجه وزئيره ، فانتظرته حتى وصل إلى ، فركبته ثانية ، وجلست إلى جوار صديقى ، ليحملنا إلى بلد ما كنا بالغيه إلا بشق الأنفس !

وغادرنا القطار فى وسط المزارع ، ثم سرنا على شريط مرتفع من الأرض

ينساب على جانبيه جدولان ، فرحنا نسير وقد رفعنا أذرعنا فى الهواء لنحفظ توازننا ، كأنما كنا نسير على الصراط المستقيم . وانطلقنا حتى بلغنا حانوتا متواضعا بنى بالطين ، فتقدم زميلى إلى من فيه ، وحدثهم قليلا ثم صافحهم فى حرارة ، وجاءنى مشرق الوجه يدعونى لمقابلة أهل عروسه . فذهبت معه إلى الحانوت ، وصافحت من فيه .

ودعينا للذهاب إلى الدار ، فسار أمامنا شاب يهدينا الطريق ، فرحنا ننساب فى دروب ضيقة ملتوية حتى بلغنا الدار المنشودة . فدلفنا إلى منظرة رحبة ، صفت بها الأنضاد والأرائك ، وكانت الآية الوحيدة التى تكشف عن أن أصحاب هذه الدار زاروا القاهرة ، تلك الصور الشعبية التى تباع فى الموالد لأبى زيد الهلالى وهو ينكل بأعدائه ، والإمام علىّ على صهوة فرسه يطعن الشيطان طعنة نجلاء يسقط على أثرها مضرجا بدمه ، وكانت فى إطارات بسيطة ، معلقة على الجدران فى ذوق سقيم .

وفتح الباب ، وأقبل علينا رجل يرتدى طربوشا وجلبابا من الصوف الداكن ، وصافحنا فى تحفظ ، وجلس إلى جوارنا يردد ألفاظ الترحيب ، وينظر إلينا فى استغراب ، ففطنت إلى أنه لم يكن ينتظر قدومنا . وصمت الرجل فساد المكان سكون ثقيل .. رأيت أن أقطع ذلك الصمت ، وأن أرفع تلك الوحشة التى رانت علينا ، بأن أذكر سبب زيارتنا ، فالتفت إلى الرجل ، وقلت :

— جئنا نخطب ابنتك .

فنظر الرجل إلىّ فى دهش وقال :

— ابنتى أنا ؟!

فقلت فى توكيد :

— أجل .

فنهض الرجل ، وغادر المكان ، وظل صديقى صامتا لا يتكلم ، حتى أقبل الرجل وفى يده فتاة فى السابعة من عمرها ، وقال :

— هذه كبرى بناتى .

فأرتج على ، ولم أجد لسانى ، ولم أدر ما أقول ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وبلغ مسامعى صوت صديقى الخافت وهو يقول :

— جئنا نطلب أختك .

فرنوت إلى صديقى رنوة عتاب ، ولكنى فطنت إلى أنه لم يكن يدرى ذلك قبل الساعة . وتحدث صديقى قليلا عن الصلة التى تربطه بهم ، وحسنا فعل ، زال عنى ذلك الانفعال الذى استولى على ، واستجمعت خيوط نفسى التى ذهبت شعاعا عقب تلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها ، وابتدأت أستأنف حديثى ، فقلت للرجل :

— لا أحب أن أخدعك ، فأقول لك إن صديقى ينتظره مستقبل عظيم ، إننى أقول فى صراحة إنه لن يكون رئيسا للوزارة ، أو مدير المصلحة ، إنه يضع قدمه الآن على أول درجة من درجات الوظائف ، وإنه سيرق فى سلم الدرجات كما يرقى غيره ، وسيكون قادرا على أن يعيش هو وزوجه حياة متوسطة كما يعيش آلاف من الموظفين أمثاله . إنه شاب طيب ، وإنى أزكيه .

ورن فى أذنى « إنى » « أزكيه » رنينا غريبا ، فالرجل لا يعرفنى حتى يقبل تزكيتى ، وأحسست أنى جاوزت حدى فبدأت أنكمش ، ولكن كم كانت دهشتى عظيمة . لما رأيت الرجل يقبل على ويحدثنى متفتح النفس ، ثم ينهى حديثه بقوله :

— إنى سأزوجها له إكراما لك !

وانتهت زيارتنا ، واستأذنا وانصرفنا ، وما ابتعدنا عن الدار حتى احتضنني صديقي ، وراح يقبلني فى سرور ، وفهمت منه أن أخته خطبتها له قبل ذلك ، ولكنه رفضوا ، وأن الرجل لم يكن مجاملا لما قال إنه سيزوجها له إكراما لى . وخطر لى خاطر ، ترى لو قابلني الآن بعد أن كابد الحياة الزوجية أكان يهرع إلى ليقبلني ؟! .

وقلبت صفحة « الألبوم » ونظرت ، فانقبض صدرى ، وران على نفسى الحزن العميق ، وأحسست غصة فى حلقى ، ونارا تحرق كبدى ، كانت صورة أخى العزيز الذى أحببته لقلبه الكبير ، الذى كان يتسع لحب الناس جميعا ، وعادت بى الذكريات إلى شهور قريبة ، إلى يوم انطبعت فى نفسى ذكراه الأليمة ، يوم أغبر لن يمحو ما خلفه فى من أسى .. مر الليالى وكر السنين .

كان الليل قد أقبل ، وكانت زوجى تشكو وعكة خفيفة . فهبط من شقته إلى شقتنا ليعودنا ، وجلسنا نتحدث ، فراح يقنعنى أن نسافر فى الصباح مع النادى إلى الإسماعيلية ، ولما كنت أنفر بطبعى من الناس الذين لا تربطنى بهم صداقة متينة ، رفضت ، فأخذ يثنينى عن عزمى ، ولكننى أصررت على الرفض ، فأقسم أن يأخذنى معه برغم أنفى لأروح عن نفسى ، ويا طالما أخذنى معه قسرا إلى رحلات رائعة بهيجة .

واسترسلنا فى الحديث ، ولاحظت احتقان وجهه ، فسألته عما فعله ، فقال لى إنه أخذ قبل عودته حقنة لعلاج ضغط الدم ، وصفها له أحد أصدقائه ، وأردت أن أنهاه عن ذلك ، ولكنى لم أتكلم ، فقد كنت أعلم ألا فائدة من تحذيره ، فقد كان يستعمل أى دواء يسمع به ، أو يصفه له صديق ، أو حتى عابر طريق ، كأنما جسمه حقل تجارب للأدوية والعقاقير .

وقام بعد أن قال لى إننى ذاهب معه إلى الإسماعيلية فى الصباح ، وجلست

أتحدث مع أمي التي كانت ستقضي الليلة معنا ، لتعتني بزوجي التي كانت تشكو وعكة خفيفة ، ثم دخلت فراشي لأنام ، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى سمعت جرس الباب يرن رنينا متواصلا ، فنهضت وفتحت الباب ، فألفيت زوجة أخي تقول في اضطراب :

— تعالوا ، إنه يغط غطيطا مفزعا ، وقد ناديته ولكنه لم يرد على .

فهرعت إليه ، وإذا بأمي تسبقني في الدرج ، تولول في صوت خافت مفزوع ، كأنما حزر قلبها كل شيء ، ورحنا نهزه في رفق ، ولكنه ظل في غطيطه ، فأسرعت أمي إلى قلة الماء وصبتها على وجهه ، ثم حملناه وأقعدناه ، ففتح عينيه ، وراح ينظر إلينا وقد ترقرق الدمع في مقلتيه ، وقال في صوت لا يكاد يبين :

— انتهيت .. الأولاد .

ثم أشار بيده إلى نصفه الذى ما كان يستطيع أن يحركه ، ورنا إلينا في أسى ، فأحسست سكاكين تمزق أحشائي ، ونارا تندلع في جوفي ، وأسرعنا إلى التليفون ، وطلبنا طبيبا من أصدقائنا ، وانتظرنا مقدمه في قلق رهيب .

وجاء الطبيب ، وما أن فحص عنه حتى اربد وجهه ، وبان فيه الحزن ، فتناول التليفون ، واستدعى طبيبا آخر ، وراح ينتظره صامتا لا ينبس بكلمة.

فرحنا نذهب ونجيء في الغرف حيارى وقد لفتنا الرهبة ، ونزل بنا الهم الثقيل ، وأقبل الطبيب الآخر ، ومرت اللحظات التي غابها في غرفة أخي رهيبة موحشة ، ثم خرج من عنده منكس الرأس ، فهبط قلبي من الخوف ، وأسرعنا إليه ، واستفسرنا منه عما وجد ، فقال في صوت خافض أقرب إلى الهمس :

— نزيف في المخ ..

وغادرنا الطبيبان وقد خلفا فى القلب لوعة ، وفى الجوف نارا ، وجلسنا مطرقين ، مرهفى الأعصاب ، نحس مرور الثوانى واللحظات ، وراحت أمى تغدو وتروح شاحبة الوجه ، شاخصة البصر ، تدق صدرها فى لوعة وحزن ، وانقضت الليلة كأسوا ما تكون ليلة مرت على إنسان .

وأصبح الصباح ، واستدعينا طبيبا آخر ، فحجمه ، وأمر ألا يدخل عنده أحد ، ورحت أغدو وأروح فى الردهة ، ثم اتجهت إلى باب غرفته وفتحته ، حتى إذا انفرج قليلا نظرت إلى أخى المسجى على الفراش ، فغاص قلبى ، وأحسست جافا وحرقة فى حلقى ، ودثرنى الحزن العميق ، فقد كانت رؤية أخى الذى كان يملأ الدنيا حياة وهو راقد لا يستطيع أن يرفع ذراعا تفتت كبدى .

وانقضى النهار ، ونحن نترجح بين اليأس والرجاء ، وفى المساء جاء الطبيب وفحص عنه . وقال إنه لو أمضى ليلته هادئا . فقد يجتاز الأزمة بسلام . وتعلقنا بأهداب الأمل ، ومددنا فى حبل الرجاء ، فرحنا نذكر من نعرفهم ومن سمعنا عنهم ، ممن حدث لهم ما حدث لأخى ، ونجوا مما أصابهم ، واطمأننا إلى ذلك الحديث ، فاسترسلنا فيه ، فشاعت فى النفوس الآمال .

وانقضت الليلة هادئة ، وانتصف النهار وهو على حاله ، فرحنا نذكر ما سنفعله بعد إبلاله من مرضه ، ولكن ما إن وفدت طلائع الليل حتى ارتفعت درجة حرارته ، واحتقن وجهه بالدم ، فاستدعينا الطبيب ، فقال إن تلك الليلة فاصلة ، ولم يضف إلى ذلك شيئا ، وتركنا فريسة للهموم والأفكار .

وقعدنا محزونين ، نعد الثوانى واللحظات ، ونبتهل إلى الله فى حرارة أن يعفو عنه . وانتصف الليل أو كاد ، فتحطمت أعصابى ، ونال منى التعب ، فذهبت إلى فراشى لأستريح قليلا ، وما إن وضعت رأسى على الوسادة حتى

استغرقت فى النوم ، ورأيت أبى الراحل بوجهه الأبيض ، وشاربه الأصفر ، يناولنى قطعة من الذهب ، فأطبقت عليها وأنا فرحان ، ولكن لم يدم فرحى طويلا إذ وفد عملاق هائل ، بشع الصورة ، مفتول العضلات ، ولف ذراعه القوية حول عنقى ، وأخذ يضغط فى قوة ليكتم أنفاسى ، فشعرت بأنى أموت من الاختناق ، ومد يده إلى يدى ، وحاول أن يغتصب منى قطعة الذهب ، ولكنى جعلت أجاهد وأحاول أن أتملص منه دون جدوى ، واشتد الضغط على عنقى ، فأرخيت يدى ، فأخذ منى الذهب الذى أعطانيه أبى ، وهببت من نومى مرعوبا مفزوعا ، وإذا بصوت الجرس يرن فى أذنى رنينا موحشا مقبضا ، خلع قلبى وفك مفاصلى ، وقمت أعدو نحو الباب ، شاخص البصر ، مبهور الأنفاس ، أكاد أنهار من الإعياء ، وفتحت الباب وقلبى يغوص فى جوفى ، فألفيت من يدعونى للصعود ، فصعدت قلقا مضطربا أشعر بغثيان . دخلت على أخى المسجى ، فألفيته يجود بآخر أنفاسه . فأحسست ألما هائلا يحز فى نفسى ، ولم أطق أن أراه وهو فى نزعه الأخير ، فخرجت من الغرفة أبكى أحر بكاء ، وشق سكون الليل صوت أمى الثكلى معلنا أن أخى الحبيب قد انتهى وأصبح ذكرى من الذكريات ، فلم أستطع أن أكبت ما بى ، أو أتغلب على النار التى راحت تحرق جوفى ، فرحت ألتدم كما تلتدم النساء .

ونظرت من خلل دموعى إلى الألبوم ، فوجدت عبراتى تتساقط على صورة أخى الذى تقضت أيامه كحلم قصير ، فأغلقت « الألبوم » فى حزن ، وشعرت بأنى أكاد أختنق ، فنهضت وذهبت إلى الشرفة لأريح أعصابى التى هيجتها الذكريات ، ولأستنشق هواء جديدا ، لعله يطفئ تلك النار المتأججة بين الضلوع .

صديقي جيمس

تمت تلك الليلة غرارا ، فما يكاد النوم يمس أجفانى ، وما تكاد عيناى تغمضان ، حتى أهب من نومى ، وأتطلع إلى الأفق الشرق من خلل النافذة القريبة من فراشى ، فقد كنت أرصد طلوع النهار ، وأخشى أن يأخذنى النوم ، فأستيقظ متأخرا كما اعتدت ذلك منذ سنين .

ولاح لعينى بصيص نور يولد فى الأفق ، فتركت فراشى ، وارتديت ملابسى ، ثم ضغطت على الزر الكهربى ، فبدد النور ظلمة المكان ، فرحت أعدل هندامى ، ثم دسست يدى فى جيبى ، وأخرجت رسالة مطوية نشرتها أمام عينى ، وجعلت أقرؤها فى نشوة ، لأول مرة فى ذلك الصباح ، وللمرة المائة على الأقل منذ تسلمتها من الوزارة قبل ذلك بيوم .

كانت رسالة من الوزارة إلى مصلحة من المصالح التابعة لها ، الضاربة فى الصحراء المترامية بأرباض القاهرة ، وقد جاء فيها أنى عينت مترجما ، وعلى المصلحة أن تسند إلىّ عملى ، وأن تبعث إلى الوزارة بقرار تسلمى ذلك العمل ، وطويت الرسالة فى رفق ، ثم دسستها فى جيبى فى حذر ، وانطلقت إلى العمل وأنا جذلان .

ولفح وجهى نسيم الصباح ، فأحسست راحة ، وأخذت أستنشق الهواء منشرحا ، وكنت أحس فى نفسى خفة ، فطويت الطريق التى تفصل بين الدار ومحطة الترام فى لحظات قصار ، وأخذت أدير عينى فيما حولى ، فبدا

كل شيء جميلا ، فما رأيت الطريق من قبل اليوم هادئة ساكنة هدوء اليوم الأخاذ ، وأقبل الترام ، فقفزت فيه ، وجعلت أتطلع إلى الركاب ، وأمد إليهم بصرى وأنا نشوان ، وخامرنى شعور لذيذ ، فقد اتسع قلبى لهم جميعاً ، فأحسست نحوهم حبا ، كأنما كانوا رفاقا من رفاق الكلية ، أو صحابا من صحاب الطفولة والشباب .

وأحسست رغبة فى الكلام ، كنت أود أن أحدث أيا كان ، فالتفت إلى الجالس بجوارى ، وهممت بالحديث ، ولكن عقد الخجل لسانى ، وماتت الكلمات على شفتى ، فسكت على مضض ، وانطلق الترام ، ورحت أتلفت وأطل من النافذة على الطريق الجديدة ، التى ستصبح من ذلك اليوم طريقى ، أضرب فيها كل يوم وأنا فرحان .

وخيل إلى أنى بلغت المكان الذى ينبغى أن أترك عنده الترام ، فهبطت ، وأدرت عينى فيما حولى ، فلم أهتد إلى ما أفعل ، ووقفت لا أدرى إلى أين أتوجه ولمحت جنديا من جنود الجيش بالقرب منى ، فذهبت إليه ، وسألته عن المصلحة التى عينت فيها ، فأرشدنى إلى طريق يجرى كشريان فى بطن الصحراء ، فسألته :

— مسافة طويلة ؟

فقال فى ثقة :

— بضع دقائق .

وسرت حتى قطعت الطريق الممهدة ، ثم طفقت قدماى تغوصان فى الرمال ، ولاح لعينى فضاء عريض ، يسيطر عليه سكون جليل ، فأخذت أملأ صدرى بالهواء ، وأزفر فى هدوء ، ورحت أصفر فى نشاط ، وأدندن فى سرور ، وتوهج قرص الشمس ، فجعلت أرقب الألوان القرمزية والذهبية

التى انداحت فى رقعة السماء فى روعة وجمال ، فربا سرورى ، وأحسست برغبة فى القفز والعدو لأنفس عن الإحساسات العذبة المذخورة فى صدرى ، فانطلقت أعدو ، فلما انبهرت أنفاسى ، توقفت حتى أستريح ، ثم رحت أعدو فى الفضاء .

وبعثت الشمس أشعتها الأولى إلى الأرض ، فبدت الصحراء كأنما فرشت ببساط من النور ، ولاح لى على البعد بناية قائمة فى جوف الصحراء ، فجعلتها هدفى ، ورحت أطوى الأرض ، وتصرمت ساعة وبعض ساعة ، وما بلغت الهدف . وتذكرت ذلك الجندى وهو يقول : « بضع دقائق » فابتسمت ، فما كان فى الوجود من شىء يعكر صفوى فى تلك اللحظة .

وصك أذنى نباح كلب ، فأحسست راحة ، أيقنت أنى دنوت من هدفى ، ولكن سرعان ما فرت تلك الطمأنينة ، وحل رعب وفزع ، فقد لمحت كلبين كبيرين قذرين يعدوان نحوى ، وينبحان فى زمجرة وغضب ، فانخلع قلبى ، وأغذذت السير ، وتلفت مذعورا ، ثم هرولت ، ودنا الكلبان منى ، فعدوت عدوا . ورأيت تراما مقبلا يخترق الصحراء ، فأطلقت ساقى للريح ، وظلت المطاردة مدة حتى قفزت فى الترام ، وأحد الكلبين يحاول أن ينهش كعب حذائى .

جلست مبهور النفس ، يتفصد منى العرق ، ولا يكاد قلبى يستقر فى جوفى ، ونظرت إلى الكلبين اللذين كانا يجدان فى أثر الترام ، فسمشت قشعريرة فى بدنى ، وأخرجت منديلا ، وأخذت أجفف به عرقى ، ثم تذكرت الرسالة العزيزة التى فى جيبى ، فتحسستها ، فلما ألفيتها فى مكانها هدأت نفسى . وأخرجتها فى حذر ، ونشرتها أمام عينى ، وقرأتها ، فنسيت ما صادفنى من متاعب ، وعادت إلى نشوتى واطمئنانى .

وبلغت المصلحة فى أمان ، وسألت أول من قابلت عما أفعل ، فأشار على بأن أقدم نفسي إلى حضرة كبير الكتاب ، وأرشدنى إلى مكتبه ، فانطلقت إلى هناك ، فألفيت كهلا قصيرا لا يبعث مظهره على الاحترام ، فاقتربت منه ، وقد انتشرت فى صدرى إحساسات خوف واضطراب ، وألقيت عليه السلام بصوت مبحوح ، فنظر إلى الرجل فى عدم اكتراث ، فقدمت إليه الرسالة العزيزة ، فتناولها منى وقرأها ، فلما انتهى منها جعل يتفحصنى ، فشعرت بانقباض ، وقال لى وقد رفت على شفتيه ابتسامة لم أرتح لها :

— حضرتك مترجم ؟!

ضايقتني ابتسامته ، فاحتبست الكلمات فى حلقى ، فلم أجبه ، والظاهر أنه لم يكن ينتظر إجابتى ، فقد استطرد :

— وماذا تترجم ؟

فقلت له فى صوت خافت :

— أى شىء ..

فقال فى إنكار :

— الأمر هنا يختلف . المترجم عندنا يحتاج إلى إلمام بالمصطحات الفنية الكثيرة المستعملة بمصلحتنا ، ولقد عهدت بأعمال الترجمة اليسيرة إلى بعض الممتازين من موظفينا . فأخفقوا جميعا ، فاضطررت إلى أن أقوم بالترجمة وحدى ، إننى المترجم الوحيد فى هذه المصلحة .

أحسست جفافا فى حلقى ، ولم أنبس بكلمة ، وإن كان صدرى قد صار مسرحا لإحساسات كثيرة ، وقال كبير الكتاب يؤكد حديثه :

— الترجمة خبرة قبل كل شىء ، وأحسب أنك لن تنجح وعلى كل حال فلننتظر حتى يحضر المدير ، ويبت فى الموضوع .

وسكت ، واستأنف عمله فى هدوء ، وتركنى واقفا أتميز غيظا . كانت مقابلته لى جافة ، وما دار بخلدى أن أقابل بمثل تلك الجفوة أبدا ، اعتدت أن أقابل فى الكلية أساتذة مبجلين ، كنت أجد منهم رحابة صدر ، ودماثة خلق ، ورقة وكياسة ، فإذا بى اليوم أقابل أول ما أقابل جلفا ، يمتاز عن السوق بوقاحته وقلة ذوقه ، وبقيت واقفا مدة ، وقد فار دمى فى عروق ، وكدت أنفجر فيه أكثر من مرة ، ولكنى تجملت بالصبر ، وأخيرا تعطف حضرته وقال لى :

ـــ اجلس حتى يحضر حضرة المدير .

فجلست منقبض الصدر ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وتقضى الوقت بطيئا ثقيلا ، وأخذت أفكر فيما قاله لى ، فربا ضيقى ، ترى ما الذى جعله يجزم بعدم كفايتى فى الترجمة ؟ أقرأ ذلك فى وجهى ، أم أن صغر سنى جعله يستخف بى ؟! وتململت كثيرا ، وساد الغرفة سكون بغيض ، وأخيرا جاء المدير ، فأصلح حضرة كبير الكتاب هندامه ، ثم وضع طربوشه فوق رأسه فى عناية ، والتفت إلى وقال فى غلظة جندى يقتاد مجرما :

ـــ تعال .

فقمت ، وسرت خلفه ، فدخلنا إلى غرفة فاخرة الرياش ، ورأيت رجلا عليه مهابة ، جالسا خلف مكتب ، فحييته من بعيد ، وتقدم حضرة كبير الكتاب ، وانثنى كقوس ، وقدم الرسالة فى احترام ، فما أن انتهى المدير من قراءتها حتى مد يده مصافحا ، وقال :

ـــ مبارك يا بنى ، أرجو أن تجد عندنا كل راحة . أنشأنا مكتبا جديدا للترجمة ، وأنت أول من عين فيه ، فأرجو أن يوفقك الله فى عملك .

ونزل كلام المدير على قلبى بردا وسلاما ، فهدأت نفسى ، وبان الدهش

فى وجه كبير الكتاب ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، والتفت إليه المدير وقال له :

ـــ أرسل حضرته إلى مكتب عبد الفتاح أفندى ، ليتسلم عمله .

فقال كبير الكتاب فى تأدب ظاهر وهو ينحنى :

ـــ حاضر يا أفندم .

وخرجنا ، وفى وجه كبير الكتاب ضيق ؛ كان يلوح عليه عدم الرضا عن ذلك التعيين ، ونادى فراشا واقفا بالباب ، وقال له :

ـــ خذ الأفندى إلى مكتب عبد الفتاح أفندى .

وناولنى رسالة التعيين ، فسرت خلف الرجل فى ممار ضيقة ، حتى بلغنا حجرة متواضعة ، فدخل الرجل ، فدخلت خلفه ، ووقفنا أمام شاب بدين طويل ، كان يكتب فى أوراق مبعثرة فوق مكتبه ، فلما أحس بنا رفع رأسه ، وقال فى صوت غليظ منبعث من حنجرته :

ـــ خيرا .

فقدمت إليه الرسالة ، فلما فرغ من تلاوتها ، قال لى :

ـــ تسمح تنتظر فى الخارج قليلا .

فتركت الغرفة ، وانتظرت فى الخارج ، ووصل أذنى صوت عبد الفتاح أفندى ، وهو يتحدث فى التليفون بصوت عال :

ـــ يا أفندم أنا طلبت مترجما له خبرة ، لا شابا حديث التخرج لا خبرة له .

فنزل بى هم ثقيل ، واعترانى ضيق ، وأحسست كأن الأرض تدور بى ، لقد طعنت فى كرامتى فى ذلك الصباح أكثر من مرة . ما بال هؤلاء الأجلاف يغزوننى غزوا لا مبرر له . ويقدمون السيئة قبل الحسنة ؟ إنى لم أترجم شيئا بعد ، ولم يظهر تقصيرى حتى أستحق كل ذلك . كان هجوم كلاب الصباح على أخف وقعا على نفسى من هجوم هؤلاء الظالمين . فكرت أن أترك ذلك

المكان البغيض . وأن أعود من حيث جئت.وهممت بالسير ، وقد طأطأت بصرى ، وأحسست جفافا فى حلقى ، وشعرت بدمعة حائرة فى عينى :

وفتح باب المكتب ، وخرج منه شاب أسمر ، يرتدى ملابس سوداء ، ومد يده إلى نظارته وأصلحها فوق أنفه ، والتفت إلىّ وابتسم ، فظهرت أسنانه المقوسة الصفراء ، وقال :

ـــ حضرتك الموظف الجديد ؟

ـــ نعم .

ـــ أنا زميلك فى المكتب .

ـــ أهلا وسهلا .

ومد يده فى جيبه ، وأخرج لفيفة ، وقدمها إلىّ ، وقال :

ـــ تفضل .

ـــ أشكر لك ، إنى لا أدخن .

وبدأت نفسى تصفو ، وأقبلت عليه أحادثه ، فقال لى :

ـــ حضرتك متخرج فى الجامعة ؟

ـــ نعم .

فسكت قليلا ثم قال :

ـــ الترجمة ليست بالمؤهلات ، الترجمة خبرة .

فسكت ، واعترانى وجوم ، حتى ذلك الزميل الذى حسبته أول الأمر ظريفا يحاول أن ينال منى دون سبب ، وأن يطعننى بلا مبرر ، واستأنف :

ـــ العمل فى الحكومة لا يحتاج إلى مؤهلات ، إنه مسألة دراية وخبرة ، إننى ..

ودق جرس كان مثبتا عند الباب ، فاعتدل الزميل ، ودخل الغرفة

مهرولا ، ثم عاد وقال لى :

— تفضل .

دخلت ، ووقفت أمام عبد الفتاح أفندى مطرقا ، فقد عرفت رأيه فى ، قبل أن أبدأ العمل ، وجعل يحدثنى وأنا أنصت إليه ، دون أن أرفع وجهى ، قال :

— جاءنى قبلك زميل من زملائك الجامعيين ، وكلفته ترجمة بعض قطع صغيرة ، فلم يوفق فى ترجمتها ، فنقلته إلى مكتب آخر ، وسنرى الآن ما تستطيع أن تفعل .

لم ترتح نفسى إلى ذلك الحديث ، فانقبضت ، ولكن لم يكن أمامى إلا الصبر ، وتجرع كل هذه المنغصات دون تبرم ، وقدم إلى كتابا مفتوحا ، وقال لى :

— ترجم هذا الفصل .

تناولت الكتاب ، ووقفت حائرا لا أدرى أين أجلس ، وفطن إلى حيرتى ، فأشار إلى نضد صغير ، يستعمل فى وضع الآلة الكاتبة عليه ، وقال :

— اجلس هنا .

جلست على مقعد خشبى أمام ذلك النضد الصغير ، فأصبح وجهى إلى الحائط ، وطلبت ورقا ، فناولنى زميلى فى المكتب بعض وريقات ، وهو يبتسم ابتسامة صفراء ، فهمت ما ترمى إليه ؛ خيل إلى أنها تصيح بى مستهزئة : « سنرى الآن ما تستطيع الجامعة أن تقدم » . وشعرت بأنى طالب صغير ، أمام لجنة امتحان قاسية لا ترحم ، فمشت فى بدنى رعدة ، وسرعان ما جمعت أطراف نفسى التى ذهبت شعاعا أمام تلك الإهانات المتكررة ، وملكت أعصابى ، وقرأت ما طلب منى ترجمته ، فألفيته سهلا لا يحتاج إلى خبرة

أو دراية ، وبدأت الترجمة ، ووطنت العزم على أن أنهج نهج كتاب الأساليب الرنانة ، الذين يلجئون عامدين إلى الألفاظ الضخمة ، والجمل المحفوظة الفخمة الطنانة ، ليدخلوا فى روع قرائهم أنهم من أئمة الكتاب ، الذين يملكون ناصية البيان ، فجعلت أنمق الأسلوب ، وأنتقى الألفاظ الغريبة ، لتكون شاهدا على علو كعبى فى الكتابة !

وانقضت ساعة ، فأنهيت ما عهد إلى فى ترجمته ، ودفعت به إلى عبد الفتاح أفندى ، فجعل يقرؤه ، وأخذت أرقب أساريره ، لأستشف أثر الترجمة فى نفسه ، فتيقنت قبل أن ينطق ، أن الديباجة المشرقة عملت عملها ، ولما انتهى من القراءة التفت إلى وقال :

ــ لا بأس :

وكأنما ساءه أن أوفق فى الترجمة ، ففتح مكتبه ، وأخرج نموذجا كبيرا قدمه إلى ، وطلب منى ترجمته . قرأت ذلك النموذج ، لم أفهم منه شيئا ، كان مجموعة من الاصطلاحات الفنية الدقيقة ، فوضعته أمامى ، وقرأته مرات ، ثم أمسكت القلم ، ولكن أغلق على . أحسست كأن الدنيا ضاقت فى وجهى . وفتح الباب ، ودخل رجل إنجليزى ، واتجه إلى مكتب تكدست فوقه أضابير عدة وجلس ، فخف إليه زميل المكتب ، ووقف أمامه فى أدب ، وأخرج الرجل الإنجليزى سيجارا من جيبه ، ووضعه فى فمه ، وما أسرع ما أخرج الزميل علبة الثقاب ، وأشعل عودا ، وانحنى يشعل السيجار ، وهمس الرجل بكلمة لم أتبينها ، فهرع الزميل وفتح باب المكتب وقال بصوت عال :

ــ قهوة لمستر جيمس حالا .

ونهض عبد الفتاح أفندى ، وقال للزميل ، وهو يغادر الغرفة :

ــ إنى ذاهب إلى مكتب المدير ، وسأعود بعد قليل يا شكرى أفندى .

— حاضر يا سعادة البك .

ووقف شكرى أفندى بجوار مستر جيمس ، وانطبعت على شفتيه ابتسامة تملق ورياء . وهو يرقب حركات الرجل الإنجليزى فى انتباه ، فإذا مد يده ليأخذ ملفا من الملفات ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى أفندى إلى الملف وتقدمه فى لياقة ولباقة ، وإذا أخرج محبرته ليملأ القلم ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى إلى المحبرة وتنزع غطاءها ، ثم يأخذ القلم ويملأه وينظفه ، ولولا الملامة لأخرج منديله المتدلى من جيب سترته ، ونظف به سن القلم العزيز مما لصق به من حبر .

ونظر إلىّ مستر جيمس طويلا ، كأنما كان يستفسر عن ذلك الدخيل الذى أقبل إلى المكتب دون أن يقدم نفسه إليه ، وفطن شكرى إلى نظراته ، فقال له :

— إنه موظف جديد .

والتفت إلى وقال :

— تعال أقدمك إلى مستر جيمس ؟

تركت النموذج الذى حيرنى ، واتجهت إلى حيث كانا ، فأخذ الرجل يحادثنى فى تحفظ ، ثم قال لشكرى :

— أره الملفات ، ونظام حفظها ، لعله يستطيع أن يساعدك . أحسست هوانا ، فما جئت لأحفظ ملفات ، إنى فهمت من مدير المصلحة أنى قادم لأنشىء قسما للترجمة ، وكنت أحسب الأمور سهلة هينة ، فإذا بى أجد أناسا لا يودون احترامى ، أو الاعتراف بتعيينى .

وخرج مستر جيمس ، وطفق شكرى بعرض على الملفات ، وهو يردد بين كل جملة وأخرى :

وأخرى :

ـــ الحكومة ليست فى حاجة إلى مؤهلات ، العبرة كل العبرة بالخبرة .

وأيقنت من حديثهم أنهم لا يحقدون على ، بل يحقدون على مؤهلاتى ، إنهم يحاولون الغض من شهادتى الجامعية ، ويتحدثون عنها كأنها وصمة ، ودليل على عدم الخبرة ، فعزمت فى نفسى أمرا .

وانتهى اليوم الأول بخيره وشره ، وأزف ميعاد الانصراف ، فأقبلت سيارة حكومية ، ووقفت عند باب المكتب ، وفتح الباب ، وظهر عنده مستر جيمس ، فأسرع شكرى وحمل حقيبة كبيرة بها أوراق كثيرة ، فحسبتها فى أول الأمر حقيبته ، وإذا بمستر جيمس يمد يده ليتناولها ، ولكن شكرى أصر على أن يحملها حتى السيارة ، ووضعها بجوار السائق ، ووقف بعيدا ، وقد رفت على شفتيه ابتسامة ذليلة ، ركب مستر جيمس ، وأشار لشكرى بالركوب ، فأسرع وركب بجوار السائق مسرورا .

شعرت بضيق ، وتيقنت أنى لن أسيغ العيش بين هؤلاء الممثلين ، وخفضت بصرى فى استسلام حزين ، ثم نظرت إلى النضد المتواضع الذى خصص لى ، فوقعت عيناى على النموذج الذى أخفقت فى ترجمته ، فانقبض صدرى ، وخيمت على نفسى سحابة كدر ، وأحسست أن كبريائى تثور ، فما كنت أريد أن أخفق أمام هؤلاء التافهين المتعجرفين ، وخطر لى أن آخذ النموذج معى ، وألا أعود إلى العمل إلا بعد أن أترجمه كما أحب وأشتهى . وتناولت النموذج ، وخرجت وحيدا أضرب فى الطريق الطويلة الموصلة إلى الترام .

وذهبت إلى مكتبات القاهرة ، أبحث وأنقب ، حتى اهتديت إلى دليل إنجليزى يشرح دقائق الفن الذى عهد إلى أن أترجم مصطلحاته فاشتريته ،

وعدت إلى دارى ، وأخذت أقرأ فى ذلك الدليل ، وتقضت ساعات ، وأنا مكب على القراءة والدرس ، وراحت الساعات تمر ، ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ، وما ترجمت من النموذج حرفا ، ولكنى كنت أوقن فى قرارة نفسى أنى سأتمكن من ترجمته قبل أن أدخل فراشى .

وبدأت الترجمة ، فألفيت نفسى منطلقا فيها ، وما دقت الساعة الثانية عشرة حتى كنت قد أنجزت كل شىء على ما أشتهى ، وهممت بالنهوض لأنام ، ولكن خطر لى أن أقرأ باب الملفات وطرق حفظها ، حتى أفحم شكرى أفندى الذى تعالى على اليوم ، بل خطر لى أن أتحدى المستر جيمس ، وتناولت كتابا إنجليزيا فى الحفظ وطرقه ، ورحت أقرؤه ، وأدون ملاحظاتى ، فلما دقت الواحدة ، ذهبت إلى فراشى لأنام ، وأنا مطمئن النفس ، فلن يسخر منى عبد الفتاح أفندى ، ولن يشمت فى شكرى . ولن يتعالى على بعد اليوم المستر جيمس .

وحاولت النوم ، ولكن لم أذق طعم الغمض ، رأيت بعين خيالى ما مر بى فى ذلك اليوم ، فاهتديت إلى أن مسالمة هؤلاء الناس لن تجلب لى إلا الهوان ، فالناس جميعا لا يقيمون وزنا للوديع المسالم ، ولكنهم يهابون المشاكس الذى لا يحجم عن مناوأتهم ، والنيل منهم ، يعملون له ألف حساب ، فعزمت على أن أناوئهم جميعا ، وأن أشعرهم بأننى لست سهل الازدراد .

وأصبح الصباح ، فخرجت إلى العمل ، ولم تكن نفسى صافية صفاء الأمس ، كنت بالأمس أحسب أنى ذاهب إلى حيث أجد رفاقا رحماء بينهم ، وإذا بى اليوم أنطلق وأنا أعلم أنى ذاهب إلى أناس محدودى الآفاق ، همهم الأول تنغيصى ، والغض من شأنى ، والاستعلاء على ، وإيهامى أن المؤهلات وصمة ينبغى ألا يوصم بها ذوو الخبرة والكفايات ! كانت الطريق هادئة

موحشة ، فزادت فى وحشتى ، وكانت المصابيح خامدة هامدة ، تلفظ آخر أنفاسها قبل طلوع النهار ، فكانت تطفئ روحى ، وأقبل الترام فصعدت فى تكاسل وتراخ ، وأدرت عينى فى الركاب ، فألفيتهم جميعا من رفيقى الحال ، الذين هجروا فراشهم الدفئ فى البكور ، ليكدحوا من الصباح إلى المساء لقاء لقمات ، كان البؤس مرتسما على محياهم ، ولأول مرة أحسست أنى واحد من هؤلاء البائسين ، فما اضطرنى إلى الخروج فى الصباح الباكر ، واحتمال سخافات الناس إلا الطعام ، فانقبض صدرى ، وشعرت بغصة فى حلقى ، وتضاءلت نفسى فى عينى .

وبلغت المكتب مبكرا ، فقد عرفت أن هناك تراما يصل إلى المصلحة ، وأن لا ضرورة لاختراق الصحراء سيرا على الأقدام ، وأخذت أقلب الملفات ، فوجدتها لا تسير على نظام من النظم العلمية المعروفة ، فأخذت أتذكر ما قرأته فى أمسى عن « طرق الحفظ » . وفتح الباب ، وأقبل شكرى أفندى ، وسلم على ، وقبل أن يتحدث عن الأقدمية والخبرة ، وأثرهما فى الحكومة ، سألته :

— من وضع نظام الحفظ هذا ؟

— مستر جيمس .

فقلت فى لهجة الواثق الخبير :

— خطأ .. هذا نظام خاطىء لا يستند على أساس .

فنظر إلى ، وفغر فاه كأنما قلت عجبا ، وظل ينظر إلى فى دهش فما كان يصدق أن يجرؤ موظف ليس له فى خدمة الحكومة أكثر من أربع وعشرين ساعة على تخطئة مستر جيمس ، وجاء مستر جيمس ، فحيانا بإيماءة خفيفة من رأسه ، وجلس إلى مكتبه ، ونظر شكرى إلى ولسان حاله

يقول : « قل له ذلك إن كان عندك شجاعة » فلم أنتظر ، وتقدمت إلى جيمس ، وقلت له دون تمهيد أو مقدمات :

— اطلعت على نظام الملفات فى هذا المكتب ، فوجدته نظاما خاطئا .

فرمقنى الرجل فى دهش وقال :

— كيف ؟

— إنه لا يسير على طريقة عملية من طرق الحفظ ، فللحفظ طرق ثلاث .

وطفقت أسرد فى طلاقة ما استذكرته فى أمسى ، فبان فى وجه الرجل حيرة وارتباك ، وظل ينصت إلى دون أن يقاطعنى . فلما انتهيت من محاضراتى ، نهض وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة .

وأقبل شكرى علىّ يحادثنى فى تحفظ ، وقد خفف من غلوائه ، وفقد ثقته فى نفسه ، فلم يتكلم بأسلوب الواثق ، وفطنت إلى أن شخصيته تضاءلت وانكمشت ، فسرت فى صدرى ابتسامة هازئة .

وأخذت أرقب إقبال عبد الفتاح أفندى ، ومر بعض الوقت ، وجاء يتهادى بجسمه الضخم ، وما إن جلس إلى مكتبه حتى ذهبت إليه وقدمت له ترجمة النموذج ، فجعل يقرؤه فى إمعان فلما انتهى منه ، التفت إلى وقال :

— عال . أظن أنك تعبت فى ترجمته .

فقلت فى عدم اكتراث :

— أبدا ما أيسر الترجمة .

— ومن أين لك معرفة هذه المصطلحات ؟

— مرت على من كثرة الاطلاع ، إنى أقرأ كثيرا .

ويعلم الله أنى لم أكن أعرف قبل أمسى كلمة واحدة من تلك المصطلحات الغريبة ، ويعلم الله أنى ما كنت أرغب فى الكذب ، لولا أن هذه هى الطريق

الوحيدة التى تضمن لى العيش بين هؤلاء المتعالين التافهين .

وجىء بمكتب لى ، ووضع بجوار مكتب مستر جيمس ، فرحت أعمل هادئ النفس ، وجعلت أختلس النظر إلى شكرى بين وقت وآخر ، فأجده مطرقا مهموما ، فأبتسم فى شماتة ، فقد أرضانى قهرى إياهم جميعا فى ذلك اليوم ، وانتقامى لما نالنى على أيديهم فى أمسى الذى لن أنساه ما حييت .

وخرج عبد الفتاح أفندى ، وتركنى وشكرى ، فدنا شكرى منى وقال فى تملق ظاهر :

ـــ أتعرف أن عبد الفتاح أفندى حاول أن يترجم ذلك النموذج من شهور ، ولكنه لم يفلح ؟!

فانشرح صدرى ، لا لأن عبد الفتاح أفندى أخفق فى ترجمة النموذج ، بل لأن تملق شكرى لى دليل على أننى ملأت مكانى أسرع مما كنت أقدر ، وجاء مستر جيمس ، وما إن وقعت عيناه على حتى قال :

ـــ إن طريقة الحفظ التى نتبعها هنا من وضع الوزارة ولا يمكن تبديلها .

ووأدت بسمة ودت أن ترتسم على شفتى ، فما أسرع ما أعلن الرجل الهزيمة ، وانقضى اليوم ، ووافى ميعاد الانصراف ، وجاء مستر جيمس فى سيارته ، وفتح باب المكتب وقال لى :

ـــ حقيبتى من فضلك .

لم أتحرك من مقعدى وإن ثار دمى فى عروقى ، فقد شعرت أن فى طلبه إهدارا لكرامتى ، فما جئت لأحمل حقيبته ، ونظرت اليه شزرا ، وسرعان ما هرع شكرى إلى الحقيبة ، وحملها فى سرور ، وانطلق إلى السيارة فى خفة فوضعها ، ثم قفز إلى جوار السائق ، ولم يلتفت إلى حتى لا يرى فى عينى نظرات الحسد ، فقد كان يحسب أنى أحسده على مركزه الممتاز .

ومرت الأيام ، واعتدت إنجاز العمل الرتيب التافه ، واعتدت سماع تفاهات شكرى أفندى فى عدم مبالاة ، وفى يوم دق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، فإذا بصوت نسوى رقيق يطلب مستر جيمس ، قلت إنه غير موجود الآن ، ولما وضعت السماعة ، ألفيت مستر جيمس يقبل نحوى : ويقول فى حدة :

— كيف تقول إنى غير موجود وأنا فى انتظار هذه المكالمة ؟!

فقلت فى برود :

— لم تكن على مكتبك .

— ولكن شكرى أفندى يبحث عنى دائما إذا ما طلبنى أحد .

فأحسست كبريائى تدمى ، فقلت فى غضب :

— شكرى أفندى شىء ، وأنا شىء آخر .

وسكت مستر جيمس وهو مقهور ، وذهبت إلى مكتبى وصدرى مسرح لإحساسات متباينة ، وفيما أنا غارق فى أفكارى ، أقبل علىّ فراش يستدعينى لمقابلة كبير الكتاب ، فذهبت إليه وأنا حانق ، فما كنت أحب مقابلته ، ولكن ما إن وصلت إليه حتى قدم إلى كرسيا وأكرمنى ، وسألنى أن أترجم له بعض فقرات فنية عجز عن ترجمتها .

تناولت ورقة ، وترجمت ما طلب منى على عجل ، وتركت له المسودة متعمدا ، لأشعره أننى لست عاجزا مثله لأسود مرات ما أترجمه ، ولم أنتظر منه حتى يقرأ الترجمة ، وتحركت لأعود إلى مكتبى وسرت خطوات ، وسمعت صوته ينادينى ، فعدت إليه ، فسألنى عن معنى كلمة عربية سهلة ، فابتسمت فى إشفاق ، وعرفته معناها ، وعدت إلى مكتبى ، وقد تبخر غضبى ، وسرى فى صدرى إحساس سعيد ، شعرت أننى انتقمت لكبريائى

التى جرحها حضرة كبير الكتاب يوم جئت إلى مكتبه أول مرة .

وفى يوم أخذ شكرى أفندى يكتب على الآلة الكاتبة تقريرا كتبه مستر جيمس ، فتناولت نسخة من التقرير وقرأته ، فألفيت به عدة أخطاء ، كان مستر جيمس لا يحسن استعمال حروف الجر والأفعال ، فتناولت قلما ، وأخذت أصوب له الأخطاء ، فثار شكرى أفندى ، وأرغى وأزبد ، واتهمنى بالغرور ، فكيف يصحح مصرى أسلوب رجل إنجليزى يكتب بلغته ؟!

وراح يرصد قدوم مستر جيمس متلهفا ، فلما لمحه قادما إلى مكتبه هرع إليه ، وقدم إليه النسخة التى أجريت فيها قلمى ، فلما رأى جيمس ما فعلته ، احمر وجهه وضاقت عيناه ، وظهر عليه الغضب والحنق ، وغمغم بكلمات ، فأرهفت سمعى ، كانت سبابا ولا شك ، ولكنى لم ألتقط منها إلا هذه العبارة :

ـــ هذا عبث أطفال ، أصبح هذا المكتب لا يطاق .

وتناول التقرير ثائرا ، وألقى بالمسودة التى شرحتها بقلمى ، وخرج بالتقرير ليرفعه إلى رئيسه الإنجليزى .

وغاب مستر جيمس ، وراح شكرى أفندى يرنو إلىّ فى شماتة ، ولسان حاله يقهقه سخرية من ذلك المغرور الذى أورده غروره موارد الهلاك . كان يعجب فى نفسه كيف أن مستر جيمس أطاقنى فى هذا المكتب إلى هذا الوقت ، وكنت أنا نفسى أعجب من ذلك ، ولكنى لم أكن آبه أن أعمل فى ذلك المكتب أو فى سواه .

وعاد مستر جيمس ، وما أن رأيت وجهه حتى رأيت فيه ذلة الانكسار ؟ تقدم منى ، ووضع أمامى التقرير وهو يبتسم ابتسامة مريرة ، فجرى نظرى سريعا على التقرير ، فألفيت رئيسه قد صوب له بالمداد الأحمر جميع الأخطاء

التى أصلحتها وأثارت غضبه ، فرفعت نظرى إليه ، وأنا أحس إشفاقا ، وكبت مشاعرى ، وحاولت أن أبدو هادئا حتى لا أجرح شعوره ، ولكنه ابتسم ابتسامة عريضة ، فرحت أهون عليه الأمر ، وبدأت صداقتنا .

ودق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالصوت النسوى الرقيق يسأل عن جيمس ، فالتفت إليه وقلت له :

— يطلبونك .

— من ؟

— لا أدرى ، صوت ناعم .

فابتسم وقال :

— إنها جان .

ولما انتهت محادثته ، قال لى فى غبطة :

— ما ألطفها .

فتغابيت وقلت له :

— من ؟

— جان ، إنها تدعونى للخروج اليوم .

وراح يقص على قصة جان .

وفى ذات يوم أخذت أنا وجيمس ننسق طلبات المصلحة من الخامات والأجهزة ، فألفيته يوصى بشرائها من إنجلترا ، فقلت إننا نستطيع أن نشترى أغلب هذه الأصناف من السوق المحلية ، فنوفر جهودا ووقتا ، ولكنه راح يقنعنى أن من الأصلح أن نشترى كل شىء من إنجلترا ، ولم أقتنع ، وما كان اقتناعى ليقدم الموضوع أو يؤخره ، فقد كان كل شىء فى ذلك الوقت فى أيديهم .

وفى يوم لن أنساه ، أقبل عامل يعرض على آلة من الآلات التى نشتريها بكثرة من إنجلترا ، وقال لى إنه صنعها بيديه وجربها ، فكانت نتائجها تضاهى نتائج الآلات البريطانية ، فهزنى السرور ، ووعدته بأننى سأبذل كل جهدى لعرض آلته على الرؤساء ، ليكافئوه تشجيعا له ، وكنت آمل أن تكون المكافأة سخية ، ليكون ذلك حافزا لزملائه على أن يقتدوا به .

وأخذت العامل ، وأدخلته على رئيسنا ، وعرضنا عليه الجهاز ، فأظهر سروره ، وقال لى :

— اعرض الموضوع على مستر جيمس .

وذهبت إلى مستر جيمس ، وما شرحت له الموضوع حتى ظهر على وجهه ما يعتمل فى صدره من غيظ ، وقال لى فى حدة :

— سله ، هل فعل بعض أجزاء هذه الآلة فى المصلحة ؟ فسألته ، فقال لى إنه اضطر إلى استخدام حوض الزيت لتقوية المعدن لأنه لا يملك فى منزله حوضا .

فقال لى مستر جيمس :

— سله ، فى أى درجة من درجات الحرارة يتحول الحديد إلى صلب ؟

وراح مستر جيمس يسأل العامل أسئلة دقيقة حتى أحرجه ثم قال فى لهجته الغاضبة :

— هذا عبث ، إنه يضيع وقته فى صنع ما لا طائل تحته ، إنه لا ينتج للمصلحة شيئا ، سيكون أسوة سيئة لإخوانه ، أرى أن يخصم منه ثلاثة أيام .

فار دمى فى عروقى ، فذهبت إلى رئيسنا المصرى ، وعرضت عليه الأمر ، فقلت له إن مستر جيمس يسوءه أن ينجح عامل مصرى ، وإننى أرى عرض الأمر على الرؤساء ؟ ولكن رئيسى أطرق ولم يجب ، ففهمت أنه لا يريد أن

يعادى مستر جيمس .

وخرج العامل يحمل الجهاز الذى صنعه وهو يحمد الله على أنه قد نجا من خصم الأيام الثلاثة ، فقد عارضت مستر جيمس فى ذلك الخصم ، وجلست مهموما ، وإذا بمستر جيمس يدعونى إلى مكتبه ، ويقول لى فى رقة :

— حرام أن تشجع مثل ذلك العامل .

فنظرت إليه فى دهش ، وقلت له ؟

— لماذا ؟

— ستضره ، ستملؤه غرورا ، وتقضى عليه ، إنه لا يصلح لشىء .

فقلت فى غضب :

— إنك استعمارى قح يا جيمس .

— أبدا .

— لا تعمل إلا لمصلحة بلادك ، وإن ضحيت بمصالح بلادنا .

— هذا قول هراء .

— لماذا تتنصل من ذلك ؟ كلنا يحب وطنه .

فقال فى هدوء عجيب :

— الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

— لا يا جيمس ، حب الوطن غريزة ركبت فينا .

— غريزة بدائية .

— الطير يحن إلى عشه ، والمرء يهفو إلى أرض منبته .

— ذلك من ضيق الأفق . لم لا نجعل الدنيا كلها وطننا ؟! إن مصر وطنى ما دمت أجد فيها السعادة والمناعة .

— هذا كلام .

— ماذا يهمنى من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضيرنى لو أن أستراليا انفصلت عنا ، ولو أن الهند استقلت و لم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— هذه سفسطة يا جيمس .

— إن ما أقوله هو ما أعتقده .

— مثلك يا جيمس مثل الأب الذى لا يحس أية عاطفة نحو أبنائه ما داموا معافين ، فإذا ما تعرضوا لخطر ، شعر بالقلق والفزع والهول .

— دعك من فلسفتك ، قلت لك إنه لا يهمنى أمر إنجلترا ما دمت سعيدا .

— وما دامت جان بجانبك .

فابتسم وقال :

— وما دامت جان بجانبى .

— هذه أنانية يا جيمس ، لو صدقت فى قولك .

— فسرها كما يحلو لك .

ومرت أيام وأعلنت الحرب ، وراحت ألمانيا تلتهم أوربة قطعة قطعة ، فما تبدل جيمس ، وما تحدث عن الحرب أبدا ، كأنما كان الأمر لا يعنيه ، وابتلعت ألمانيا أوربة جميعها ، وتأهبت لتأكل بريطانيا ، وبدأت المعركة الرهيبة ، وباتت إنجلترا فى خطر داهم .

وفى ذات يوم جاء جيمس عابس الوجه ، وفى عينيه عزم ، فلما رأيته أنكرته ، وقلت له :

— ما بك ؟

— سأسافر .

— إلى أين ؟

— إلى إنجلترا .

— وما تفعل ؟

— الوطن ينادينا .

— الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

— بالله لا تسخر ، إنى حزين .

واسترسلت فى حديثى :

— ما يهمك من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضيرك لو أن أستراليا قد انفصلت عنكم ، أو أن الهند استقلت و لم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— كفى أرجوك .

— ومتى تسافر ؟

— قريبا .

— وجان ؟

— إنها تشتغل بالتمريض ، وتقوم بواجبها هنا .

وسافر جيمس وما ودع أحدا ، ومرت الشهور تتلوها الشهور ، وغمرتنا الحياة ، فنسينا جيمس ، وفى يوم من الأيام ورحى الحرب الرهيبة دائرة ، أقبل إلى مكتبنا إنجليزى من أصدقاء جيمس ، فجعلت أحادثه ، ثم سألته فجأة:

— أما تبلغك أنباء جيمس ؟

فقال فى صوت خافت :

— مات .

— كيف ؟

— قتل فى إغارة من إغارات الفدائيين على فرنسا

فأطرقت وأنا أفكر فى ذلك الذى أراد أن يوهمنى يوما أن الوطن لفظ أجوف ، وخدعة من خدع الساسة .

غضبة الحريم

فتح الباب الضخم ، ورفعت الستر الفاخرة ، ولاح السلطان فى ثيابه المزركشة بالقصب ، المزدانة باللؤلؤ والزمرد والياقوت ، فانحنى وزيره فى تجلة واحترام ، حتى إذا ما اتخذ السلطان مجلسه ، رفع الوزير رأسه ، وأخذ يعبث بلحيته ، وهم بأن يعرض على السلطان شئون إمبراطوريته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان شرد برهة ، ثم ضحك ونهض من مجلسه ، وانطلق إلى الباب الضخم ، فاجتازه إلى الدهليز الطويل ، حتى غاب فى جوف القصر !

امتعض الوزير ، وضرب الأرض برجله فى حنق ، ثم راح يذرع الغرفة الرائعة التى فرشت بطنافس فاخرة ، ونثرت فيها النمارق الجميلة فى ضيق .. فقد تركه السلطان لينطلق إلى الحريم يقص عليهن قصة أسعفته بها ذاكرته الآن بعد أن خانته بالأمس وهو يحاول جاهدا أن يذكرها !

كان السلطان فى خريف عمره ، وقد اشتعلت فى صدره تلك الجذوة التى تتوهج قبل أن تخمد وتصبح رمادا ، فكان يشعر بالنشوة التى يحسها الثمل قبل أن يفقد وعيه .. كان يقضى أوقاته بين النساء والجوارى ، يقطف الورود من الخدود الندية ، ويلثم الشفاه الحلوة المزمومة ، ويمتع عينيه بروائع الحسن والجمال .. وكان احتفاله بنسائه وجواريه ، وإقباله عليهن يضايق الوزير ويحنقه ، فما كان السلطان يقابله إلا للحظة من اللحظات . وحتى فى تلك

اللحظة لم يكن ينصت إليه ، بل كان يشرد بذهنه ، فيضحك للمحة تذكرها ، على حين أن الوزير يعرض عليه أمرا يوجب العبس والتقطيب !

وأخذ الوزير يعبث بلحيته وقد أغمض عينا . وأسبل أخرى فقد كان ينمق مقالا يرجو أن يمس أوتار قلب السلطان ، فيبعده عن حريمه ، ليتفرغ لأمر رعاياه .. وفجأة عاد السلطان متطلق الوجه ، وجلس وهو يضحك ، فراح الوزير يعرض عليه أمور الإمبراطورية الواسعة ، فكان ينصت إليه حينا ، ويتشاغل عنه أحيانا . فتضايق الوزير وجمع أطراف شجاعته ثم قال :

ــ بعض وقتك يا مولاى ؟

ــ ماذا ؟

ــ لو منحتنا بعض وقتك يا مولاى لازددنا رضا على رضا ..

فحدجه السلطان بنظرة فيها بعض الغضب ، فقال الوزير :

ــ نظرة عطف من عينيك الغاليتين تملأ بالطمأنينة القلوب .

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ هل يسمح مولاى أن نجوس خلال الأسواق ، نتفقد أحوال الناس ، ونستمع إليهم ، ونحقق لهم أمانيهم ؟

خفض السلطان بصره ، وقطب جبينه لحظة ، فقد كان يفكر .. ثم رفع رأسه ، وبان الرضا فى صفحة وجهه ، والتفت إلى الوزير وقال :

ــ لنخرج إلى الناس .

وقام من مجلسه ، وهم بالانطلاق صوب الباب الكبير وقال :

ــ سأعود إليك عما قليل .

وابتدأ يتحرك صوب الحريم ، ورأى الوزير أنه لو دخل عليهن لنسى وعده ، فقال فى توسل :

ـــ بالله يا مولاى دع النساء الآن !

فنظر إليه السلطان نظرة مشوبة بغضب ، ما لبث أن زال وحلت محله ابتسامة لطيفة ، فقد كان طيب القلب ، يحب وزيره ويثق به .

* * *

خرجا يجوسان خلال الأسواق متنكرين ، وراح الوزير يسقص على السلطان قصصا عن النساء تحط قدرهن ، وتحقر شأنهن ، فقد كان يعمل جاهدا على أن يبغض السلطان فى نسائه وجواريه .. وكان الوزير محدثا لبقا ، وناقدا ساخرا : فنفذ إلى قلب السلطان حديثه ، وما قفلا عائدين إلى القصر حتى وطد السلطان العزم على أن يهجر الحريم ..

وتقضت ليلة ويوم وما طاف السلطان بنسائه كما اعتاد أن يطوف ، فبدا الدهش فى الوجوه ، فما كان يطيق أن تنقضى ساعة وهو عن الحريم بعيد .. ومر اليوم الثانى ، وانقضت الليلة الثانية و لم يزر السلطان نساءه وجواريه ، فنزل بصدورهن هم ثقيل ، وتساءلن فى عجب عما قلب السلطان عليهن !

وانقضى اليوم الثالث فى ترقب ، ومضى من الليلة الثالثة بعضها دون أن يفكر السلطان فى الطواف بهن ، فلم يطقن صبرا . واتجهن إلى سلمى ـــ وكانت أقربهن إلى قلبه ـــ وقلن لها :

ـــ اذهبى يا سلمى إليه ، لترى ماذا جرى !

نهضت سلمى تتأهب للقياه ، فارتدت غلالة رقيقة تفضح تكوينها البديع ، ورجلت شعرها السبط ، وتضمخت بالعطور ، وأسرعت أيدى النسوة إليها تسوى من شعرها المتهدل ، وتعمل على إبراز محاسنها ومفاتنها ، حتى إذا ما انتهت من زينتها انطلقت إليه فى هيئة تفتن العابد فى محرابه .

دخلت عليه فى غرفته ، فألفته ساهما يفكر ، وكانت الشموع تبعث



ضوءها الهادئ ، فتضفى على المكان شاعرية ، وتهيئ مسارح رحبة للخيال ، وتقدمت نحوه فى خفة الطيف ، وارتمت إلى جواره ، ورنت إليه بعينيها النجلاوين ، وغمغمت فى دلال :

— مساء الخير يا مولاى ..

فظل السلطان فى تفكيره و لم يلتفت إليها ، فمدت يدها وجعلت تمررها على لحيته فى حنان . فهب من الفراش نافرا ، وانطلق إلى الشباك ، وراح ينظر منه ، فانسابت خلفه وهمست :

— انقضت ثلاثة أيام دون أن نجتلى طلعتك ، فلكأنها ثلاثة دهور . ما الذى غير قلبك الرحيم علينا ؟

— لا شىء ..

— ما كان من طبعك أن تهجرنا الأيام الطوال . بغض العيش وبرد الفراش !

والتصقت به ، فملأت رائحتها خياشيمه ، فتحركت عواطفه التى كان يقاومها ، وقد رنا إليها ، فبهره حسنها ، وكادت مقاومته تنهار ، ولكنه تذكر أقوال الوزير فامتعض ، وخمدت الأحاسيس التى هبت تتصارع فى صدره .. ولمحت سلمى دلائل الامتعاض فى وجهه فقالت :

— تبدلت يا مولاى حتى كدت أنكرك .

فغمغم السلطان :

— الوزير يا سلمى ..

— وماله الوزير ؟

— نهانى عنكن ، وبغضنى فى النساء .

فأطرقت سلمى قليلا ، ثم انسحبت تجر أذيال إخفاقها وبدأت أبخرة الحقد

على الوزير تنتشر فى صدرها ، وما بلغت الحريم حتى راحت تقص على النساء النبأ فى غيظ ، فامتلأت صدورهن بالغضب ، وأطرقن يفكرن فى القصاص من الوزير الذى سلبهن السلطان ..

ومرت أيام وهن ينسجن خيوط الانتقام ، ولما اطمأنت قلوبهن إلى ما دبرن انطلقت سلمى إلى السلطان .. كان صافى النفس ، فأقبل عليها يحادثها .. وتشعب الحديث ، فأخذ السلطان يقص عليها أنباء ما يفكر فيه لرفاهية شعبه ، ولما جاء ذكر الوزير أثنى عليه ، فانتهزت سلمى هذه الفرصة وقالت :

— وزيرك يا مولاى يضحى براحته فى سبيلك وسبيل شعبك ، إنه يستحق الخير كله ، لم لا تمنحه منحة ، تقديرا له وتشجيعا ؟! .

— وماذا أمنحه يا سلمى وله الحظوة والمال ؟

— أعطه جارية حسناء .. هب له بثينة ، فما عنده مثلها ، ولا رأى قط أجمل منها !

فطأطأ السلطان رأسه قليلا ، ثم قال :

— هدية طيبة ..

* * *

ووهب السلطان بثينة لوزيره ، فلما دخل الوزير عليها فغر فاه ! بشرة ناصعة البياض ، وعينان آسرتان ، وحسن باهر ، وجمال قاهر ، لا يقوى على الصمود أمامه إنسان .. فتقدم وقلبه فى صدره كجناح خافق ، ومد يده إليها ، ولكنها فرت منه فى دلال ، ونفرت فى خفة الغزال ، فابتسم فى اطمئنان ، فلئن نفرت اليوم . فستقبل عليه غدا عارضة الوداد ..

ودخل عليها فى اليوم الثانى ، وأخذ يتودد إليها ، فكانت تصده فى جفاء ،

فتعلق بها ، وكان يزداد شغفا كلما ازدادت صدا .

ومرت الأيام وهي على الصد قائمة ، فتدله بها حبا ، ولم يطق الصبر على ذلك الصد الثقيل ، فأخذ يتوسل إليها أن ترحمه من عذاب الفؤاد ..

وتظاهرت بالعطف ، ورنت إليه بطرف عينها ، فأحس كأن قلبه يذوب وجدا ، فقال :

ـــ بثينة ، كفى صدا !

فقالت :

ـــ أود أن أصدقك ، ولكنى أخشى !

ـــ تخشين ماذا ؟

ـــ أن تلعب بى ..

ـــ أنا عبدك طوع بنانك ..

ـــ وما برهان حبك ؟

ـــ اطلبى روحى أجد لك بها ..

ـــ لا .. سأطلب أمرا هينا .

ـــ ماذا ؟

ـــ غدا إذا صلى الناس العشاء ائتنى ..

ثم أخذت تهمس فى أذنه ، فقطب وجهه قليلا ، ولاحظت تقطيبه ، فقالت :

ـــ ولو فعلت هذا أيقنت من حبك لى ..

فقال فى صوت خفيض :

ـــ إلى الغد بعد العشاء ..

انتهى الناس من صلاة العشاء ، فآب كل إلى داره ، وذهب الوزير إلى

بثينة ، يمنى النفس بالوصال . وانطلقت سلمى إلى السلطان والتمست منه أن ينطلق معها إلى مخدع الوزير لأمر خطير . ولكن السلطان أبى وأعرض عن توسلاتها ، فهمست فى أذنه همسة هب على أثرها ، وراح يجد فى السير ، وهى تهرول خلفه ، حتى وصلا إلى حجرة فى قصر الوزير ، وإذا السلطان يغرق فى الضحك .. إذ رأى بثينة قد أسرجته وألجمته ، وركبت على ظهره !

وكبت عاصفة الضحك التى كانت تغالبه ، وقال لوزيره فى عتاب :

ـــ ألم تكن تنهانى عن حب النساء ؟!

فقال الوزير فى ذلة :

ـــ أعز الله السلطان ، كنت أخاف عليك أن يقع لك معهن مثل هذه الحال .

ترويض امرأة

راح حسن يصعد فى الدرج متصبب العرق منهوك القوى يشعر بالجوع ينهش أمعاءه ؛ فهو عائد إلى بيته محطما ، بعد عمل مضن متواصل فى الديوان ؛ إنه من أولئك البائسين الذين تدور على رأسهم مصلحة بأسرها ؛ فهو مسئول عن إنجاز أخطر الأعمال ، وعلى الرؤساء العديدين النازلين بالغرف الفاخرة الممتدة على جانبى الردهة الرئيسية ، أن يشرفوا أعماله بتوقيعاتهم الكريمة ؛ وإنه لعمل جليل يستحق الحمد والثناء .

ووقف أمام الباب يطرقه فى تراخ ، وهو يلتقط أنفاسه المبهورة ، وأقبلت الخادم الصغيرة ، وفتحت الباب ، فاندفع إلى غرفة النوم ؛ وراح يخلع ملابسه وهو ينظر إلى زوجه الممدودة فى السرير فى استعطاف ، كان الجوع يعضه بأنيابه ، والتعب يدب فى أوصاله ، وكان يطمع فى أن تنهض وتجهز له الغداء ، ولكنها ظلت فى رقدتها لا تلتفت إليه . كان يحلو لها أن تتمدد لتستريح قبل أوبته بلحظات . ودنا منها وقال :

ــ كريمة . هيا لنتغدى .

فتمطت فى تراخ ؛ ولم تنبس بكلمة ، فقال يستحثها :

ــ هيا .

فقالت فى تكاسل :

ــ أحس تعبا يفك مفاصلى .

ـــ قومى .

ـــ اذهب أنت وجهز لنا الغداء .

لم يكن هذا جديدا عليه ؛ اعتاد أن يسمعه كل يوم ، ولكنه أحس غضبا يتحرك فى صدره ، وغيظا يلفه ، وفكر فى أن ينفس عن غضبه ، وأن ينفجر فيها صائحا بأنه ما عاد يحتمل ذلك الهوان ، ولكنه كتم ما به ، وذهب إلى المطبخ يجهز الغداء .

كان يوهم نفسه أن من الحكمة ألا يثور ، ففى الثورة تعكير لصفو حياته ، وقضاء على هنائه ؛ فكان يتغاضى عن إساءات زوجه ويزدرد أخطائها فى يسر ،فإنه يستريح إلى خنوعه ، ويعد نفسه عاقلا رزينا لا يقيم وزنا لتوافه الأمور .

إنه فى واقع الأمر طيب القلب ، ضعيف الشخصية ؛ وزاد فى تخلخل شخصيته أنه اعتاد أنَ يتلقى أوامر رؤسائه العديدين ، وأن ينفذها دون اعتراض ، فاطمأن إلى الاستسلام والخضوع .

أخذ يغدو ويروح بين المطبخ وحجرة المائدة حتى إذا انتهى من غرف الصحافة ، وأعد كل شيء ، ذهب إلى غرفة النوم يدعو كريمة ، فألفاها لا تزال راقدة فى فراشها ، فقال لها :

ـــ انهضى فقد أعد الغداء .

فقالت له فى تثاؤب :

ـــ تغد أنت ، إنى أشعر برغبة فى النوم .

فتحرك غيظه ؛ ولكنه لم يثر ، بل قال فى توسل :

ـــ قومى ، لقد برد الطعام .

ـــ أوه !

وقامت فى تكاسل ، وغادرت الفراش ، ولكنها لم تذهب إلى غرفة

المائدة ، بل اتجهت إلى المرآة الطويلة القريبة من سريرها ، وراحت تديم النظر إلى قوامها اللدن الممشوق ، وتقرب وجهها من صقال المرآة ، وتمرر أصابعها على أهدابها الطويلة ؛ ثم تنظر إلى وجهها الفتان فى راحة وإعجاب .

وبقى حسن يتميز غيظا ، وكاد يزفر استياء ولكنه تمالك نفسه ، واستعان بالصبر ، حتى لا يأتى بما يجرح شعور كريمة ، فتثور لكرامتها المهدرة ، وتذرف الدمع السخين ، وهو يهاب دموعها ويخشاها ، فهى تمزق قلبه ، وتقبض صدره ، وتصده عن الطعام وإن كان الجوع ينهش جوفه ، ويقطع أحشاءه .

وأخيرا ذهبا إلى غرفة المائدة ، وقعدا يتناولان طعامهما ؛ وراح حسن ينظر إلى وجهها الحلو القسمات ، فانقشع غضبه ، وأحس راحة تكتنفه ، ونشوة تدغدغ حواسه ، وشعر برغبة فى أن يتودد إليها ليترضاها ، فلعله أساء إليها وهو لا يدرى ! فقال لها فى انشراح :

ـــ سنذهب الليلة إلى السينما .

فنظرت إليه بعينيها الجذابتين ، وانبسطت أساريرها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة عبثت بأوتار قلبه ، فانداحت فى صدره موجة من الغبطة والسرور .

وانتهى الغداء ، فحمل الصحاف إلى المطبخ راضيا ، ثم ذهب إلى فراشه وتمدد فيه ، فكر فى أنهما سيخرجان معا فانشرح ، سينطلقان الليلة فى شوارع القاهرة يتناجيان كعشيقين ، إنه يحس سعادة كلما سار معها فى طريق ، أو جلس بجوارها فى سينما ، أو حادثها همسا فى سيارة ، كان وجوده معها بعيدا عن البيت يحرك عواطفه ويذكى نار حبه .

واسترسل يفكر فيما يفعلانه بعد الخروج من السينما ، أيعودان إلى البيت ،

أم يذهبان إلى الجزيرة ، لينعما بجمال الطبيعة ، وروعة الليل الفاتن الجذاب ، فاستقر رأيه على أن ينطلقا إلى شاطئ النيل ، يمتعان نفسيهما بالسحر الحلال ، واستمر فى تفكيره ينعم بأحلام يقظته .

ووافى ميعاد الخروج إلى السينما ، فارتدى ثيابه منشرح الصدر ، متفتح النفس ، وغادر غرفته ، فألفى غرفة الاستقبال مفتوحة ، فأطل برأسه ، فاربد وجهه ، وطارت سعادته ، وانقبض . إن كريمة د ست ـــ كعادتها ـــ أختها ، وابنتى عمها ليشاركاهما فى سهرتهما ، وثارت ثائرته ، كان يحلم بأنهما سيخرجان وحدهما يجوسان خلال القاهرة ، كحبيبين فرا من أعين الرقباء ، فإذا بها تدعو أقاربها ، وتقوض أحلامه .

وضاق صدره ، وزاد غيظه ، وفكر فى أن يدعو زوجه ، ويعلنها بغضبه ، وبأنه لم يعد يحتمل هذا التنغيص ، وأن يثور ثورة هائلة ينفس بها عن نفسه ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يثور ، حتى لا يعكر صفو حياته ، أو يقضى على هنائه .

وفى ليلة من الليالى عاد حسن إلى داره بعد ميعاده الذى اعتاد أن يعود فيه ، فقد قابل بعض زملائه ، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، فسرقه الوقت دون أن يحس ، فلما تيقن من أنه تأخر خفق قلبه ، وسرى فى صدره قلق ورهبة . كان يدرى ما ينتظره عند أوبته .

ووقف أمام بابه يدقه فى رفق ، وقلبه فى جوفه يدوى دويا ، ومر الوقت ولم يفتح له أحد ، فطرق الباب فى شدة ، ولكن ما من مجيب ، واستمر فى دقه والوقت يمر ، وهو يتململ فى وقفته ، يلفه خوف وحنق . وأخيرا سمع صوت كريمة الغاضب ينبعث من وراء الباب يستفسر :

ـــ من ؟

فقال فى حشرجة :

— أنا ، افتحى .

فصاحت فى غضب :

— لن أفتح ، اذهب وأمض بقية الليل حيث كنت .

فقال فى همس وهو يتلفت ، خشية أن يراه جيرانه فى موقفه الذليل :

— كريمة ، افتحى .

— لا . اذهب .

وهز الباب فى غضب ، وهتف فى صوت خافض ، كله توسل ورجاء :

— كريمة .. كريمة ..

ولكنها ذهبت ولم تجبه ، فتحرك غيظه ، وطغى غضبه ، وفكر فى أن يحطم الباب ، ولكنه ما كان بقادر على أن ينفذ خواطر الثورة التى كانت تراوده ، فتحلم على كره منه ، ولما كان التعب قد نال منه ، فإنه جلس على الدرج القريب من بابه ، وأخذ ينتظر أن يحن عليه قلب كريمة الغضبان .

وانقضى بعض الوقت ، وسمع وقع أقدام ، فنهض ينظر ، فألفى بعض جيرانه صاعدين فارتبك ، وخطر له أن يفر إلى السطح ، ولكن أغضبه ذلك الخاطر ، وراح يعاود طرق الباب فى شدة وحنق .

وفتحت كريمة الباب ، ثم جفلت كغزال شارد ، وانطلقت كعاصفة ثائرة إلى غرفة النوم ، فذهب خلفها وهو يضطرب ، فألفاها قد ارتمت فى السرير تبكى وتنتحب ، فراح يخلع ملابسه منقبض القلب ، وأحس نار الغيظ تندلع فى جوفه ، وتمنى أن ينفجر ثائرا ، وأن يصيح بها بأن صدره قد ضاق عن احتمال ذلك العنت والعذاب ، ولكن طبعه غلبه . فلاذ بالصمت ، واندس فى فراشه دون أن ينبس بكلمة ، حتى لا يعكر صفو هنائه ، أو يقوض

صروح سعادته !

* * *

وفى يوم من الأيام ، عاد إلى داره بعد عمله المضنى فى الديوان ، ودلف إلى غرفة النوم ، فوجد زوجه فى فراشها ، ولكن ما أن رأته حتى هبت من رقدتها ، واتجهت إليه ، منبسطة الأسارير ، فأوجس خيفة ، كان يخشى ما وراء ذلك النشاط الطارئ الغريب .

ودنت منه ، وقالت له قبل أن يخلع ملابسه :

— إنى فى حاجة إلى نقود .

فقال فى صوت مبحوح :

— لماذا ؟

— بعثت الخياطة إلىّ لأتسلم الثوب الجديد .

فقال فى صوت خافت :

— انتظرى حتى أول الشهر .

فاربد وجهها ، ولاح فيه الغضب ، وقالت فى ثورة :

— ماذا تقول الخياطة عنى ؟!

وتركت الحجرة حانقة ، ودلفت إلى حجرة أخرى ، وأغلقت خلفها الباب فى شدة ، فانقبض ، وامتلأ حنقا وغضبا ، وخطر له أن يثور ، وأن يصرخ فيها بأنه لم يعد يحتمل غرورها ، ولكنه لم يثر حتى لا يعكر صفو حياته ، فمد يده فى جيبه ، وأخرج ما فيه ، ثم ذهب إليها يقدم لها ما طلبته فى ذل وخضوع .

واستمرت كريمة تجرعه كأسها المرير ، وهو يزدردها صابرا . وضاق صدره يوما بمشاعره التى يكتمها ، فشعر برغبة فى أن ينفس عن نفسه ، فأقبل

على زميله فى المكتب يقص عليه متاعبه ، فقال له زميله :

ـــ الذنب ذنبك .

فقال حسن فى إنكار :

ـــ ذنبى أنا ؟

ـــ أجل ، لم تكن رجلا .

فاحمر وجه حسن ، وأحس كبرياءه تجرح ، فقال فى تلعثم !

ـــ لماذا ؟

ـــ نزلت لها عن حقوقك ، وأبديت الرضا والخضوع .

ـــ من الحكمة أن نحنى رءوسنا للزوابع حتى تمر بسلام ، لنحافظ على صفو حياتنا .

ـــ بل لنبقى على التنغيص الدائم المستمر ، لو أنك ثرت فى وجهها أول ما حاولت أن تسلبك حقوقك ، لما استرسلت فى طغيانها ، المرأة كالفرس ، إذا كبحت جماحها انقادت لك ، وإذا أطلقت لها العنان جمحت .

فأطرق حسن قليلا ثم قال :

ـــ وماذا أفعل الآن ؟

ـــ روضها .

فقال حسن فى فزع :

ـــ أتشير علىّ بضربها ؟!

ولاحظ زميله فزعه ، فابتسم وقال :

ـــ لم أقل لك اضربها ، بل روضها .

ـــ وكيف أروضها ؟

ـــ كما تروض القردة .

فبان الدهش فى وجه حسن وغمغم :

ــ القردة !

ــ أجل . القردة ، ألم تر مروض القردة وهو يروضها ؟

ــ أبدا .

ــ فلا غرابة إذن فى أنك لا تعرف كيف تروض امرأة .

ــ وهل رأيته أنت ؟

ــ أجل .

ــ أين ؟

ــ فى يوم من الأيام دعانى صديق لزيارة مروض قردة ، فأخذنا نخترق شوارع القاهرة العتيقة ، حتى إذا خلفنا البيوت المتهدمة القابعة عند أقدام تلال المقطم ، رحنا نرقى مرتفعا ، فلما بلغنا قمته ، رأينا على بعد خطوات حجرة مشيدة بالصفيح الصدئ القديم ، وتقدمنا ودققنا الصفيح ، فخرج إلينا رجل لوحت وجهه حرارة الشمس ، واسع العينين غزير الشارب ، فى وجهه قسوة وصرامة ، يرتدى جلبابا أزرق ، وما إن رآنا حتى حيانا مرحبا ، ثم قدم إلينا صفيحتين ، وقال فى بساطة : « تفضلا » فجلسنا .

وذهب الرجل ، وغاب قليلا ، ثم عاد وهو يسحب قرداً وكلبا ، وتحت إبطه خيزرانة طويلة ، وشد القرد إلى وتد فى الأرض شدا وثيقا ، وقعد القرفصاء والكلب أمامه ، وراح يقوم ببعض الحركات ، ويطلب من الكلب أن يفعل مثله ، ولكن الكلب ظل ثابتا لا يحرك ساكنا ، فسحب الخيزرانة وضربه بها ، فعوى . ورأى القرد ما حل بالكلب فانكمش من الرعب ، وحاول أن يفر من الخوف .

استمر الرجل يقوم بحركات مختلفة ، ويطلب من الكلب أن يحاكيه .

ولكنه عجز عن ذلك ، فضربه ضربا قاسيا ، فغاص قلب القرد ، وراح يقفز فى فزع ، فما يقع أمام عينيه ينزل به الرعب الشديد .

ثم استل الرجل سكينا ، وأضجع الكلب على مرأى من القرد وذبحه ، فراح القرد يقفز مرعوبا ، ويجذب نفسه ليفر من ذلك الهول ، ولكن أنى له ذلك ، كان فى عنقه طوق من حديد ، تتدلى منه سلسلة شدت إلى الوتد الثابت المكين .

وألقى الرجل بالكلب بعيدا ، وعاد إلى القرد ، وقعد أمامه ، فابتعد القرد مفزوعا ، فجذبه إليه ، وجعل يقوم ببعض الحركات ، ويطلب منه أن يفعل مثله ، فكان يحاكيه ، وأخطأ مرة ، فضربه بالخيزرانة ففزع ، وحرص على أن يحاكيه فى دقة غريبة ، إنه أيقن أن بعد الضرب الذبح وما كان يحب أن يهدر دمه رخيصا . وصمت الرجل ، وغمغم حسن :

— بديع !

فقال زميله يحرضه :

— روضها كما روض الرجل قرده .

فقال حسن فى عزم :

— سأفعل .

— أظهر لها أنك قادر على البطش بها .

— ما أيسر القسوة .

— أوح إليها أنك تستطيع أن تحيل حياتها جحيما .

— سأعكر حياتها يوما ، لتصفو حياتنا إلى الأبد .

وعاد حسن إلى الدار ، وراح يصعد الدرج ، وقد بيت فى نفسه أمرا ، عزم على أن يثور ، وعلى أن يحطم كل شىء فى سبيل استرداد هيبته ، ودق

الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، فدخل يضرب الأرض بقدميه فى قوة ، وانطلق إلى غرفة النوم ، فألفى زوجته ممددة كعادتها ، فلم يلتمس منها أن تعد له الغداء كما اعتاد أن يفعل ، بل خلع ملابسه ، ولبس منامته ، وتمدد فى سريره ، و لم ينبس بكلمة .

وانتظرت كريمة أن يتكلم ، ولكنه لم يفعل ، فقالت :

— هلا تتغدى ؟

فقال فى صوت آمر كلفه جهدا قاسيا :

— أعدى الغداء .

و كاد يضعف ، ولكن كم كان عجبه لما رآها تنهض ، وشد ذلك أزره ، فعزم على أن يسير إلى نهاية الشوط ، وليكن ما يكون .

وجلسا يتناولان طعامهما ، وما ازدرد لقيمات حتى طلب من الخادم كوب ماء ، فجاءت الصغيرة تقدم له الكوب ، فدفع يدها عامدا ، فسقطت عليه بضع قطرات ، فهاج وماج ، وصرخ فى الطفلة ، فتقهقرت مرعوبة ، فتقدم نحوها وضربها بظهر يده ، أرادها أن تكون الكلب الذى يتحمل الأذى فى سبيل ترويض القرد ، ولكن الضربة أصابت أنفها ، فسال الدم منها ، وما إن رأى الدم حتى تخلخلت مفاصله ، وأحس رأسه يدور ، أراد أن يكون مروضا ، ولكن طبعه غلبه ، إنه يحس الأرض تميد تحت قدميه . وتحرك ليعود إلى مقعده ، ولكنه لم يستطع أن يملك نفسه ، فتهالك وسقط فى حجر زوجته مغشيا عليه .

كازانوفا جديد

١

مشط شعره الذهبى بأصابعه ، ورفع وجهه الأبيض ، فلمعت عيناه العسليتان ، ودعك أنفه المحمر دائما بيده ، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة ، ودفع صديقه بمرفقه فى خفة ، وقال له فى همس :

ــ أرأيت ؟

ــ ماذا ؟

ــ إنها تغمز لى .

فرفع الصديق وجهه الأسمر إلى حيث كان كال ينظر ، فلمح فتاة فى شرفة مرتفعة، ولكنها كانت تطل على الناحية الأخرى ، فقال كال وهو يضحك :

ــ أشاحت بوجهها لما مددت بصرك إليها .

وانطلقا يجوسان خلال طرقات الحى ، وراح كال يلقى منولوج « سهل وجران ، من رواية النسر الصغير » فى نبرات ممتلئة ، وكان يضغط على الألفاظ حينا ويلين أحيانا ، فيتقلص وجهه وينبسط ، ويرتفع صوته وينخفض ، وتتسع عين ، وتضيق عين ، ويلوح بيده فى الهواء مندمجا فى

دوره ، ناسيا أنه فى الطريق .

كانا طالبين فى السنة النهائية بالمدارس الثانوية ، وكان كمال رئيس فرقة التمثيل بالمدرسة ، وكان حمدى رفيقه الذى لا يفارقه يصغى إلى تمثيلياته فى إعجاب ، ويستمع إلى مغامراته فى لذة يشوبها طيف من الغيرة أحيانا ، وما أن أنتهى كمال من منولوجه حتى التفت إلى حمدى وقال وقد انبسطت أساريره :

— كانت البارحة ليلة من ليالى العمر لا تنسى .

— وماذا حدث البارحة ؟

— أما قصصت عليك ما جرى بالأمس ؟!

— لا ، وماذا جرى ؟

— نهلت من النبع الصافى ، وسبحت فى بحيرات السعادة ، وحلقت فى سماوات الحب ، وطرت على جناح الغرام .

— هلا هبطت إلى الأرض وقصصت على ماحدث ؟

— عدت إلى البيت بعد أن تركتك ، وأخذت أدق جرس الشقة دقا متواصلا ، فلم يفتح لى أحد .

طرقت الباب بيدى فى عنف ، ففتح باب الشقة المواجه لشقتنا ، وخرجت فتحية ، كانت الرقة والظرف ، فلو أن الرقة والظرف تجسما لما كانا غير فتحية ، انسابت نحوى فى خفة الطيف ، وهمست فى صوت شحن أنوثة وسحرا :

— خرجوا وتركوا لك المفتاح .

تناولت المفتاح وأنا أرنو إليها فى إعجاب ، رأيتها كثيرا ولكنى لم أرها قط فى روعة الأمس ، كان شعرها الأسود محلولا يتهدل فوق كتفيها ، وبدا وجهها كالبدر ، وراحت عيناها تشعان بريقا يخطف القلب ، فاضطربت أنا

الذى لم يعد يضطرب فى حضرة النساء ، من كثرة ما رأيت من نساء ، ولاح على الارتباك ، ولكنى جمعت شجاعتى سريعا ، وابتسمت لها وحنيت رأسى ، وقلت :

— متشكر .

وحاولت أن أقول أكثر من ذلك ، فلم يسعفنى الكلام ، فدخلت الشقة وأنا أشعر بضيق ، وظلت صورة فتحية بشعرها المسترسل المحلول ، وثوبها المنزلى الذى أبرز مفاتن الجسم أمام عينى لا تريم . دخلت حجرتى وفتحت كتابا ، وحاولت أن أقرأ ، لأشغل ذهنى بشىء غيرها ، ولكن كانت صورتها فى كل صفحة ، واسمها فى كل سطر ، فلم أطق المكث ، فخرجت إلى الشرفة ألتقط الهواء ، لعل هبوب النسيم يطفئ تلك النار المندلعة فى الضلوع ، والتفت فلمحتها فى الشرفة القريبة من شرفتى ، فاضطرمت النار المتأججة فى جوفى ، وقفز قلبى فى صدرى ، وظل يطفو ويغوص ، وانساب دمى حارا فى عروقى ، كأنما يتدفق من أتون ، وما كان أمامى إلا أن أفكر فى طريقة أصل بها إليها ، فأخذ فكرى يعمل فى نشاط عجيب ، وما هى إلا لحظات حتى قفزت إلى رأسى فكرة استرحت لها ، فرحت أنفذها من فورى . لطالما قلت لك يا حمدى أن المسألة لا تحتاج إلا إلى شىء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، قطعت زر البيجاما ، ثم ذهبت أطرق بابها ففتحت ، فقلت لها فى صوت هادئ :

— إبرة من فضلك .

فظهر فى وجهها التساؤل ، فقلت وأنا أرفع الزر بين أصابعى :

— قطع وبحثت عن الإبرة ، ولكنى لم أهتد إلى مكانها .

وغابت قليلا ، وانتشرت فى صدرى أحاسيس متباينة ، أحاسيس النشوة

وأحاسيس الرهبة من أن يخفق تدبيرها ، وعادت وفى يدها إبرة ، ولم تدفعها إلى بل قالت :

— هات الزر أثبته لك .

فقلت ممثلا الارتباك :

— لا أود أن أتعبك .

فقالت :

— هذا شيء بسيط .

فقلت وأنا أبتسم :

— هذا لطف منك .

ومدت يدها إلى البيجاما لتثبت الزر المقطوع ، ولكنها فطنت إلى أننا نقف خارج الباب ، فقالت :

— تفضل .

فدخلت وأغلق الباب خلفنا .

انحنت تغرز الإبرة فى البيجاما ، فاختلطت أنفاسنا ، وأصبح رأسها تحت أنفى فامتلأت خياشيمى بعبيرها فاضطربت ، ووقعت عيناى على الأخدود الغائر بين النهدين ، فسرت رجفة من بدنى . وتلاقت عيوننا مرات ، فكانت تترجم فى ومضات عن الشعور المكبوت .

— لم أشعر إلا بيدى تضغط على يدها فى حنان ، ولم تمض لحظات حتى شعرت بذراعى تلفان خصرها ، وشفتى تبحثان عن الثغر الحلو الدقيق .

٢

رفع يده يمشط شعره الذهبي بأصابعه ، ومد بصره إلى لا شيء ، وقال في إلقاء تمثيلي :

ـــ تلمع السعادة يا حمدي في حياة الإنسان كوميض البرق في سماء ملبدة بالغيوم . سعدت روحي بالأمس لحظات مرت كلمح البصر ، وتقضت كحلم جميل ، الحب يا صديقي كالحرب : مناورة فمفاجأة فتطويق فتسليم .

وصمت كمال قليلا كما يفعل كبار الممثلين ، ثم قال :

ـــ رأيتها تخطر عند الغروب ، كانت الفتنة والحسن ، صدر شامخ في استعلاء ، كأنما شعر بجلاله وروعته ، وخصر دق حتى أشفقت عليه من ثقل الأرداف الممتلئة التي شدت إليه ، وساقان ممشوقتان خرطتا من مرمر ، أما الوجه فكان آية من آيات الحسن والجمال .

ما وقعت عيناي عليها حتى انجذبتا إليها كما ينجذب مسمار إلى مغناطيس ، اقتربت منها فلمحتها تمضغ لبانا ، ولما كنت على يقين من أن الأمر لا يحتاج إلا إلى شيء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، هرعت إليها دون تردد ، حتى كاد كتفي يلمس كتفها ، ورنوت إليها ، وقلت في هدوء :

ـــ قطعة من اللبان من فضلك .

فالتفتت إليّ في ارتباك ما لبث أن غاض ، وأشرق وجهها دون أن يفتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، وهزت رأسها في دلال ، فقلت في إصرار :

ـــ لن أبرح حتى آخذ قطعة اللبان .

فقالت فى صوت رقيق :

ـــ إذن لن أعطيك .

فقلت فى انشراح :

ـــ أشكرك .

فقالت فى إنكار :

ـــ وعلام تشكر ؟ .

قلت فى هدوء :

ـــ لأنك لا تودين أن أتركك .

فقالت فى استخفاف متكلف :

ـــ ومن قال ذلك ؟

قلت :

ـــ أنت ، ألم أقل لك : لن أبرح حتى آخذ قطعة . فقلت إذن لن أعطيك ، فهل معنى ذلك إلا أنك تريدين بقائى ؟!

فمدت أصابعها إلى فمها ، وأخرجت قطعة من اللبان ، وقالت :

ـــ خذ .

فتناولت القطعة وأنا أقول :

ـــ على ألا أنصرف .

فابتسمت فى سرور .

فقال حمدى وقد شعر بعقارب الغيرة تلسعه :

ـــ محظوظ .

فقال كمال فى اعتداد :

ـــ بل لبق جسور .

٣

ومرت ثلاثة أيام لم ير حمدى فيها صديقه ، فانتظره فى شوق ، ولكن تقضت الساعات دون أن يقبل ، فأحس مللا ، فخرج وحده يطوف فى الحى ، ويضرب فى شوارعه ، رأى فتيات رائحات غاديات ، فكان يرقبهن على البعد فى اشتهاء ، ولمح فتاة تخرج وحدها ، فوسوست له نفسه أن يتبعها ، فراح يقتفى أثرها ، وفكر فى أن يقترب منها ويغازلها ، فشعر بقلبه يخفق خوفا ، وبرهبة تسرى فى صدره ، واضطراب يلفه ، فحنق على نفسه ، وسمع هامسا يهمس فى جوفه : « رعديد ما كان كمال ليحجم » فثار على ضعفه ، وحاول أن يصرعه ، فوسع من خطوه حتى إذا ما اقترب منها قفزت إلى ذهنه فكرة : « ماذا يفعل لو أنه غازلها فصفعته ، بدل أن تبتسم ؟ » وما مَثَل هذا الخاطر فى فكره حتى جبن وازداد اضطرابا ، وفترت حماسته ، فقلل من سرعته ، وأخذت الفتاة تبتعد عنه ، ثم دخلت دارا قريبة .. فهدأت ثورته ، ونزلت السكينة قلبه ، فزفر زفرة طمأنينة وارتياح .

واستأنف سيره ، وما خطا خطوات حتى لمح كمالا مقبلا ؛ وهو يمشط شعره بأصابعه ، ويدعك أنفه المحمر أبدا ، فابتسم مرحبا ، وقال :

ــ أين كنت طوال هذه الأيام ؟

ــ فى نعيم أمرح .

ــ فتحية أم فتاة اللبان ؟

ــ بل صيد جديد .

ــــ وكيف وقعت عليه ؟

ــــ كنت فى دار عمي جالسا وحدى فى الردهة ، وجاء إلى امرأة عمى زوار ، فقادتهم إلى غرفة الاستقبال ، بقيت وحيدا لحظات . وقع بصرى على التليفون ، فلمعت فى رأسى فكرة .

فرفعت السماعة ، وطلبت السنترال ، فرد على صوت نسوى حلـو فقلت :

ــــ عندك جريدة من فضلك ؟

قالت :

ــــ نعم ! ماذا تريد ؟

فقلت :

ــــ أريد أن أعرف روايات السينما فى هذا الأسبوع .

فقالت :

ــــ رأيت رواية جميلة فى سينما مترو .

فقلت :

ــــ لم تعد لها قيمة عندى ما دمت قد رأيتها . إنى لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى وأظن أنك لا تحبين أن تشاهدى رواية واحدة مرتين فى أسبوع .

فقالت :

ــــ لا أفهم ماذا تريد ؟!

فقلت :

ــــ بل تفهمين .

فقالت :

— أهي دعوة ؟

فقلت :

— متواضعة ، ليتك تلبين .

فقالت :

— غدا أمام سينما ريفولي .

فقلت :

— متى ؟ وكيف أعرفك ؟

فقالت :

— في السادسة مساء وسأرتدى ثوبا أبيض في صدره وردة حمراء .

انتظرتها في الميعاد ، ولمحتها مقبلة ، فأسرعت إليها ، حتى إذا ما اقتربت منها قلت وأنا أمد لها يدى :

— آلو .. آلو .

فأخفت فمها بمنديل في يدها ، لتحجب ضحكة ودت أن تنطلق . ثم مدت يدها وصافحتني وهي تقول :

— أهو أنت ؟

فقلت :

— نعم ، أخاب ظنك في ؟

فتكسرت أهدابها وغمغمت :

— شيطان .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن زانها جمال الصحة والشباب ، كانت نابضة زاخرة بالحياة ، إذا نظرت إليك بعثت الدفء فيك ، وأيقظت الإحساس الهاجع ، نعمنا بالرواية ونحن في غمرة من السعادة ، ثم انطلقنا بعدها إلى

الجزيرة ، ورحنا نذرع طرقاتها فى سكون الليل وهدوئه ، كان القمر يتألق فى رقعة السماء ، ويعكس ضياءه على صفحة الماء ، ويفرش مسارب الطرقات أمامنا بساط فضى أخاذ يهز المشاعر ، ويفعم النفوس بالغبطة ، كانت ليلة لن أنساها .

تعلقت عينا حمدى به ، وكان يصغى إليه فى انتباه ، وسمع همسا يهمس فى أذنيه : « محظوظ » ولكن سرعان ما راح الهمس يردد : « بل لبق جسور » .

٤

سار حمدى فى شارع فؤاد الأول يتلفت وقد انتشت روحه ، فقد مر بأسراب ، وعجب لتلك الأيدى الماهرة التى صففت الشعور ، وزججت الحواجب ، ونشرت المساحيق والأدهان فى صفحات الوجوه فى فن وإبداع ، فأبرزت الروعة والجمال ، ورأى فتيانا يسعدون بمصاحبة فتيات ، ففكر فى وحدته ، وسأل نفسه : « ألا يجد بين هؤلاء المنطلقات من تقبله صديقا ؟! » منهن من ترحب بهذه الصداقة من غير شك ، ولكنها لن تأتى إليه عارضة عليه أن يسعى إليها ، المسألة لا تحتاج إلا إلى شىء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ! هذا ما يقوله كال المجرب وهو يؤمن بذلك كل الإيمان ، ولكن من أين له الشجاعة ؟! إنه ما يقترب من فتاة حتى ترتعد فرائصه ، وتنتابه رهبة ، ويفكر فى الفرار .

سيعيش وحيدا إذا ركن إلى طبعه ، أما إذا أراد أن يحب كما يحب الشباب ، فعليه أن يجمع أطراف شجاعته ، ويغازل فتاة . وكان قد وصل إلى شارع

سليمان باشا ، فعرج عليه وقد عقد العزم على أن يجرب مرة ، انطلق وقد اختلطت عليه إحساساته ، كان يشعر بخوف مما يتوقع حدوثه من أحداث إذا ما أقبل على مغازلة فتاة ، وكان يشعر بقوة طاغية عاتية تدفعه إلى القيام بهذه المحاولة الخطرة . وتذكر كالا فى تلك اللحظة ، ورنت فى أذنيه كلماته ، فشد ذلك أزره ، وقوى من عزمه .

ورأى فتاتين تتهامسان ثم تضحكان أمام سينما مترو ، وكانتا بعيدتين عن الحشد المتدافع بالمناكب فى مدخل الدار ، فشجعه مرحهما على أن يندفع إليهما ، فسار وقلبه يدق فى جوفه دقا ، ودمه يتدفق إلى رأسه حارا ، فشعر بسخونته ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه ، فانطلق حتى أصبح أمامهما فقال فى صوت ظاهر الاضطراب :

— أين سينما مترو من فضلك ؟

فابتسمت الفتاتان ، فهدأت نفسه القلقة قليلا ، وسكنت مشاعره المتصارعة فى جوفه التى كادت تعصف به ، وقالت إحداهما وهى تشير بإصبعها بعيدا :

— لعلها هناك ..

قال فى أدب بعد أن جمع شتات نفسه :

— متشكر .. سؤال آخر من فضلك .

فقالت إحداهما فى تهكم :

— مثل السؤال السابق ؟

وقالت الأخرى وهى تضحك :

— أرجو ألا يكون عويصا مثله .

فقال :

— هل تشاهدان الرواية المعروضة فى هذه الدار ؟

— لا ..

— وأنا لم أشاهدها .

فقالت إحداهما وهى تضحك :

— أفادكم الله .

وتحركت الفتاتان ، فقال :

— كلمة أخيرة من فضلك ؟

— ماذا ؟

— يحزننى أن تنصرفا دونى ، كل ما أرجوه أن أسعد بحديثكما .

— ثم ماذا ؟

— أنصرف عندما تطلبان منى الانصراف .

فضحكت إحداهما وقالت :

— إذن انصرف الآن .

— حقا ؟! إنى وحيد ، فماذا يضيركما لو أسعدتمانى لحظات ، وكان لكما عند الله الأجر والثواب .

فقالت إحداهما وقد أشرق وجهها وتهلل :

— أصبح للترفيه عن الشبان أجر عند الله ، كالصدقة على الفقراء .

— كلانا يستحق العطف ، فنحن فى الحرمان سواء .

٥

انصرف حمدى مفعما بالرضا جذلان ، فما كان يصدق أنه يجرؤ على مغازلة فتاة ، فإذا به يغازل فتاتين ويواعدهما على اللقاء ، وراح يفكر فيما يفعله فى الغد ، إنهما فتاتان ، ولن يسعد بفتاتين ، فماذا عليه لو صحب كالا ، وقرر أن يصحبه معه ، فهو صديقه وصاحب الفضل عليه ، فلولاه ما وجد فى نفسه الشجاعة لمواجهة فتاة .

وخطر له أن كالا قد يأسر الفتاتين بلباقته وجسارته ، فهو زير نساء ، ولكنه طرد ذلك الخاطر سريعا ، فقد كان فرحان ، وما كان لخواطر الريبة والشك فى نفسه مكان .

ووافى الميعاد ، فأقبلت الفتاتان ، فابتسم حمدى ، وبرقت عيناه سرورا ، ومشط كال شعره الأصفر بأصابعه ، ودعك أنفه الأحمر أبدا بيسده فى اضطراب ، وظهر عليه ارتباك . وقدمه حمدى للفتاتين ، فسحشرج حشرجات ، وساروا وحمدى يتحدث وكال صامت لا ينبس بكلمة ، حتى إن حمدى أنكر فى نفسه هدوء زير النساء ، الذى لا يضطرب فى حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

وبلغوا حديقة هادئة ، فجلسوا على أريكة واحدة ، وظل كال غارقا فى صمته حتى إن حمدى تمنى لو أنه ألقى منلوجا من المنلوجات الروائية التى يلقيها عليه فى الليل والنهار . . وخمن حمدى أن كالا قد يكون من ذلك الطراز الذى



لا يتألق إلا إذا انفرد بفتاته ، فأخذ فتاة وابتعد ، تاركا كالا وحده مع فتاة .

وانقضى بعض الوقت ، فعاد حمدى وفتاته منشرحين ، فألفيا كالا جالسا على طرف الأريكة ينصت إلى الفتاة ، وقد بدا عليه الارتباك ، وما إن لمحتهما الفتاة حتى قالت فى تبرم :

ــ هيا لنعود .

فقال حمدى فى إنكار :

ــ هكذا سريعا ؟

فقالت الفتاة فى ضيق :

ــ أشعر بقشعريرة تسرى فى بدنى .

فقال حمدى متهكما :

ــ من الحب ؟

ــ من البرد .

وفطن حمدى إلى أن هذه أول مرة يقابل فيها كال فتاة . وأن فتحية وفتاة اللبان والسنترال وغيرهن من بنات الخيال ، فابتسم فى سخرية ، ولكن هذه البسمة دوت فى أذنيه قهقهات ، وهمس فى جوفه هامس ساخرا :

ــ حقا إنه لبق جسور ، لا يضطرب فى حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

البخيل

هبط فى البكور إلى فناء الدار ، وذهب إلى حيث وضع فى المساء صفيحة ملأها ماء ، ليختبرها هل ترشح . وما أن وقع نظره على الصفيحة حتى قطب جبينه .. فقد رش أحدهم الفناء بالماء .. فهتف فى غضب :

ـــ عم محمود . عم محمود .

فجاء البواب يهرول . فقال له وقد زوى ما بين حاجبيه :

ـــ من الذى رش هذا الماء ؟

ـــ أنا يا سيدى ..

ـــ ألا تعلم أنه ماء عذب وليس من البئر .. كنت سأستعمله فيما يستعمل فيه الماء العذب ..

ـــ لم أكن أدرى أنه ماء عذب .

فدار على عقبيه فى انفعال ، والتفت إلى (سلاملك) كان يتخذه مكتبا فى الصباح وصاح :

ـــ محمد أفندى .. محمد أفندى ..

فظهر عند رأس السلم محمد أفندى فى جلباب مخطط ، وعلى رأسه طربوش قديم .. وفوق أذنه اليمنى قلم . إنه كاتب الحسابات ، فقال فى حزم :

ـــ اخصم من ماهية عم محمود مليمين ثمن الماء الحلو الذى رشه اليوم .

فقال عم محمود وهو يمد يده فى جيبه :

ـــ لا لزوم للكتابة والخصم وتعقيد الحسابات .

وأخرج مليمين وقال :

— هاك المليمين .

فبسط الرجل كفه وتناولهما ، ثم دسهما فى جيبه . وذهب يجوس خلال فناء الدار الواسع ، فألفى فى ركن من الأركان قطعة خشب ملقاة ، فالتقطها ، ويمم صوب باب ضيق ، ففتحه ودلف إلى مكان تكدست فيه قطع من الحجارة ، وأكوام من الرمل والجير والخشب ومكاتل وحبال ، ومفاتيح صدئة ، وأقفال قديمة ، ومشابك أبواب ونوافذ ومقابض أبواب .. فوضع قطعة الخشب فى حرص كما وضع كل ما فى ذلك المخزن من قبل .. ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، فما كان يفرط فى شىء يجده . علمته الأيام أن لكل شىء فائدة .. فإذا أصر ساكن من السكان الذين يقطنون مساكنه الكثيرة على عمل بعض الترميمات فى مسكنه . كان فى ذلك المخزن العون على إتمام الإصلاح ، دون أن يخرج من جيبه نقودا .

وجلس على باب الدار يستقبل الخدم الذين يفدون فى الصباح ليشتروا منه الخضر التى يزرعها فى فناء البيت . فما كان يحب أن يدع شيئا دون استغلال . وأخذ يقبض القروش متهلل الوجه . كان يفرحه دخولها إلى جيبه ، وكان يغمه خروجها منه .. وأقبل خادم ، وطلب رطلا من ورق العنب ، ونقده ثمنه .. فأمر عم محمود — وكان بوابا وزارعا وبائعا وسباكا عند اللزوم — أن يقطف له من عريش العنب رطلا ، فراح عم محمود يقطف ورق العنب ، ثم أعطاه الخادم . ولاحظ السيد أن ما أخذه الخادم يزن أكثر من رطل .. فأخذ ورق العنب منه فى عنف وهو يرغى ويزبد ، ووضعه فى الميزان فرجح .. فراح يسب عم محمود الذى سيسبب له الخراب ..!

وأقبل صبى صغير وتقدم منه على استحياء ، وقال له فى صوت

مضطرب : إن كرته سقطت منه فى فناء الدار ، وإنه يرجوه أن يأذن له بالدخول ليأخذها . فقال له :

— لن أعطيكها قبل أن تدفع قرشا ، حتى لا تسقطها مرة ثانية ..

وأخرج الصبى القرش الذى أخذه من أهله لينفقه فى يومه ، وأعطاه إياه ، فدخل عم محمود ، وعاد بالكرة وقدمها إلى سيده ، فلما رآها اغتم ، كان يحسبها صغيرة ، فإذا بها كرة قدم .. فدفع بها إلى الصبى وهو مستاء ، يحس إحساس من غبن فى صفقة من الصفقات ، وراح يغمغم فى حسرة :

— لو كنت أدرى ما قبلت قرشا واحدا فقط !

وهبط ابنه من الدار .. فانطلقا معا إلى الدكان، وفيما هما فى الطريق.. قال ابنه.

— سيحضر اليوم مفتش الصحة ..

فقال الرجل فى امتعاض :

— مصائب تهبط علينا من السماء .. أتحسب أن الإصلاحات التى أجريناها بمخازننا كفيلة بإرضائه ؟

فقال الابن فى استخفاف :

— لن يأذن لنا بإعادة فتح المخازن مهما أجرينا بها من إصلاحات ..

— لماذا ؟

— لأنه يأمر بإغلاق المحال ، بحجة عدم استيفائها المواصفات الصحية ، ثم لا يوافق على إعادة فتحها إلا إذا أخذ شيئا ..

فقال الرجل فى فزع :

— أخذ ماذا ؟

— ألم تسمع أن الحاج سليمان دفع له خمسة جنيهات حتى وافق على إعادة

فتح محله .

فقال الرجل فى تهويل :

— خمسة جنيهات !

وأحس كأنما أصابه دوار . وسار وهو مهموم يفكر فى ذلك البلاء ، حتى إذا بلغ المحل دخل مكتبه وأطرق .. كان مكتبا متواضعا ، لا يتفق مع مركز الرجل التجارى ، والأرباح الوفيرة التى يجنيها . رصت أمامه أرائك من خشب ، وعلق على الحائط إطار كتب فيه « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » .. ولا شىء غير المكتب والارائك والآية الكريمة وخزانة ضخمة ابتلعت جزءا كبيرا من المكان ..

ومر الوقت وهو قلق .. ثم أقبل مفتش الصحة ، فقابله بالترحاب ، وما إن جلس حتى قال له متطلق الوجه :

— عندى لك هدية طيبة ..

فانفرجت أسارير المفتش ، والتمعت عيناه فى جشع .. وانتظر أن يقدم الرجل هديته القيمة . ولكن الرجل قال :

— إنها عندى حتى تنتهى من التفتيش على المخازن .

فقام المفتش خفيفا ، وذهب إلى المخازن وهو يفكر فى الهدية الغالية التى أعدها له أغنى رجل فى الحى ..

ومر بالمخازن سريعا ، ثم عاد وفى وجهه لهفة ، وجلس ينتظر الهدية ، ولكن الرجل قال له :

— كيف رأيت مخازننا ؟

— استوفت جميع الشروط المطلوبة .

— أتأمر بإعادة فتحها ؟

ـــ وهل فى ذلك شك ؟

وأخرج المفتش ورقة ، وراح يكتب الإذن بفتح المخازن فى سرعة عجيبة .. ثم دفع بالإذن إلى الرجل ، ودس الرجل الإذن فى جيبه ، ثم مد يده وفتح درج مكتبه ، وأخرج منه الهدية المترقبة ، وأعطاها المفتش بوجه متطلق ، فاكفهر وجه المفتش ، وبان عليه الحنق والضيق . كانت الهدية (برتقالة يافاوية) من الحجم الكبير .. !

* * *

وجلس أمام الدار يرقب الغادين والرائحين .. وكانت هذه جلسته المفضلة .. فما كانت تكلفه شيئا . وأقبل ابنه .. فلما لمح أباه اضطرب واندا حت الرهبة فى جوفه ، كان يرجو أن يصل إلى البيت دون أن يراه أبوه .. فقد اشترى دجاجة رومية تمنى أن يتعاون هو وأهله على إخفائها ، ليأكلوها بعيدا عن أنظار أبيه حتى لا يقرعهم على تبذيرهم الذى سيجلب الخراب .

ووقف ابنه حائرا ، وفكر فى أن يتركها فى محل من المحال التجارية القريبة من البيت ، ولكنه خجل من أن يفطن صاحب المحل إلى السبب الذى دعاه إلى تركها عنده ، فعاود التفكير . فاهتدى إلى فكرة قاسية ، ولكنها أرحم مما ينتظره من عذاب ..

أمسك بساق الدجاجة وكسرها .. ثم تقدم من أبيه وهو خائف ، فلما رأى الرجل الدجاجة قال فى استنكار :

ـــ ما هذا الذى بيدك ؟

فقال ابنه فى صوت مضطرب :

ـــ دجاجة رومية ..

ـــ دجاجة ؟! ومن أين جئت بها .. ؟

— لما رآها البائع مكسورة الساق باعها لى بخمسة عشر قرشا ..

— خمسة عشر قرشا ! هذا تبذير ..

— والله يا أبىَ لو لم أعتقد أنها صفقة طيبة ما جئت بها .

— هذا خراب ..

وانسل الولد فى خفة ، وبقى الرجل يمصمص شفتيه أسفا على أنه أنجب ولدا لا يعرف قيمة المال .

وجاء رجل وحياه وقال له : إنه عاين مسكنا خاليا فى منزل من منازله .. وإنه يريد أن يستأجره ، فدعاه إلى المكتب ، وسارا صامتين . وصعدا بضع درجات ، ثم دلفا إلى حجرة بعثر فيها أثاث قديم ، وقد جلس خلف مكتب محطم تكدست فوقه الأوراق . محمد أفندى بجلبابه المخطط وطربوشه القديم ، فلما رأى القادمين انتصب واقفا ، فقال له السيد :

— هات عقد إيجار ..

والتفت إلى المستأجر وقال :

— هل استلمت الشقة من البواب ؟

— نعم ..

— تسلمت مشابك الشابيك والأبواب ؟

— نعم .. خمسون مشبكا .

فقال السيد مصححا :

— اثنان وخمسون مشبكا .

فقال الرجل موافقا :

— اثنان وخمسون مشبكا !

— وتسلمت مقابض الأبواب والمزاليج والأقفال وألواح الزجاج ؟

— تسلمت كل شيء ..

وتناول السيد ورقة وكتب فيها بعض أرقام ، ثم قال :

— هات خمسة جنيهات وثلاثين قرشا .

— الإيجار خمسة جنيهات فقط !

— وثلاثون قرشا تدفع عند كتابة العقد ..

— لماذا ؟

— ثلاثة قروش تمغة ، وسبعة قروش ثمن العقد وكتابته .. وعشرون قرشا حلاوة إتمام العقد ..

فاتسعت حدقتا الرجل .. ولم ينبس بكلمة .. ودفع المبلغ ، فلما اطمأن السيد إلى أن النقود باتت فى جيبه ، التفت إلى محمد أفندى وقال :

— الآن اكتب العقد للأستاذ .

وقام يتمشى ، فلما بلغ رأس السلم لمح عم محمود يتناول قرشا من صبى صغير ، فاتسعت عيناه ، وصاح فى لهفة :

— عم محمود .. عم محمود .

فهرول الرجل إليه ، وراح يصعد فى الدرج مكروب الأنفاس ، فلما أصبح أمامه قال له :

— ما هذا الذى فى يدك !

فقال عم محمود فى صوت خافت :

— قرش صاغ .

— ولماذا أخذته منه ؟

— أراد أن يصطاد سمكا ، فطلب منى بعض الدود يستعمله طعمـا للأسماك ، فلما أعطيته الدود أعطانى القرش .

فقطب الرجل جبينه ، وقال فى غضب :

ـــ وهل يأكل الدود من أرض أبيك ، هات القرش .

وأخذ القرش ، ووضعه فى جيبه وهو يغمغم ويهز رأسه حسرة :

ـــ خربت الذمم .

وتلفت فلمح الخادم وهى تهم بمغادرة الدار وتحت إبطها لفيفة ، فناداها ، فالتفتت ، فأشار لها بيده أن تعالى .. فانطلقت إليه . فمد يده إلى اللفيفة وفضها ، فوجد بها رغيفين .. فثار وسب الفتاة ، واتهمها بالسرقة .. فقالت تنفى عن نفسها :

ـــ والله إن سيدتى أعطتنى إياهما ..

ـــ أعطتك إياهما ؟ وكيف .. ؟ ولماذا ؟ تعالى ..

وسار وهو يسوق الفتاة أمامه .. وراح يصعد فى الدرج وفى صدره نار ، حتى إذا بلغ زوجه قال :

ـــ هل أعطيتها هذين ؟

ـــ نعم ..

ـــ ولماذا ..

ـــ ستبيت الليلة عند أمها ، ولن تتعشى عندنا ، فأعطيتها هذين الرغيفين لتتعشى بهما .

ـــ هذا تبذير . هذا بطر . إنك ترفسين النعمة بقدمك .

وخطر له خاطر أعجبه ، فقال لزوجه :

ـــ آه .. إننا نستطيع أن نستغنى عن رغيفين كل يوم إذا ثبت لى ذلك .. سأخاطب المخبز لينقص من الراتب رغيفين !

واتجه إلى التليفون ، وفتح القفل الصغير الذى يغلق به ، ثم أدار القرص مرة

ومرتين وثلاثا .. وتذكر أن هذه المكالمة ستكلفه قرشا ، وأن المسافة بين البيت والمخبز يسيرة يقطعها على قدميه فى عشر دقائق . فوضع السماعة ، وأغلق التليفون ، ثم غادر الدار ، وذهب إلى المخبز يغذ السير ، ليخفض من الراتب اليومى رغيفين .

* * *

ووافق ميعاد سفره إلى القرية وحده .. كان يمضى بها أسبوعا يتفقد شئونها . وكان ذلك الأسبوع أسعد الأيام فى حياة أهله .. كانوا يمضون يومهم فى المطبخ يعدون ما لذ وطاب ، ويأكلون فى نهم ، ليعوضوا ما فاتهم طوال العام .

وسافر .. وما إن غادر الدار حتى وفدت إليها خيرات الله . ومر يومان سعيدان .. وفى اليوم الثالث دعا ابنه أصدقاءه إلى وليمة فاخرة ، ومدت المائدة ، ورصت فوقها الديكة الرومية والأوز والحمام .. وعشرات الأصناف . وتحلق الصحاب حول الطعام ، وراحوا يأكلون ويتضاحكون ..

وسمع طرق على الباب .. فأسرعت الخادم وفتحته .. فإذا بسيدها قد عاد قبل الأوان .. وصكت أذنيه ضحكات الشبان ، فدخل وهو يعجب ، فما كان يزور أو يزار . وما أن بلغ مصدر الضحكات ورأى المائدة العامرة ، حتى أحس مطارق هائلة تهوى على رأسه .. ونظر إلى الأيدى التى تمتد إلى الطيبات ، فخيل إليه أنها تمتد إلى قلبه فتنهشه . وأحس الأرض تميد به .. وفطنوا إلى دخوله ، فدعوه إلى الطعام .. فلم يحرك ساكنا ، وظل ينظر إلى السكاكين وهى تمزق لحوم الطير ، فيشعر بها تمزق أحشاءه .. وسار وهو يحس يدا قوية تضغط على عنقه ، وتكتم أنفاسه ..

وقعد على حافة سريره وقد فار مرجل غضبه ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ..

وانتهت الوليمة .. وغادر الضيوف الدار . وبقى الابن مهموما وقد امتقع لونه ، وانتابه القلق . وأخذت الأم تغدو وتروح حيرى ، لا تدرى ما تقول لزوجها ، الذى عاد على غير ميعاد . وانقضت ساعة كئيبة رهيبة ، ولم يرتفع صوت الرجل ثائرا صاخبا لما حل به من خراب . ومرت ساعة أخرى قاسية شديدة . ولما كان نزول البلاء أهون من انتظاره تقدمت الزوجة إلى غرفة زوجها وقلبها فى صدرها يدوى دويا .

ودنت من سريره ، فألفته مكبا على وجهه . واقتربت منه ، فألفته فى غيبوبة يغط غطيطا .. فنادته فلم يرد عليها .. فهزته فلم يحرك ساكنا . فأسرعت وجاءت بقلة ماء ، ورشت الماء على وجهه .. واستدعت ابنها وحملاه بينهما وأجلساه .. ففتح عينيه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة ، فقد كف لسانه عن الدوران فى حلقه ، وأراد أن يرفع ذراعه أو يجر ساقه فلم يقدر . فقد مات نصفه الأيمن .. !

ومدداه فى فراشه ، وبقيا إلى جواره صامتين ، لا يجرؤ أحدهما على أن يشير باستدعاء الطبيب حتى لا يغضبه فما كان الأطباء يعرفون طريقهم إلى بيته إلا فى حالة واحدة . حالة الوفاة .. وقعدا مطرقين وهو ممدود فى سريره ، وسمع صوت ماء يتدفق من صنبور مفتوح .. فحرك رأسه فى ضيق .. وظل صوت الماء المنساب يصك أذنيه فيضنيه ، واحتل فكره طيف عقرب عداد الماء وهو يجرى مسجلا استهلاك المياه وزيادة استحقاق الشركة .. فرفع ذراعه التى كان يستطيع أن يرفعها . وجعل يحرك أصابعه فى ثورة ، تحريكا يفهم منه أن أغلقوا الصنبور ، ففطن ابنه إلى ما يريد .. فهرع إلى الصنبور وأغلقه .

وتقضت الليلة .. وطلع النهار وهو على حاله لا يستطيع أن يتكلم أو يحرك ذراعه أو ساقه ، فلم يجد ابنه مفرا من استدعاء الطبيب ، فذهب إلى التليفون ، وطلب طبيبا من أطباء الأعصاب المعروفين ، ومر الوقت وهو هادئ ساكن ، ولكن ما إن أقبل الطبيب وفحص عنه ، وقدم له ابنه جنيهين ، ولحه وهو يدسهما فى جيبه ، حتى قطب جبينه ، وصعد الدم إلى وجهه ، وراح يتدفق إلى رأسه ، ولو أن الطبيب فحص عنه بعد ذلك لوجد أن حالته زادت سوءا .

وجيء بالدواء ، ورص على نضد قريب منه . فلما فتح عينيه ، ووقعتا على العلب والزجاجات المصفوفة ، هاله ما أنفق فيها من مال ، فاربد وجهه ، وأشاح به عن المنظر البغيض . ولو أرادوا له الشفاء حقا لكدسوا له على النضد أكوام الذهب البراق .

ومر اليوم ، وتصرمت الليلة وحالته تزداد سوءا . فلما أشرقت شمس اليوم التالى استدعى ابنه طبيبين كبيرين ، وما انتهيا من عملهما حتى منحهما مبلغا كبيرا . ورأى الرجل فعلة ابنه الشنعاء ، فأحس كأن رأسه يتمزق ، وراح فى غيبوبة .

كان ذلك الإنفاق المتواصل الذى يقع تحت عينيه ضربات متلاحقة على رأسه ، لم يحتملها . فما أقبل اليوم الثالث حتى فاضت روحه من جسمه . وعلى الرغم مما قاساه فى سكرات الموت كان خروج الروح أيسر من خروج قرش من جيبه .

وأقام ابنه سرادقا كبيرا ، وأخذ ينفق عن سعة ، وهبط النعش من

الدار ، وجيء بعجل سمين ، ليذبح تحت النعش .

وما إن سال دمه على الأرض حتى ارتجف النعش المحمول على أعناق الرجال رجفة شديدة . فأيقن الذين يعرفون المرحوم أنه يتململ فى نعشه ، آسفا على ماله الذى أصبح يراق بغير حساب !

مولد أديب

قام من نومه يتمطى ويتثاءب ، ونظر إلى زوجه ، فألفاها فى فراشها ساهمة ، وقد شخصت ببصرها إلى سقف الغرفة ، فقال لها فى سخرية :

ـــ ما الذى يشغل بالك ؟ إطعام الأولاد ؟!

فقالت فى أسى :

ـــ أختى ستطلق ..

ـــ ومتى جاءك هذا النبأ ؟ ! كنا نتسامر قبل أن ننام حتى منتصف الليل ، فلم تذكرى لى شيئا !

ـــ رأيت ذلك فى منامى ..

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيت أختى وزوجها غاضبين ، وقد ولى كل منهما الآخر ظهره .

ورفت على شفتيه ابتسامة هازئة وقال « آه » ممطوطة ، دلالة على الزراية والاستخفاف ، ثم غادر فراشه ، وراح يتأهب للانطلاق إلى عمله .

وانقضت ليال وأيام ، وعاد إلى البيت بعد انتهاء عمله فى الديوان ، فوجد زوجه مطرقة ، وقد ارتسم على وجهها أمارات الأسى والحزن ، فقال لها وهو يبتسم :

ـــ كفى الله الشر ، ما هذا العبوس ؟ لعل الطبيخ احترق ؟

فقالت له فى اضطراب :

— تشاجرت أختي وزوجها ، وعادت إلى بيت أبي غضبى .

— وهل في ذلك من جديد ، ما أكثر خصامهما ، وما أسرع أن يتصالحا !

— ولكن أبي يصر على تطليقها هذه المرة .

— هذا ما يقوله أبوك في كل مرة .. قومي وجهزي لنا طعامنا .

وترادفت الأيام ، وتم الطلاق ، وراح يفكر في حلم زوجه ، فحيره فكره ، ولم يهتد إلى شيء ، فغمغم ليريح نفسه .

— مجرد مصادفة .

ومرت الأيام هينة رتيبة ، وفي صباح يوم من الأيام استيقظ من نومه ، فوجد زوجه أمام المرآة تمشط شعرها ، فقال وهو يبتسم :

— صباح النور على البلور .

فافتر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، ولكن سرعان ما ذابت الابتسامة على شفتيها ، وقطبت جبينها ، فقال لها :

— ما الذي يكدرك ؟

— رؤيا رأيتها .

— وماذا رأيت ..

— سرادقا هائلا نصب أمام بيت خالتك ، أقيمت فيه الزينات . وخفقت الرايات ، وانتثرت الثريات .

فقال وقد أشرق وجهه بابتسامة :

— لعل ابن خالتي سيتزوج مرة أخرى ، أو لعل خالتي اشتاقت إلى الزواج !

— لا أحسب أن هذه الزينات بشير فرح .

— فعلام تدل إذن ؟

ـــ إنها نذير حزن عميق .

فقال بعد أن زفر فى استخفاف :

ـــ يا فتاح يا عليم .

وغادر الغرفة وهو يعجب من زوجه التى تتعلق بأوهام . ولكن ما انقضى الشهر حتى كان ابن خالته قدمات ، وأقيم ذلك السرادق الذى رأته زوجه فى المنام .

وترادفت رؤاها ، وتحققت كفلق الصبح ، فصار يؤمن بأحلامها ويهابها ، وإن أبدى الزراية والاستخفاف .

وفى ذات يوم استيقظ من نومه وزوجه تجفف دموعها . فأوجس خيفة ، وأحس قلبه يغوص فى قدميه ، وهم أن يسألها عما أسال عبراتها ولكنه أحجم رهبة ؛ واستولى عليه قلق واضطراب ، ولما كان الموت أهون من انتظاره ، فإنه لم يستطع أن يئد رغبة الاستفسار التى تولدت فى نفسه ، فقال لها فى صوت خافت مرتجف :

ـــ ما الذى أبكاك ؟

ـــ لا شىء .

فزاد إنكارها فى قلقه ، فقال فى اهتمام :

ـــ ماذا تخفين عنى !

ـــ رؤيا أفزعتنى .

ـــ وماذا رأيت ؟

ـــ رأيت أن ضرسى قد خلع .

فقال فى لهفة :

ـــ وما تأويل ذلك ؟

ـــ شر مستطير .

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ لا أستطيع أن أقول .

فقال فى إصرار وعناد :

ـــ قولى .. قولى .

فخفضت رأسها وقالت فى نبرات حزينة :

ـــ هذا نذير بموت أحد أحبابى المقربين .

وترقرق الدمع فى عينيها ، فخيل إليه أنها تنعى إليه نفسه ، فسارتجف وتفككت مفاصله ، وسمع صوتا خافتا ينبعث من أغوار نفسه ، يهمس فى فحيح كفحيح الأفعى : « انتهيت وحم القضاء ، لم يبق لك على الأرض إلا أيام ». فانقبض صدره ، وراح قلبه ينزف إحساسات الحزن ، ونزل به هم ثقيل .

وغادر البيت وهو حزين ، وانطلق شارد البصر ، لا يرى ما حوله ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يرى ما ينتظره من أحداث بعين خياله ، إنه سيموت وما ترك لأهله ما يشترون به أكفانه ، إنه ينفق مرتبه على بيته ، وما ادخر منه شيئا ، ومن أين يدخر وقد كان يكفيه بشق النفس ، كان يحسب أن العمر سيمتد به حتى يزوج ابنته الصغيرة ، ويسلح ولديه بالعلم ليخوضا معركة الحياة فى أمان . وما خطر له على قلب أنه سيموت فى شرخ الشباب ، مخلفا وراءه يتامى يحيون حياة ذل وكفاف .

وأحس غصة فى حلقه ، وزاد أساه ، ولج فى التصورات ، فرأى نفسه مسجى فى فراشه ، وأولاده يبكون ويصرخون مفزوعين ، وزوجه تذرف الدمع الهتون فى يأس مرير ، فأحس سكينا تقطع قلبه ، ونارا تندلع فى جوفه ، فأطرق فى أسى عميق .



وخطر له فى زحمة الأفكار أن يحسب المكافأة التى ستصرف لزوجه وأولاده بعد موته ، عن الخمسة عشر عاما التى قضاها فى الحكومة ، فألفاها لا تكاد تكفيهم بضعة أشهر . وطغى حزنه . وزاد أساه لما رأى بعين خياله أهله وقد جاءوا بعد أن بلغهم النبأ الفاجع ، وقرروا تشييع جثمانه فى جنازة فخمة ، وإقامة سرادق كبير يليق بالأسرة ، حتى إذا انتهت ليلة المأتم عادوا إلى دورهم ، وتركوا الدائنين يقاسمون زوجه وأولاده مكافأته الضئيلة ، التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وبلغ الديوان وهو فريسة لأفكاره السود ، وانطلق إلى قسم الحسابات ، والتفت إلى زميل له ، وقال فى صوت جاد :

— لى عندك خدمة .

فاعتدل الرجل وقال فى اهتمام .

— خيراً ؟

— أن تسارع إلى صرف نفقات جنازتى إذا جاءك خبرى .

وحسب الحاضرون أنه يمزح فضحكوا ، وقال كاتب الحسابات وهو يبتسم :

— سأبعث إليك بأكفانك مع « مخصوص » .

وجلس إلى مكتبه وهو صامت ساهم ، وراحت الخواطر تتزاحم فى رأسه ، والصور تتلاحق فى مخيلته ، وأرهفت حواسه واستيقظت مشاعره ، فأحس قلبه يدمى أسى وكربا ، وشعر برغبة فى البكاء ، ولكنه خجل من أن يبكى أمام زملائه ، فحبس دموعه ، وراح يجتر آلامه فى صمت بغيض .

ووافى ميعاد الانصراف ، فذهب إلى بيته وهو قلق ، وما دخل مسكنه حتى راح يقلب ناظريه فى شرود فما كان يدرى متى يرى ثانية مسكنه الحبيب .

وأقبل إليه ابنه الصغير مسرورا ، فحمله وضمه إلى صدره فى وله ، وأخذ يلثمه فى وجد ، كأنما يقبله قبلات الوداع الأخيرة . وجاءت زوجه ، فحاول أن يبدو أمامها هادئا ، فاغتصب ابتسامة كلفته جهدا ، ثم ذهبت تجهز له الغداء ، فراح ينظر إليها من خلل دموعه ، وقد أحس يدا قوية تجهز على قلبه ، وتفتت كبده .

وخطر له أن زوجه وأبناءه سيغادرون هذا المسكن ، ليسكنوا غرفة متواضعة ، يجود عليهم بإيجارها بعض أهله ، فأحس رأسه يدور ، وأمعن فكره فى تعذيبه ، فرأى أولاده فى ثياب خلق ، يذهبون فى البكور إلى مصنع من المصانع ، يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس لقاء قروش يمسكون بها رمقهم ، فشعر بإحساسات الحزن تكتم أنفاسه وتضنيه .

وأفاق من تصوراته على صوت زوجه وهى تناديه ليتناول غداءه ، فنهض وهو يحمل ابنه ، وذهب إلى السفرة ، وجلس وهو حاضر بجسمه غائب بفكره ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان مشغولا بالخواطر الحزينة التى كانت تفد إلى رأسه توافد الموج ، وتخز روحه وخزا قاسيا يعذبه ويضنيه .

وذهب إلى فراشه ، وتمدد فيه ليستريح ، ولكن أنى له الراحة وأفكاره تهجم عليه فى إصرار وعناد ، وشبح الفناء الكريه يلازمه فى غدوه ورواحه ، يزلزل الأرض تحت قدميه . ويجرعه الموت غصة بعد غصة ! وهتف به هاتف أن يذهب إلى أمه يودعها ، فغادر فراشه ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق وأدار عينيه فى الرجال الجالسين أمام حوانيتهم القريبة من داره ، ثم غمغم فى حسرة : « إن هى إلا أيام حتى تشتركوا فى تشييع جثمانى الأخير » .

ودخل على أمه ، فوجدها قاعدة فى ثيابها البيض على سجادة الصلاة ،

ترصد أذان العصر . كانت هادئة هدوء الملائكة ، وكان وجهها صافيا صفاء النفس الراضية ، فسلم عليها ، وجعل يصغى إلى حديثها العذب الحنون ، وكاد حديثها يمسح الحزن الذى ران على صدره ، ولكن قفزت إلى رأسه صورتها وهي واقفة عند جثمانه ، فى ثياب سود تبكى أحر البكاء ، فثارت مشاعر الحزن فى نفسه . وانعكست على وجهه ، فاربد واكفهر ، وغض من بصره ، حتى لا تفصح عيناه عن ألمه الدفين .

وامحت من مخيلته صورتها وهي عند جسده المسجى ، لتحل مكانها صورتها وهي واقفة على قبره تقاسى نار الثكل الأليم ، فهاجت شجونه ، وأحس أن عبراته ستخونه ، فنهض مستأذنا ، وخرج من عندها كعاصفة ثائرة ، ليذرف دمعه فى الطريق .

وسار وهو مهموم ، ولم يرحمه فكره ، بل أوحى إليه أن ينطلق إلى المدافن ، ليزور قبره ، ويقرأ الفاتحة على روح نفسه . فراح يضرب فى مسالك مهجورة ، وهو غارق فى أشجانه . وتلفت حوله وإذا بهمس ينبعث من جوفه يتمتم « اليوم تسير فى هذا الطريق على قدميك ، وعما قريب ستقطعه محمولا على أعناق الرجال ، لتغيب فى التراب ، وتتساوى أنت ومن غادر الدنيا من آلاف السنين » .

ولاح له عن بعد مدافنهم ، فأحس قلبه يهبط فى فراغ صدره ، وراح يدنو من المقابر وهو يحس رهبة ما كان يحسها من قبل ، اتسعت حدقتاه ، وجعل صدره يعلو وينخفض فى تتابع ، فقد كان يلتقط أنفاسه فى كرب وضيق ، وبلغ المدفن ، فألفى بابه موصدا ، فذهب إلى الشباك ، ومد يديه ، وقبض على أعمدته الحديدية ، وأسند إليها رأسه ، وهتف فى صوت أجش صك أذنيه موحشا غريبا :

ـــ سلام إليك يا أبى من ابنك النازل إلى جوارك عن قريب .

ولم يستطع أن يكبت مشاعره ، فانفجر باكيا ، حتى كادت كبده تتصدع من البكاء ، أرخى البكاء ، أرخى الليل ستائره السود ، وصفرت الرياح فى الفضاء العريض ، فبلغت أذنيه كالعويل ، فخيل إليه أن الكون يبكيه ، فسار مطرق الرأس ، منقبض النفس ، يجر رجليه فى يأس مرير .

ومس أذنيه صوت المؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة ، فرفع رأسه إلى السماء ، وراح يبتهل فى خشوع أن يغفر له ، وأن ينزله منازل الأبرار والصالحين ، وأحس فى تلك اللحظة أنه أقرب ما يكون إلى ملكوت السماء ، فلج فى الدعاء ، وقد سالت عبراته على خديه ، فلطفت من وقدة النار التى كانت تلتهم جوفه ، وسرى فى صدره أمن لطيف .

ودخل داره ، وراح يداعب أولاده ، وهو يبدى لهم الغبطة والسرور ، وإن كان يحس خنجرا يمزق قلبه تمزيقا ، وظل يلاعبهم حتى غلبهم النوم فناموا ، وخلا بزوجه ، وخطر له أن يوصيها بهم خيرا ، فما كان ذلك بتدبيره ، كان يأمل أن يبقى بينهم ليسعدهم ، ويحقق أحلامهم ، ولكن الموت جاءه وقوض آمالهم ، وفرق بينه وبينهم ، وأرغمه على أن يتركهم لمصيرهم المجهول . ولكنه لم يجد فى نفسه الجرأة التى تمكنه من التحدث فى ذلك الموضوع الدقيق ، فذهب إلى فراشه ، واندس فيه .

وراحت الذكريات ، تنهال على رأسه ، فرأى نفسه صبيا يلعب مع الصبيان ، وتلميذا يساق إلى مدرسة ، كما يساق المرء إلى سجن بغيض ، وطالبا تفتحت أمامه الآمال ، وخطيبا ملأ صدره الحب ، وزوجا سعيدا ، وأبا كريما ينكر نفسه ليسعد أهله . وراح يجتر حوادث الأيام فى وضوح ، وقفزت إلى ذهنه ذكريات حسبها انداحت فى لجة النسيان ، وأخذت حياته

تمر أمام ناظريه كشريط سينمائى ، فأفعم بالمشاعر والإحساسات ، وهاله أن حياته وذكرياته ستندثر ، وتمضى كأمس الدابر لا يحفل بها إنسان ، فخطر له أن يسجلها قبل أن تنمحى الفقاعة الصغيرة فى المحيط ، واحتل ذلك الخاطر تفكيره . وأيده أنه يستطيع أن يسطر لزوجه ما يحسه من مشاعر وخلجات ، وأن يبثها ما عجز عن أن يكاشفها به من لحظات ، دون أن يضطرب أو يخشى أن تعقل لسانه قسوة المناجاة ، إنه يستطيع أن يعتذر لأبنائه الصغار عن ذلك الفراق الذى قوض مستقبلهم ، حتى إذا كبروا عرفوا أنه ما كان له يد فيما وصلوا إليه من مآل .

وألفى نفسه عبدا لذلك الخاطر الذى جعل يلح عليه ، ملأت أقطار نفسه رغبة تسجيل حياته ، فنهض وذهب إلى مكتبه ، وأدار الزر الكهربى ، وجلس وراح يسطر على القرطاس حياته ، فى عناية وتوفيق ، وخيل إليه أن عينيه تهتكان حجب الماضى ، وتبصران كل شىء فى جلاء ووضوح ، فها هو ذا البيت الذى نشأ فيه من عشرات السنين ماثل أمام عينيه زاخر بالحياة ، وها هى ذى أمه وها هو ذا أبوه ، وها هم أولاء رفقاء الصبا ، وهنا الزقاق الذى مرح فيه ، واسترسل فى الكتابة ، فارتفع نبضه ، وتدفقت إحساساته فوارة دافقة ، وراح قلبه يدق فى قوة ، واحتشدت فى صدره المشاعر الزاخرة ، وتقضت الساعات وهو يكتب فى حماسة ، كأنما يخشى أن يتخطفه الموت قبل أن ينتهى مما هو فيه .

وفى هجعة الليل ، دقت ساعة الحائط النصف بعد الثانية ، وهو غارق فى عمله ، وأحس كأن مطارق تدق رأسه ، فأسنده إلى ذراعيه ، فراح فى سبات ، وما تسلل أول خيط من خيوط الفجر إلى غرفته حتى هب من نومه ، واستأنف ما كان فيه .

ووافى ميعاد ذهابه إلى الديوان ، فخرج وهو مشغول بقصة حياته ، ومرت الساعات وهى فى تفكير عميق ، حتى إذا ما انتهى من عمله الحكومى ، عاد إلى بيته مسرعا ، ودخل فراشه ليستريح قليلا ، ولكن لم تهدأ له خالجة ، ولم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتزاحم فى رأسه ، والمشاعر تضغط على صدره ، وتلح عليه فى إصرار وعناد ، فلم يجد مفرا من مغادرة فراشه ، والدخول إلى مكتبه ، ليفرج عن أفكاره ، وينفس عن مشاعره التى كانت تضنيه .

وكرت الأيام وهو مسترسل فى الكتابة ، وفى يوم جاءته زوجه وقالت له :

— إنى ذاهبة لأعود أمى .

— ماذا بها ؟

— جاءتنى خادمتها ، وأنبأتنى أنها مريضة .

فقال لها وهو يحدق فى الورق المنشور أمامه :

— تفضلى .

فقالت له فى تحريض :

— هل تأتى معى ؟

وهم بأن يعتذر ، ولكنه لم يشأ أن يغضبها قبل أن يموت ، فقال لها :

— وهل فى ذلك شك .

وراح يرتدى ملابسه ، وخطر له خاطر ، فغمغم : يا للعجب ! ميت يعود مريضا !

وانطلقا حتى إذا دخلا على المريضة ألفيا حجرتها تغص بالزوار ، فاتجها إليها ، وسلما عليها ، ثم قعدا مع القاعدين . وأدار عينيه فى المكان ، فرأى

الحاضرين مطرقين ، فسمع همسا ينبعث من أعماقه يهمس : « لو كانوا يعلمون من أمرى ما أعلم لتركوها والتفوا حولى أنا ، فإنى سأفارقهم إلى الأبد عما قريب ، ليودعونى الوداع الأخير » .

وراحت عجلة الزمن تدور وهو غارق فى الكتابة ، وفى ليلة من الليالى نام مبكرا ليريح ذهنه المكدود ، وراح فى سبات عميق ، وسمع وهو نائم طنينا ، فلم يحفل به ، حسب أنه يحلم ، ثم صك أذنيه بكاء وشهيق ، فهب من نومه مرعوبا مفزوعا ، ووضع يده على قلبه ، ليرى ألا يزال ينبض بالحياة .

وتلفت خافق القلب ، فرأى زوجه تنشج بالبكاء . فقال لها فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

فقالت فى صوت تخنقه العبرات :

— أمى .

— ماذا دهاها ؟

— ماتت .

فأطرق ، وأخذت إحساسات الرهبة والخوف تنقشع عن صدره وانبلجت الحقيقة ناصعة أمام عينيه ، لقد تحقق حلم زوجه ، وذهبت أمها ، ولم يعد هناك ما يخافه أو يخشاه ، فأحس سرورا يغمره ، سرور من أطلق سراحه بعد أن حكم عليه بالموت .

وقبرت حماته ، وعاد إلى داره وهو مفعم بالغبطة ، ودخل مكتبه ، وراح يقرأ فى هدوء ما كتبه من قصة حياته . فعجب . واشتد عجبه ، إنه لم يسبق له أن كتب شيئا ، وما كان يعرف أنه قادر على أن يكتب ذلك الذى يقرؤه الساعة مأخوذا مشغوفا ، كانت الصفحات التى يكتبها زاخرة بالحياة ، إنها ومضات فكر ، ونبضات قلب ، وذوب نفس .

ما كان يعرف أنه أديب ، إن ذلك الحلم الرهيب حرك مشاعره وإحساساته ، وفجر فى صدره ينبوع الفن ، وأضاء فى نفسه الشعلة المقدسة ، وسره أنه وجد نفسه أخيرا ، فاستأنف كتابة قصة حياته وهو نشوان يحس كأنما خلق من جديد .

امرأة أعمال

انطلق يترفق فى سيره حتى بلغ نهاية ترام الجيزة ، ففكر فى أن يقفل عائدا إلى بيته ، فقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء ، ولكن الليلة كانت من ليالى الصيف النادرة التى يستحب السير فيها ، فالنسيم يهب رقيقا ينعش الأفئدة ، وضوء القمر الساحر فرش الأرض ببساط فضى أخاذ ، يستولى على المشاعر ، والهدوء الشامل يريح الأعصاب المكدودة ، فأغراه كل هذا أن يستمر فى سيره ، فلم يشعر إلا وهو فى أول طريق الهرم ، يرنو إلى الأرض الخضراء ، فتشيع فى صدره نشوة خفيفة ، والسيارات الفخمة التى تمر به ، فكان يلتفت إليها لفتة ثم يستأنف سيره .

كان شابا لم يحتفل بعد بعيد ميلاده الثلاثين ، طويل القامة ، ممتلئ الجسم قليلا ، ناصع بياض الوجه ، له عيناه تمتازان ببريق أخاذ ولولا امتلاء جسمه ، واتساع فمه ، لكان من أبطال الروايات الرومانتيكية ، وابتعدت السيارات عنه ، فساد الطريق سكون .. لم يكن يعكره إلا نقيق الضفادع وحفيف الشجر .

وبلغ سمعه صوت سيارة مقبلة ، فانحرف إلى الطوار ، ليفسح لها الطريق ولكنه أحس بها تتمهل ، فالتفت خلفه ، فألفى سيارة صغيرة فخمة تدنو منه ، حتى إذا ما صارت بجواره فتح بابها ، فتطلع داخلها ، فرأى خلف عجلة القيادة فتاة مليحة حلوة ، فخفق قلبه اضطرابا ، واستولت عليه رهبة

وارتباك ، وتسمر فى مكانه لا يدرى ما يفعل ، وفطنت الفتاة إلى ارتباكه ، فأشرق وجهها بابتسامة مطمئنة وقالت :

— تفضل .

وبقى فى اضطرابه ، فلم تهدأ نفسه بعد ، فقد كانت مفاجأة مباغتة ما كان يتوقعها أو يحلم بها ، ولكنه لم أطراف شجاعته التى تناثرت ، واغتصب ابتسامة بدت باهتة لا مدلول لها ، ثم تقدم إلى السيارة وما مد رجله فيها حتى سمعها تهمس :

— نزهة بريئة .

وما أن أغلق باب السيارة خلفه ، حتى انطلقت فى طريقها ، وظل مدة لا يجد لسانه ، ولا يدرى ما يقول . وحدجها بنظرة ، فأذهله حسنها ، وزاد فى اضطرابه ، كانت جميلة رائعة الحسن ، وقد تفننت يد ماهرة فى إبراز ذلك الجمال ، فالظلال الخفيفة التى ظللت بها الجفون زادت فى سحر العيون ، والأحمر الذى وزع فى صفحة الوجه فى دقة ، جعله قطعة رائعة من القطع الفنية الممتازة ، وظل متقبضا فى جلسته ، فرنت إليه بطرف عينيها ، وقالت فى سخرية خفيفة :

— خائف ؟

فقال فى صوت متهدج يبدو فيه الاضطراب :

— من جمالك .

فابتسمت وقالت :

— اقترب وتكلم بحرية .

فاقترب منها قليلا وقد هدأ روعه بعض الشىء ، ووجد لسانه فقال :

— كما يتكلم الرجل إلى الرجل ؟

— لا . لا أقبل هذا .

— ولم ؟

— لا أقبل أن أكون رجلا ، ففي الرجال تردد ، وأنا أمقت التردد ، فلتتكلم بصراحة كما تتكلم امرأة إلى امرأة !

فأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، وخشى أن يفقد لسانه ثانيه ، فقال :

— متزوجة ؟

— ولماذا هذه الإهانة ؟

— إهانة ؟

— أجل ، وهل تراني خاملة ؟! ألا ترى فى صفات ممتازة لا تتوافر فى زوجة ؟!

فابتسم وقال فى خبث :

— بل فيك جميع الصفات التى تبعدك من أن تكونى زوجة .

— إنى أدير أعمالا .

— أى نوع من الأعمال ؟

— توريدات .. عطاءات .. استيراد .. إصدار .. ما بالك مبتعدا هكذا ، اقترب .. يخيل إلى أن ذراعك عاطلة !

فاقترب منها ، ولف ذراعه حولها ، وقال :

— ولكن هذه أعمال صعبة تحتاج إلى خبرة ومؤهلات .

— ما أكثر إهاناتك لى ، ألا تعجبك مؤهلاتى .

— تعجب الباشا ، ولكن كيف بدأت ؟

— حقا ما أصعب البداية ، قرأت عن عطاء فى مصلحة من المصالح ،

فخطر لى أن أجرب حظى .

— تقصدين مؤهلاتك .

— من حسن حظى أن مؤهلاتى ممتازة ، تقدمت فى العطاء .

— ولكن ليس لك الحق فى التقدم فما عندك سجل تجارى .

— تريث فقد وجدت التاجر الذى يمنحنى اسمه وسجله .

— قريب عطف عليك ؟

— لا تذكر العطف من فضلك ، فإنى لا أحب أن يعطف على أحد ، كان رجلا قدر مؤهلاتى .

— ثم ماذا ؟

— كان لا بد أن أزور رئيس اللجنة التى ستبت فى العطاء ، فذهبت إليه وأنا مضطربة بعض الاضطراب ، كما أنت مضطرب الآن .

— ولكنى لست مضطربا .

— إن جميع أفعالك تدل على الاضطراب .. اقترب .. كان الرجل لطيفا . فما فاتحته فى الموضوع حتى وعدنى أنه سيبذل كل ما فى وسعه ، وواعدنى اللقاء لنتناقش فى الموضوع فكان رجلا خبيرا بالأعمال .

— ورسا عليك العطاء .

— ليس بهذه السهولة ، فقد شئت أن أضمن موافقة بقية الأعضاء ، فمررت عليهم ، ورسا على العطاء ، ولكن قامت عقبة .

— إن مؤهلاتك الممتازة تذلل جميع العقبات .

— انتظر ، لم يكن معى المال الذى أشترى به الأصناف التى سأوردها .

— مئون من التجار يعطونك البضاعة على الحساب ، إكراما لمؤهلاتك إلى أن تسدد لك الوزارة قيمة العطاء .

— لن أقص عليك شيئا بعد أن عرفت قيمة مؤهلاتى .

فابتسم وقال :

— بالله قولى .

— لم يبق ما أقوله ، فمؤهلاتى الممتازة فتحت فى وجهى جميع الأبواب .

وكانت السيارة قد ارتقت منحدر الأهرام ، ووقفت عند السفح ، ففتحت السيارة وهبطت ، فأسرع إليها ، ففحصته بنظرة سريعة وهو منتصب أمامها ، وقالت :

— أتقبل أن تعمل سكرتيرا لى ؟

— وما عملى ؟

— إن جميع معاملى مكتبى من الرجال ، فلو أنك عملت بمكتبى لأمكننا أن نجذب بعض النساء .

— قبلت ، وما عنوان المكتب ؟

— تريث ، لن أذكر لك العنوان إلا بعد أن تجتاز الاختبار .

— متى الاختبار ؟

— أنت الآن فى عز الامتحان .

وانطلقا وأقدامها تسوخ فى الرمال ، حتى بلغا مكانا منعزلا وجلسا ، ثم مالت إلى الخلف قليلا ، وقالت :

— اقترب ، مم تخجل ؟ أمن القمر الذى يشرف علينا ، أم من الأربعين قرنا التى تطل علينا من قمة الأهرام ؟

فضحك وقال :

— لقد أصبحت اثنين وأربعين .

وانقضى الوقت وهما لا يشعران ، وتذكر فجأة أنه تأخر عن العودة إلى

البيت ، فقال :

ـــ تأخرنا كثيرا .

فنظرت إليه فى امتعاض وقالت :

ـــ ألك أهل ؟

ـــ وهل هناك من ليس له أهل ؟

ـــ أقصد هل لك أهل يهمهم أمرك ؟

ـــ لى أم وأخوات .

وهبت واقفة ، فنهض وسارا حتى إذا ما وصلا إلى السيارة هم بأن يركب ، فالتفتت إليه وقالت :

ـــ آسفة ، البطارية ضعيفة ، وتحتاج السيارة إلى دفعة ، ادفعها من الخلف .

وركبت وأغلقت أبواب السيارة جيدا ، واستدار ليدفع السيارة من الخلف ، وقبل أن يهم بدفعها سمع المحرك يدور ، وإذا بالسيارة تنطلق كالسهم ، لقد خدعته ، لتتخلص منه ، فوقف يرقبها وقد امتلأ صدره غيظا وحنقا ، وغابت عن عينيه ، فسار مطاطئ الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس إحساس الذل الذى يحسه من رسب فى الامتحان !

قصة حب

جلست مطرقا أفكر ، فشغلت عما حولي بما تزاحم في رأسي من مشاهد ، وعاونني على الاسترسال في تفكيري وجودي في عربة القطار وحدي ، وبقيت سابحا في بحور الخيال ، وقد انتشرت في صدري إحساسات حزينة ، كان قلبي يتجاوب مع أفكاري ، فينقبض وينزف أسى ومرارة .

وأحسست حركة بجواري ، فرفعت رأسي ، فألفيت فتاة طويلة القامة ، متناسقة الجسم ، ناهدة الصدر ، رائعة الحسن ، شعرها كأسلاك الذهب ، ارتدت ثوبا أسود زاد في فتنتها ، فرنوت إليها ، وهي تذرع الممر ، وجسمها يتثنى في روعة ، فأحسست الحزن الذي ران على صدري ينقشع كما ينقشع الظلام إذا بهره الضياء .

ابتعدت عني خطوات ، واستدارت في رشاقة ، فتموج جسمها كما يتموج غصن رطيب داعبه الهواء ، وأقبل عليها خادم القطار ، وتناول تذكرتها ، ثم سار أمامها ، وأشار إلى المقعد المقابل لمقعدي ، فانشرح صدري ، فستجلس أمامي أتملى من حسنها سبع ساعات .

وضعت حقيبتها ثم قعدت ، وتحرك القطار مغادرا أمستردام ، وما انساب مخلفا المدينة خلفه ، حتى نهضت بقامتها الفارعة المتناسقة ، وأخذت تحاول أن تفتح الشباك ، فقلت لها بالفرنسية :

ـــ إنه ثابت .

فقالت فى صوت رقيق :

— متشكرة .

وقعدت وأنا أنظر إلى وجهها فى إعجاب ، كانت عيناها غريبتين . وخيل إلىّ أنهما فى زرقة البحر ، ولكن سرعان ما تبدل لونهما فكانتا فى لون البنفسج ، ثم تبدل لونهما مرة أخرى ، فكانتا فى لون الفيروزج ، أو كأنما كانتا بلورتين يرى فيهما ألوان الطيف ، أو عينى هرة لا يثبت لهما لون .

وفطنت إلى أنني أرمقها فى إعجاب ، ولعل وجهى فضح سرى ، فقالت بالإنجليزية فى بساطة :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

فقلت وقد انفرجت شفتاى عن ابتسامة هادئة :

— عيناك !

— ماذا بهما ؟

— سحر .

فتوجت شفتيها ابتسامة رقيقة ، وقالت :

— من أين أنت ؟

— من مصر .

فشردت ببصرها وقالت :

— بلاد السحر والأسرار .

فقلت فى انشراح :

— وأين سحرها من سحر عينيك .

فانبسطت أساريرها . وبرقت عيناها ، ولاح عليها الانشراح ، ورأيت أن يظل حبل الحديث بيننا موصولا ، فقلت لها فى تساؤل :

— باريسية ؟

فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها :

ـــ ما الذى جعلك تحسبنى باريسية ؟ آه .. مشيتى من غير شك . حسبنى كثير من الناس باريسية بسبب مشيتى .. إننى لا أحب أن أكون باريسية .. إننى هولندية .

ـــ من أمستردام ؟

ـــ من هارلم .

ـــ مدينة الأزهار ! إنك أروع زهرة فيها بلا جدال .

فتهلل وجهها فى براءة ، وقالت وهى ترنو إلى بعينيها الساحرتين :

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

أحسست سحابة الكدر تعود لتنتشر فى صدرى ، وقلت فى صوت فيه رنة أسى :

ـــ جئت لزيارة صديقة .

فقالت وهى تنظر إلى ، وعلى شفتيها ابتسامة :

ـــ لعلك وجدت فى زيارتها سعادة لقلبك .

فقلت فى سخرية :

ـــ وجدت إحدى الراحتين .

ـــ ماذا وجدت ؟

ـــ اليأس المرير .

ـــ لماذا ؟

ـــ خطبت ، فانقطع بذلك كل ما كان بيننا .

وسكت ، فساد الصمت بيننا ، ونظرت من خلل النافذة المجاورة ، فرأيت المزارع النضرة مترامية على مدى البصر ، وطواحين الهواء متناثرة هنا

وهناك ، لا يشوه ذلك الجمال إلا آثار الدمار الذى خلفه الألمان ، و لم أنتبه لنفسى إلا على صوتها ، وهى تقول :

— فيم تفكر ؟

— فيك !

فقالت فى صوت نم عن غيرة :

— بل فيها .

— انتهى كل شىء بيننا ، وما كنت ممن يجرون وراء الأوهام .

— هذا كلام عقلك ، فما رأى قلبك ؟

— فقد هولندية ، فعوضه الله خيرا منها .

— مجاملة ولا مراء .

— بل الحق الصراح .

ورفت على شفتيها ابتسامة ، والتمعت عيناها العجيبتان ببريق خاطف ، وقلت لها فى اهتمام .

— إلى أين أنت ذاهبة ؟

— إلى بروكسل .

— وماذا تفعلين هناك ؟

— دعانى عمى لتمضية بضعة أيام .

— وأين تنزلين ؟

— فندق سيرو ، عمى ينتظرنى هناك .

— يا لحسن حظى ، السماء راضية عنى اليوم .

— لماذا ؟

— ستنزلين نفس الفندق الذى أنزل فيه .

ورحنا أنا ومرجريتا نتجاذب أطراف الحديث ، وراح كل منا يقص نتفا من حياته حتى بلغنا بروكسل ، فحملت عنها حقيبتها . ثم ركبنا سيارة انطلقت بنا إلى فندق سيرو . كانت الغبطة تملأ جوانحى ، فقد كانت مرجريتا تختلف عمن قابلت فى طرقات لندن وباريس ، إنها فتاة مثقفة ، حصلت على أكثر من شهادة ، فى اكثر من فرع من فروع التخصص .

وبلغنا الفندق ، فهبطنا من السيارة ، ثم دلفنا إلى الردهة الواسعة ، ووقفت مرجريتا تقلب عينيها فى أرجاء المكان ، وغمغمت :

ـــ لم يأت بعد .

فقلت لها :

ـــ تعالى معى .

وانطلقنا حتى إذا بلغنا حجرتى ، فتحت الباب ودخلت ، ثم قلت لها :

ـــ تفضلى .

تضرجت وجنتاها بلون الدم ، وقالت فى انفعال :

ـــ ماذا تظننى ؟! أتحسبنى باريسية ؟

فقلت ببرود :

ـــ أعرف أنك هولندية .

فقالت وهى ثائرة :

ـــ ما كان لهولندية تحترم نفسها أن تدخل غرفة رجل غريب .

فقلت فى عدم اكتراث :

ـــ دعوتك مجاملة ، لا بأس من أن تنتظرى عندك حتى أصلح ما أفسده السفر .

وتركتها عند الباب ، وأخذت أمشط شعرى ، وأصلح هندامى ، ثم

خرجت إليها ، وهبطنا إلى الردهة ، وقعدنا نرصد قدوم عمها .

ومرت لحظات وهى تقلب عينيها فى الوافدين ، ثم انبسطت أساريرها ، ونهضت خفيفة وهى تغمغم :

— عمى .. جاء عمى .

وتقدم الرجل منها ، وصافحها وهو يلاطفها ، ونظر إلى . فقدمتنى إليه ، ورأيت أن أنسحب ، فاستأذنت .

ودخلت غرفتى ، وأغلقت بابى خلفى ، وتمددت فى فراشى ، فاحتلت مرجريتا ذهنى ، وراح خيالى يحضرها بقامتها الطويلة المتناسقة ، وهى تتثنى فى مشيتها ، فتدب النشوة فى بدنى . ولججت فى تصوراتى ، وأنا لا أحس مرور الزمن ، حتى سمعت رنين التليفون ، فانتبهت من أحلام يقظتى ، ورفعت السماعة ، ووضعتها على أذنى ، فخفق قلبى ، كان صوت مرجريتا العذب ينسكب فى أذنى ، فيوقظ مشاعرى ، ويرهف حواسى .

راحت تسألنى عن حالى ، كأنما لم نفترق من لحظات ، وأحسست رغبة فى لقائها ، فقلت لها :

— تعالى نتغدى معا .

— دعانى عمى للغداء .

فقلت فى إصرار :

— وأنا أدعوك للعشاء .

وأقبلت فى المساء ، بقامتها الفارعة الرائعة ، فانطلقنا معا نتجاذب أحاديث شهية ، ودلفنا إلى مطعم من المطاعم ، وجىء بالطعام ، فأخذنا فى تناوله والعيون تتحدث ، والقلوب تخفق لحديث العيون ، وغادرنا المكان لنجوس خلال المدينة ، فرحنا نضرب على غير هدى ، وما رأينا من المدينة إلا أنوارا

تتلألأ ، وأناسا يمرون بنا مرور الأطياف ، فقد كنا غارقين فى حديثنا ، وكان ألذ ما فى الوجود .

وتصرم الوقت ، ورأينا أن نعود إلى الفندق ، بعد أن اتفقنا على أن نتقابل فى الصباح ، للذهاب لزيارة معالم بروكسل وآثارها . وانطلقنا حتى بلغنا الفندق ، فدخلنا وأنا مفعم بالنشوة ، وما إن بلغنا حجرتى حتى فتحت بابها ، وقلت لها وأنا أبتسم :

ـــ لا تتفضلى .

فأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وذهبت إلى حجرتها .

واندسست فى فراشى ، وقد احتل طيف مارجريتا أقطار رأسى ، وطاف النوم بى ، فرحت فى سبات ، حتى إذا أصبح الصباح ، رن جرس التليفون ، فتناولته ، فألفيت مرجريتا تدعونى للخروج ، فقمت منشرحا أرتدى ثيابى ، وما انقضت دقائق حتى سمعت طرقا خفيفا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدتها فى ثوب بديع من ثياب الصباح ، فحييتها وتركتها عند الباب ، دون أن أدعوها للدخول ، وذهبت أكمل ارتداء ملابسى .

وخرجنا معا ، وفيما نحن سائران وقعت عيناى على محل يبيع الثياب ، فيممنا شطره ، وأخذت أشترى بعض حاجات لى . ثم قدمت إليها جوربا من « النيلون » ، فاربد وجهها ، وضاقت عيناها الساحرتان ، وقالت فى غضب :

ـــ إذا لم تقلع عن هذا الأسلوب ، غادرتك فى الحال .

ـــ هدية متواضعة .

فقالت فى حدة :

ـــ لا .

فهززت كتفى ، وتركت الجورب ، وخرجنا نستأنف ما كنا فيه من حديث .

ومرت الأيام ونحن لا نفترق ، نتقابل فى الصباح ، ونتقابل فى المساء ، ونعود إلى الفندق فى هجمة الليل والناس نيام . واستيقظت فى جوفى مشاعر الحب الجبار ، فكرت أكثر من مرة فى أن أطوقها بذراعى ، وأضمها إلى صدرى ، لأطفئ لهيب النار الذى يحرق كبدى ، ولكنى كنت أحجم ، وأكبت مشاعرى . وكنا نمر على حجرتى فى كل ليلة ، فأحييها تحية المساء ، وألج باب حجرتى ، دون أن أدعوها للدخول .

وفى ليلة من الليالى قلت لها ونحن نلج باب الفندق :

— سأغادر بروكسل بعد أربعة أيام .

ونظرت إليها ، فخيل إلى أن وجهها قد اكفهر ، وهمست فى نبرات خافتة حزينة ، عبثت بأوتار قلبى :

— هكذا سريعا !

— سأذهب إلى باريس ، ومنها إلى القاهرة .

وساد صمت بغيض ، ثم قالت :

— ألا تؤجل سفرك ؟

— لا أستطيع .

وعاد الصمت ثانية ، وانطلقنا مطرقين دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، حتى إذا بلغنا باب حجرتى ، رفعت رأسى لتحيتها ، فهالنى ذلك العبوس الذى ران على الوجه الجميل ، وحز فى نفسى ، فأحسست بأن إبرا تخز روحى ، وهممت بأن أضمها إلى ، ولكنى كبحت جماح نفسى ، وألقيت عليها تحية المساء ، ودخلت غرفتى ، وفى قلبى شجن .

ارتميت فى فراشى ، وقد تآمرت على حواسى ، كان فكرى يفكر فيها ، وقلبى يخفق لطيفها ، وكبدى تهفو إليها ، وكل جارحة من جوارحى تحن إليها وتشتهيها ، وبقيت فريسة لأفكارى تعذبنى وتضنينى ، وفى ذلك الهدوء الذى هيج مشاعرى ، رن التليفون ، فهرعت إليه ، فإذا بها تقول فى صوت متهدج هز كيانى :

— حسين ، نمت ؟

— لا يا مرجى ، لم يطف النوم بعينى .

— وأنا لا أستطيع النوم ، انتابتنى وساوس وأفكار .

وكدت أضعف وأبثها وجدى ، وأشكو إليها كربى ، ولكننى كبحت جماح نفسى ، وقلت لها وأنا أكافح ما بى ، وأغالب قلبى :

— نامى يا مارجى ، وأتمنى لك أسعد الأوقات .

وأغمضت عينى ، ولكن النوم نأى عنى ، واستيقظت مشاعرى ، وراحت الخواطر التى تدور حول الاعتراف لها بحبى تتولد فى رأسى ، وتنمو وتشتد ، وقلبى يغذيها بالإحساسات التى تتدفق منه حارة فوارة ، حتى أحسست خورا يدب فى عزيمتى ، ودموعا تبلل مقلتى . وبينا أنا فريسة لأفكارى سمعت طرقا على الباب ، فنهضت مسرعا وفتحته ، فوجدت مرجريت واقفة وفى وجهها عبوس ، وفى عينيها دموع ، فتطلعت إليها مشدوها ، وهى تدخل لأول مرة إلى حجرتى ، ودموعها تجرى على خديها ، وارتمت على مقعد قريب من فراشى ، فدنوت منها . وقلت لها فى صوت أشبه بالصوت المنبعث من خشب يتكسر :

— ماذا يا مرجى ؟

— لا تتركنى ، خذنى معك ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .



وانهمرت دموعها ، فضممتها إلى صدرى ، ورحت أغمغم فى وله :

— مارجى .. مارجى .

فقالت فى توسل والعبرات تخنقها :

— لا تتركنى . لا تتركنى ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .

— هذا فوق مقدورنا .

— ولن أدعك تسافر وحدك .

— مرجى !

— لن أكون عبئا عليك ، إنى أستطيع أن أعمل .

فقلت لها لاهدئ من انفعالها :

— غدا يا مارجى نتحدث فى هذا الأمر .

— كل ما أريده أن أكون بقربك .

وظلت مارجى تسح الدموع ، وأنا أهدئ من روعها ، والنار تشوى جوفى والغصة تحتل حلقى ، وتقضت ساعات ونحن نقاسى ثورة مشاعرنا الطاغية ، ثم انسلت إلى حجرتها وفى وجهها أسى ودموع .

وأسفر الصبح ، ودق التليفون ، فتناولته فإذا بمارجى تسألنى أن أتأهب للخروج ، ثم مرت على وخرجنا واجمين ، كان كل منا مشغولا بأفكاره ، وانطلقنا حتى إذا بلغنا حديقة قريبة من الفندق دلفنا إليها ، وقعدنا على مقعد ، ونحن صامتان .

والتفتت إلى بعينيها العجيبتين اللتين بدا فيهما آثار البكاء ، وقالت فى صوت حزين :

— لا أدرى كيف أدعك تسافر وتتركنى !

— لو كان الأمر بيدى ما تركتك .

— وماذا يحول بيني وبين أن أسافر معك ؟

— لابد من اتخاذ إجراءات طويلة قبل دخولك مصر .

— إني أستطيع أن أمارس التمريض ، وقد حصلت على شهادة عالية فى التدليك ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، إنني مطلوبة فى لندن وإندونيسيا .

— سأذلل عقب عودتى إلى مصر العقبات التى تعترض ذهابك إليها ، ثم أستدعيك .

فقالت فى صوت متهدج :

— لن أكون عبئا عليك ، كل ما أرجوه أن أعيش حيث تعيش . وخفق قلبي ، ولو طاوعته لقلت لها : لن أدعك لحظة واحدة ، ولكن ما معى من مال كان قد تبخر ، وهو كل ما أملك ، وما كنت أحب أن أصحبها معى إلى مصر ، وأنا خالى الوفاض ، ولو كنت أملك مالا لحملتها معى إلى مصر ، لأريح الفؤاد العاشق الولهان .

وجاء الليل ، وخرجنا معا ، ولكن مارجى لم تكن فى هدوء الصباح ، عادت تتوسل إلى أن آخذها معى ، والدموع تترقرق فى عينيها ، وخشيت أن تنفجر بالبكاء فى الطريق ، فأشرت عليها أن نعود إلى الفندق ، فوافقت ، وعدنا من حيث جئنا ، ودخلنا غرفتي والأسى يلوح فى وجهينا .

واستسلمت مارجى للبكاء ، فآلمتنى دموعها ، وحزت فى روحى ، ولم أطق أن أراها فى نشيجها ، فذهبت إليها ، وضممتها إلى صدرى . وأخذت أغمغم فى توسل :

— كفى .. كفى أرجوك .

فهمست وقد خنقتها عبراتها :

— ليتنا لم نتقابل ، ليت عينى لم تقعا عليك .

فقلت لها فى عتاب :

— أحاقدة على يا مارجى ؟!

فقالت وهى ترنو إلى فى وجد :

— أبدا .

وصمتت قليلا ، ثم أردفت فى وجد :

— إننى لست كالفتيات اللاتى قابلتهن فى طرقات لندن وأمستردام وباريس ، إننى مخطوبة ، وخطيبى من خيرة شباب هارلم ، وها أنا ذى أعرض عليك أن تأخذنى معك ، فتفر منى.لقد انتهيت .. انتهى كل ما كان بينى وبين خطيبى ، ولن أعود إليه .

فقلت لها فى حرارة :

— أقسم لك يا مارجى أنى سأبعث إليك ، حينما أذلل الصعاب التى تعترض قدومك إلى مصر ، لنعيش سعيدين .

فقالت وقد شردت ببصرها :

— لكأنما ذلك حلم من الأحلام .

ووافت الليلة الفاصلة ، آخر ليلة أقضيها فى فندق سيرو قبل ذهابى إلى باريس ، فى طريقى إلى مصر ، لم نغادر الفندق ، بل تلاقينا فى حجرتى للوداع ، كانت مارجريتا شاحبة اللون ، عابسة الوجه ، ظللنا نتبادل النظرات ، ونحن صامتان ، وإن كانت مشاعرنا تمور فى صدرينا ثائرة دافقة ، وفتحت حقيبتها ، وأخرجت منها قداحة ، وقدمتها إلى وهى تقول :

— ليس معى غيرها ، خذها لتذكرنى بها .

تناولت القداحة خافق القلب ، ثم نهضت واتجهت إليها ، وألبستها عقدا وقرطا كنت قد اشتريتهما لها ، وكنت أرقب الفرصة المناسبة،لأقدمهما لها

دون أن أغضبها ، فأخذت تتحسس العقد بيدها ، ثم قامت إلى المرآة ، ونظرت إلى صورتها ، وملأت الدموع مقلتيها .

وأصبح الصباح ، فهبطنا إلى قاعة الفندق ، وأنا منقبض النفس ، تكاد دموعى تفر من عينى ، وانطلقنا إلى المحطة ، وحان أوان الوداع لما دق الجرس مؤذنا بتحرك القطار ، فامتزجنا فى عناقنا كأنما نتزود لدهر لا ندرى مداه ، وتحرك القطار وهى متشبثة بعنقى ، تتحرك معه ، ثم ارتخت ذراعاها شيئا فشيئا ، ووقفت ترنو إلى من خلال دموعها التى ملأت عينيها الحبيبتين .

وراح القطار ينهب الفضاء ، وبقيت فى مقعدى مطرقا ، كنت نهبا لأفكارى السود ؛ ساءنى أننى خلفت حبى ، ومزقت قلبى ، كانت مارجريتا بهجة نفسى ، تملأ دنياى حياة ، فإذا بها تصبح طيفا يزورنى ، وذكرى تحرك الأشجان .

وهبطت باريس ، وفى القلب لوعة ، وفى الرأس أفكار ، فشغلت بنفسى عما حولى ، وانطلقت إلى فندق من فنادقها الغاصة بالحسان ، ولكننى انزويت فى حجرتى ، ترافقنى عينا مارجريتا الساحرتان الآسرتان . وأحسست حنينا عجيبا إليها ، فبعثت أدعوها لتقبل إلى باريس ، وألحفت فى الرجاء ، ولكنها كتبت إلى تقول إنها عائدة إلى هارلم .

وعدت إلى مصر مجروح الفؤاد ، وما إن دخلت دارى حتى بعثت إليها برسالة حارة أبثها فيها لواعج نفسى ، واشتياق القلب الولهان ، ثم أنبأتها أننى سأبذل كل ما فى طوقى لتذليل ما يعترض قدومها من عقبات ، ومرت أيام وأسابيع ولم أفعل فى مسألة قدومها شيئا ، ولم أكن صادقا عندما أخبرتها أنى سأعمل على تذليل الصعاب ، كنت خالى الوفاض ، لا أملك مالا ، وما كنت أقبل أن تقدم مارجى لتعمل وتكدح ، إننى أريدها على طريقتنا الشرقية ، أن

أكون السيد الذى يبذل كل شىء ، لا الصديق الذى ينعم بالحب ، ثم يلقى بالعبء كله على حبيبة الفؤاد !

وجاءتنى منها رسالة ، تخبرنى فيها أنها فسخت خطبتها دون أن يدرى أحد فى هارلم سبب ذلك ، وراحت تقص على فى أسلوب نابض ما تقاسى من وجد ، وتقول لى إنها ترقب فى لهفة رسالتى التى تحمل إليها بشرى تذليل ما يعترض سبيل قدومها إلى مصر ، لتعيش بقربى ، وتنعم بحبى .

مست رسالتها أوتار قلبى ، وكدت أضعف وأبعث إليها أن تقدم لتطفئ النار المتأججة بين الضلوع ، ولكنى ملكت نفسى ، وكتبت إليها بأن الظروف لم تسمح باستدعائها بعد . والتمست منها أن تتريث وتعتصم بالصبر . ومرت أيام وأنا أروض نفسى على احتمال ما أقاسى من وجد ، وفى صباح يوم أقبل ساعى البريد ، وسلمنى رسالة منها ، ففضضتها خافق القلب ، وجعلت أقرؤها فى لهفة ، فألفيتها صاخبة ، ثم ما لبثت ثورتها أن هدأت وهدأت ، حتى انقلبت إلى استعطاف ، قالت فى غضب إنها كانت تنتظر منى تلك المراوغة قبل أن تصل إليها رسالتى ، وإنها تعلم أننى أحاول الفرار منها ، وإن هذا لا يهمها فإنها لم تحبنى يوما ، ثم لانت حدتها ، وقالت إنها لن تمكث فى هولندا ، لقد بيتت العزم على مغادرتها ، فلندن تطلبها وأندونيسيا فى حاجة إليها ، إنها سترحل ما فى ذلك شك ، ولكنها تفضل أن ترحل إلى مصر ، إلى البلد الذى أعيش فيه ، لتكون بقربى وهذا كل ماترجوه فى الحياة .

جلست لأكتب إليها ، ولكن ساءنى أن أعتذر مرة أخرى ، فمزقت الرسالة فى غضب ، ثم قر رأيى ألا أكتب إليها إلا إذا ادخرت مبلغا من المال ، هذا هو الرأى ، ولن أجرى بعد اليوم فى أثر سراب .

وأخذت أعمل ، وأواصل الليل بالنهار ، وطيف مارجريتا يؤنسنى ، ويشد من أزرى وهممت أكثر من مرة بأن أكتب إليها أستدعيها ، فقد لاح

لعيني تباشير النجاح .

وجمعت مالا ، وطابت نفسي ، ولكن لم تكتمل سعادتي ، فقد راح قلبي يحرضني على استدعاء مارجي ، وأرسلت إليها رسالة ، وأخذت أنتظر ردها في تشوق واهتمام .

وبقيت أرصد رسالتها قلقا ، وكنت أعجب لذلك القلق الذي يلفني ، ومرت أسابيع ، ولم يرد منها شيء ، فزاد قلقي ، واستولت علي رهبة ، ولكن لم أقطع حبل الأمل ، وبت أعيش على بصيص خافت من الرجاء كان يمده بالنور قلبي العاشق المتلهف على اللقاء .

ومر شهر وشهر ، فانطفأ ذلك البصيص ، ولفني حزن ، وأصبحت حليف الانقباض ، وفي ذلك الظلام الثقيل ، برق في ذهني خاطر استراحت له نفسي ، إنها رحلت قبل أن تبلغها رسالتي ، إنها لا تزال تحبني ، فإن كانت قرأت ما سطرته بذوب نفسي ، لجاءت على جناح الحب تطير ، واطمأننت إلى ذلك الخاطر ، ولكن عز على أن أحيا على خاطر لطيف ، فقد راحت نفسي توسوس لي أنها تلقت رسالتي بعد أن مسحت يد النسيان من قلبها حبي ، واستبد شيطاني بي ، حتى صدقت وسوسته ؛ فعدت إلى سجن نفسي ، حزينا يائسا مهموما ، لأعيش ما بقي من عمري في ظلام دامس بغيض .

رجل وامرأة

هبط من القطار ساهما ، وسار بقامته الطويلة يحمل حقيبة كبيرة وقد دثرته رهبة خفيفة ، كان يحس إحساسات الغريب الذى يهبط بلدا لأول مرة ، وخرج من المحطة ، ووقف على الطوار يتلفت فى حيرة لا يدرى إلى أين يذهب ، ورفع رأسه إلى السماء ، فألفاها ملبدة بالغيوم قاتمة ، وتلفت حوله فوجد المكان موحشا كأنما استعار وحشته من نفسه ، فوضع الحقيبة على الأرض ، وجعل يفكر فى أمره .

إنه موظف نقل إلى هذه المدينة الساحلية من مدن القطر ، وما رآها من قبل يومه ، وما كانت هذه المدينة الوحيدة التى لم يرها من قبل ، فما كان يعرف غير القاهرة ، إنه لم يغادر أهله ، عاش عمره فى دار أبويه ، لا يعرف ارتحالا ، حتى عطلاته الصيفية ، كان يمضيها بين ملاعب الكرة ودور السينما ، فإذا جن الليل عاد إلى البيت ، وأوى إلى فراشه منعما سعيدا .

أكمل دراسته الفنية ، وأصبح مدرسا فى مدارس الحكومة ، وسعى أبوه سعيا حثيثا ليلحقه بمدرسة من مدارس القاهرة ، ونجح فى سعيه ، ولكن ما كان ذلك ليدوم ، كان عليه أن يرتحل كما يرتحل زملاؤه ، وأن يطوف بمدارس القطر ، حتى يقضى المدة المقررة لكل مدرس بعيدا عن العاصمة .

وجاء يوم رحيله ، فأحس غصة لفراق أمه ، وأطرق يفكر مهموما ، فتراءى له سفره بغيضا محفوفا بالصعاب ، أخذ يقلقه أمر ليله ، فما كان

يعرف كيف يمضيه بعيدا عن أمه ، أين يبيت ؟ ومن ذا الذى يجهز له طعامه ، ويعنى بفراشه ، ويرعى شئونه ، وهو الذى ما كان يفكر فى شيء من أمره .

ومرت به عربة ، فأفاق من تفكيره ، وخطر له أن يندس فيها ويلتمس من الحوذى أن يطوف به المدينة ، ولكنه عاد ووجد من الأوفق أن يجوس خلالها سعيا على قدميه ، حتى يهتدى إلى مكان يؤديه ، وانساب فى شوارع المدينة ، وراحت عيناه تنتقلان فى سرعة بين اللافتات المثبتة فى واجهات الدور ، كان ينقب عن نزل يهبط فيه ، وصفرت الريح ، وزمجرت السماء ، ثم هطلت الأمطار ، فدار بعينيه فى المكان ، فألفى مطعما صغيرا على قيد خطوات ، فرأى أن يتجه إليه ، وأن يحتمي به ، وأن يتناول طعاما آخر .

ذهب إلى المطعم ، وجلس إلى خوان قريب من الطريق . وطفق يرصد الماء المنهمر فى غزارة ، فخيل إليه أنه يغسل صدره ، ويزيل تلك الكآبة التى رانت عليه طوال سفره . وأحس تلك اللحظة كأنما فصل من ماضيه ، وخلق خلقا جديدا .

وأقبل الخادم ، ووقف أمامه فى احترام ، ينتظر أوامره ، فشخص ببصره يفكر ، وتذكر أنه فى بلد اشتهر بالسمك . فطلب سمكا ، ثم عاد يرقب الطريق الذى أصبح كمرآة متكسرة . تنعكس على جنباتها صور الدور والمركبات والمارة متراقصة مترنحة .

ووضع الطعام أمامه . فأخذ يتناوله فى شهوة ، كان لذيذا . وما كان يحسب أنه يستطيع أن يهنأ بطعام لم تصنعه أمه ، فقد ألقت فى روعه أن طهوها لا يعدله طهو ، وأن من يسعده حظه بأن يطعم من صنع يديها لن يسيغ طعاما آخر .

ونادى الخادم ، وأعطاه ثمن طعامه ، ثم نفحه بضعة قروش .. كان قد عزم

على أن يستعين به ، ليهديه إلى مكان ينزل فيه ، وما استقرت القروش فى يد الرجل حتى انبسطت أساريره ، فالتفت إلى الشاب وقال :

— أتريد فندقا كبيرا ؟

— لا .. أريد مسكنا هادئا .

— إذن انزل عند ماريا .

فحدجه الشاب بنظرة المستفهم ، فقال الرجل وهو يشير بأصبعه إلى بيت من طبقتين أمام المطعم :

— هذا بيت ماريا .

والتفت الشاب إلى البيت ، فألفاه قد بنى على الطراز الإنجليزى ، تحيط به حديقة صغيرة يطل على البحر الذى تلاطمت أمواجه فى ثورة وغضب ، وأعجبه البيت ، وبقى يتطلع إليه والرجل يقول :

— إنه يموج بالناس فى الصيف ، أما فى الشتاء فهو هادئ ساكن ، لا يسمع فيه صوت ..

وصمت الخادم قليلا ، ثم قال :

— لا يقطن عندها الآن إلا شيخ كبير .

فغمغم الشاب فى ارتياح :

— هذا جميل ، سأمضى الشتاء هنا ، وأعود فى الصيف إلىَ أهلى .

وقام وحمل حقيبته ، وانطلق إلى بيت ماريا والمطر ينهمر . وما إن دنا منه حتى أرهفت مشاعره ، وشاعت فى صدره تلك الرهبة التى تنتشر فى الصدور عند الإقدام على مجهول ، ووقف أمام الباب لحظة يستجمع قواه ، ثم مد يده وضغط زر الجرس ، فرن رنينا عاليا ، كان له تجاوب فى قلبه ، وفتح الباب ، وظهرت خادم عجوز ، وراحت تنظر إليه فى هدوء ، فلما رأت فى يده

حقيبة ، فسحت له الطريق ، ولكنه لم يدخل ، بل قال فى صوت خافت مرتعش :

— أريد حجرة ..

— تفضل .

وسارت وهو خلفها ، وصعد بضع درجات ، ثم ألفى نفسه فى حجرة فسيحة ، رصت فيها مقاعد وثيرة ، وأشارت إلى مقعد قريب كبير ، وقالت له :

— تفضل حتى أدعولك ماريا .

وضع حقيبته وجلس ، واستيقظت حواسه ، فراح يتلفت فى قلق ، ويعبث بأصابعه فى مسند المقعد الكبير ، ثم يرفع يده ويتحسس رباط رقبته ، وسرعان ما يدس يده فى جيبه ويخرج منديله ، ليجفف قطرات العرق المنبثقة من جبينه ، فى ذلك اليوم الذى اشتدت ريحه وهطلت أمطاره !

وتصرمت دقائق خالها ساعات ، ثم أقبلت امرأة فى الثلاثين ، ناصعة البياض ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، يشع منهما بريق جذاب ، وما أن لمحها قادمة نحوه ، حتى نهض بقامته الطويلة فى ارتباك ، ولفه اضطراب ، ووقع بصره على صدرها الناهد وقوامها الممشوق ، فغض من بصره حياء ، وظل فى إطراقته القلقة ، حتى مس أذنيه صوتها الرقيق وهى تلقى عليه تحية المساء ، فرد عليها تحيتها فى صوت متهدج ، وساد السكون برهة ، ثم قال :

— أريد حجرة .

فقالت مستفسرة فى رطانة لطيفة :

— لأيام ؟

— لشهور طويلة .

ونظر إليها ، فلمح فى عينيها الزرقاوين الواسعتين تساؤلا ، فقال :

— سأمضى هنا شهور السنة جميعا إلا الصيف .

فابتسمت وقالت :

— إلا الصيف ، ستكون ضيفا عزيزا .

ورنت إليه فاحصة ، فأحست راحة . كان شابا طويلا ، أسمر اللون ، متناسب القسمات ، أسود العينين ، فاحم الشعر ، عريض المنكبين ، من ذلك الطراز الفخم ، الذى تهفو إليه قلوب النساء . واتفقا على الأجر سريعا ، فما كانت ماريا تطمع فى أن يفد إليها ضيف فى غير أيام الصيف ، ونادت الخادم العجوز ، وأمرتها أن تحمل الحقيبة ! وسارت ماريا تهديه السبيل .

خرجا من غرفة استقبال إلى ردهة طويلة ، وسارا حتى بلغا درجا من الخشب ، فراحت تصعد فيه فى رشاقة ، كانت موفورة النشاط ، نابضة بالحياة ، وصعد فى أثرها ، فوقع نظره على مفاتن جسمها ، ورأى ساقيها المصقولتين اللتين بدتا كأنهما خرطتا من مرمر ، فاضطرب وغض من بصره خجلا وحياء ، وبلغا بهوا فسيحا به بعض النضد والمقاعد وأبواب غرف النوم ، وباب من زجاج يوصل إلى شرفة تطل على البحر ، واتجهت ماريا إلى غرفة من الغرف ، وفتحت بابها ، والتفتت إليه ، وقالت :

— تفضل .

ودخل وقلب ناظريه فى الغرفة ، فوجد سريرا وصوان ملابس ومشجبا ونضدا ومقعدا ، كانت غرفة لطيفة نظيفة ، وسمع ماريا تقول :

— أعجبتك ؟

فقال فى صوت خافت :

— بديعة .

وقالت ماريا وهي تغلق الباب وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :
— إذا احتجت إلى شيء فأنا فى خدمتك !
فقال فى ارتباك وقد تدفق الدم إلى وجهه :
— متشكر .

وخلع ثيابه ، وشعر بأنه فى حاجة إلى حمام ساخن ، ولكنه خجل من أن يلتمس من ماريا أن تعد له الحمام ، فذهب إلى دورة المياه ، وغسل رأسه ووجهه وقدميه ، ثم عاد إلى غرفته . وتمدد فى فراشه ، وأسبل جفنيه ، وراح يفكر وهو بين النائم واليقظان .

سرى إلى سمعه خرير الأمواج ، وزفزفة الرياح ، فخيل إليه أنه يصغى إلى لحن سماوى أخاذ ، فصفت نفسه ، وانتشت روحه ، وأقلعت عن صدره تلك الرهبة التى أقلقته ، وجسمت لخياله ما ينتظره من صعاب ، وفكر فى أمره ، فحمد الظروف التى ساقته إلى بيت ماريا ، وتمنى أن تكون مدرسته قريبة من الحى الذى نزل به ، حتى لا يقاسى قسوة المواصلات .

وطاف به ملاك النوم ، وأسبل عليه جناحه ، فنام ملء جفنيه ، وانقضى الليل ، وتسلل أول خيط من خيوط النهار إلى غرفته ، فنهض من فراشه وغادر حجرته ، وما أن خطا فى البهو خطوات ، حتى رأى ماريا فى قميص وردى ، يفضح جمال تكوينها ، كانت ذراعاها البضتان عاريتين ، وصدرها شامخا فى رعونة ، وشعرها الذهبى متهدلا خلفها فى روعة ، وعيناها تنفثان سحرا ، ولما وقع بصره عليها ارتبك ، وحياها بإيماءة خفيفة ، وذهب يتعثر فى خجله .

وارتدى ثيابه ، وخرج يبحث عن مدرسته ، وكم كان سروره عظيما لما ألفاها فى نفس المنطقة التى يقع فيها بيت ماريا ، فأحس رضا ، ووجد فى ذلك

فألا حسنا ، فذلك التوفيق الذى صادفه فى مستهل حياته الجديدة ، يشير بأنه سيمضى فى هذه المدينة أياما سعيدة هنية .

وراح يطوف بأرجاء المدينة ، حتى إذا انتصف النهار ، ووافى ميعاد الغداء ، قفل عائدا إلى الدار ، فقابلته ماريا فى بشاشة ، وقالت له :

ـــ آن أوان الطعام .

فاتجه إلى غرفة السفرة ، وجلس صامتا ، وأخذت ماريا تغدو وتروح ، تعد له غداءه بنفسها ، وانتهت من تجهيز كل شىء ، ووقفت أمامه برهة ترنو إليه .. كانت ترجو أن يدعوها لتناول الغداء معه ، وكانت قد وطنت النفس على أن تلبى دعوته . ولكنه أخذ يلتهم ما أمامه ، ولم ينبس بكلمة ، فانسلت إلى غرفة أخرى وقد سرى فى نفسها تبرم وضيق .

وانتهى من غدائه ، وكان لذيذا دسما ، فنهض ليذهب إليها يمتدح طعامها ، ويشكرها على عنايتها به ، ولكن ما إن دنا منها حتى عقد لسانه ، وغلب على أمره ، فانسل من جوارها صامتا ، واتجه إلى السلم الخشبى ، وراح يرقاه ليدخل غرفته ، ويغلق عليه بابها .

وتصرم النهار ، ووفد الليل بهدوئه وشاعريته ، وفتح باب غرفة ماريا ، وخرجت فى ثوب أزرق فاتن ، يكشف عن صدرها البلورى ، وعنقها العاجى ، وجيدها الأتلع ، كانت قد صففت شعرها الذهبى فى عناية ، فزاد فتنتها ، وذهبت إلى مقعد فى مواجهة غرفته ، وقعدت ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الساقين معا ، فبدت فى هيئة تفتن العابد فى محرابه .

وراحت ترصد الباب بعينين متلهفتين ، ومر الوقت وهى فى جلستها . فأرهفت حواسها ، وتململت فى مقعدها ، وطغت ثورة مشاعرها ، فقامت وسارت إلى الشرفة ، ومدت بصرها إلى البحر الساجى ، الذى بـدت

صفحته كمرآة فضية مصقولة . كان القمر فى ليلة تمامه يبعث ضياءه اللطيف إلى الكون الهاجع ، فيمده بالشاعرية والجمال .

ومارت إحساساتها الزاخرة فى صدرها ، وهفت إلى السحب فلم تطق أن يحول ذلك الباب بينها وبين إرواء نفسها . فلو أنه انفتح ووقع عليها نظر الشاب ، لما استطاع أن يقاوم فتنتها ، ولذاب من حرارتها كما تذوب الشمعة إذا أحست مس النار .

وخطر لها أن تذهب إليه ، وتطرق بابه ، وتلتمس منه أن يناولها شيئا ، ولكنها لم ترتح إلى ذلك الخاطر ، ففكرت فى وسيلة أخرى ، وبان فى وجهها الرضا . فرفعت صوتها بالغناء ، فسرى آسرا جذابا شحن رقة وأنوثة ، وانساب عذبا نديا يهز القلوب ، ويعبث بالأفئدة ، ومس أذن الشاب مسا رقيقا ، فأعارها السمع ، كانت تغنى أغنية رومية لم يفهم منها حرفا ، ولكن نبرات صوتها أطربته ، فراح ينعم بالأنغام وهو ممدد فى فراشه ، وهام فى تيه الخيال ، ولكن لم يخطر على قلبه أن ينطلق إلى ماريا ..

وانتهت من أغنيتها ، وغادرت الشرفة ، ودلفت إلى الردهة وهى تمنى النفس بأن تجده هناك ، يصغى إليها هيمان ، ولكنها ألفت باب غرفته موصدا ، فذهبت إلى غرفتها تحس إحساس العائد من معركته منهزما ، ولو طاوعت نفسها لحطمت عليه بابه .

وانقضى الليل ، وطلع النهار ، فقامت ماريا ، وفتحت باب حجرتها ، ثم عادت إلى فراشها ، وارتمت فيه ، فى وضع مثير ، حسرت الغطاء عن ساقها فكانت فتنة ، وبلغ سمعها صرير باب ، فاشرأبت بعنقها ، لترى ما يفعل الشاب إذا وقع بصره على ما هيأت له من إغراء ، ومر ببابها ، فلما وجده مفتوحا تطلع إلى الغرفة برغمه ، فلما رأى ماريا فى فراشها ارتبك ، وغض من

بصره ، وأسرع فى خطاه ليغيب فى دورة المياه .

وغادر البيت إلى مدرسته ، وانقضى النهار ، وعاد مع الغروب ، ودخل إلى حجرته وأغلقها على نفسه ، ومر بعض الوقت ، فأحس مللا ، فخرج إلى الشرفة يمتع الطرف بمراقبة قرص الشمس المتوهج وهو يخوص فى البحر الذى اصطبغت صفحته بلون الأرجوان .

وقف صامتا ينظر وقد ملأ منظر غروب الشمس أقطار نفسه بهجة ، وظل شاخصا ببصره ، مفعما بالنشوة ، حتى سمع حركة فى الردهة ، فالتفت فرأى ماريا تومئ إليه أن تعال فخفق قلبه ، واستيقظ قلقه وذهب إليها وقد دثرته رهبة . كانت فى ثوب أحمر زاد فى روعتها ، فبدت كتمثال للجمال . واستدارت على عقبيها وأولته ظهرها ، وقالت له فى رقة :

ـــ ساعدنى فى تزرير أزرار الثوب من فضلك .

كان ثوبها مشقوقا حتى خاصرتها ، به أزرار كثيرة ، فوقف فى مكانه مأخوذا ، زائغ البصر ، ثم دنا منها وهو فى اضطرابه ، ووقعت عيناه على ظهرها الناصع ، الذى كان كأنما خلق من شمع مصفى ، فسرت فى صدره رهبة ، ومد يدا مضطربة وجعل يزرر أزرار الثوب فى حرص حتى لا تلمس أنامله لحمها . واستدارت بوجهها ، ورنت إليه بعينيها الزرقاوين ، ولفحت أنفاسها الحارة وجهه ، ولو أنها لفحت لوحا من الثلج لأذابته ، ولكنه كان مشغولا بتلك الأزرار التى كان يعالجها فى حرص وحذر !

وأرادت أن تخرجه عن صمته فقالت وهى تميل إلى الوراء قليلا ليلمس ظهرها صدره :

ـــ إنى ذاهبة إلى السينما .

كانت تأمل أن يعرض عليها الخروج معها ، وكانت تتأهب لتشكر له

لطفه ، ولكنه لج فى صمته ، فاستأنفت حديثها ، لتخرجه من ذلك الجمود الذى يجرح كبرياءها .

— بها رواية رائعة .

فقال فى صوت مضطرب خافت كأنما ينبعث من أغوار نفسه :

— أية رواية ؟

وأرضاها أنه نطق أخيرا .

فقالت فى خفة :

— جيلدا .

— رواية رائعة : رأيتها فى القاهرة .

وصمت ، فأحست كأنما صفعها على وجهها ، فثارت ثورتها ، ولم تعد تحتمل أن تبقى أكثر من ذلك ، فانطلقت فى الدرج الخشبى ، وجعلت تهبط فيه حانقة متبرمة . وارتمى على أول مقعد صادفه ، وجعل يلتقط أنفاسه فى جهد ، فقد أدار عرفها الطيب رأسه ، وأيقظ دنوها منه مشاعره ، حتى كاد يضعف ويضمها إلى صدره ولكنه أحجم ، خشية أن يغضب السيدة التى رعته وأكرمت وفادته !

ومرت أيام وماريا تتودد إليه ، وهو منطو على نفسه ، ينظر إليها بعين التقدير والتبجيل ، فلم يخطر له على بال أنها تشتهيه ، وأن كل جارحة من جوارحها تهفو إلى شبابه الغض الرطيب .

وضاقت ماريا بجموده ، وعزمت على أن تخرجه من قوقعة نفسه ، ففى عصر يوم من الأيام ، بينما كان جالسا فى الردهة يقرأ ، خرجت من غرفتها وحيته متطلقة الوجه ، ثم راحت تهبط فى الدرج قفزا فراح ثدياها يترجرجان فى رعونة ، وقبل أن تبلغ نهاية الدرج تظاهرت بأن رجلها قد زلت ، فندت

منها صرخة ، واستلقت على الأرض ، وأسبلت عينيها .

صكت صرختها أذنيه ، فأسكنت الرهبة فؤاده ، وهرع إليها مضطربا ، رآها مغشيا عليها ، فراح يتلفت فى حيرة ، و لم يعد يدرى ما يفعل ، وفيما هو يتلفت فى ارتباك ، خطر له أن يدعو الخادم العجوز ، فانطلق فى الحجرات يبحث عنها ، فلما لم يجدها عاد إلى ماريا ، وراح يتطلع إليها بعينين شاردتين ، ثم صعد فى الدرج وثبا ، و لم يغب لحظات حتى رجع وفى يده زجاجة « كولونيا » أدناها من أنفها ، ولكنها ظلت فى إغمائها ، و لم يجد مفرا من حملها ، فمد يديه وحملها بين ذراعيه ، فالتصق جسمها اللدن بصدره ، وراح يصعد بها فى حرص وأناة ، وقد اطمأنت ماريا ، فقد سقط فى شباكها .

بلغ الردهة العليا ، وذهب إلى غرفتها ، ودفع بابها بقدمه ، ثم سار إلى السرير ، ووضع فيه ماريا ، وأخذ يفرك يديها بين يديه ، ثم بلل كفه بالكولونيا ، وراح يمررها على جبينها وعنقها وجيدها .

وأحست أنفاسه الحارة تلفح وجهها ، ففكرت فى أن تطوقه بذراعيها ، وأن تضمه إلى صدرها الذى يعلو وينخفض فى ثورة ، ولكن لماذا الإسراع إن هى إلا لحظة حتى يهوى بشفتيه على شفتيها .

وفتحت عينيها فى وهن ، ورنت إليه رنوة لو أنها صوبتها إلى رجل آخر لزلزلت كيانه ، ولكنه ابتعد عنها وهو يغمغم :

— حمدا لله على السلامة .

وتأوهت ، فقال لها فى إشفاق :

— إنك فى حاجة إلى الراحة .

وانسحب من الغرفة ، وأغلق الباب وقد خلفها وهى تكاد تنفجر حنقا

وغضبا .

وانقضى الليل وماريا ثائرة ، تحس كبرياءها تدمى ، فيما طالما صرعت رجالا من أول نظرة ، وعز عليها أن يظللها ومن أذل كبرياءها سقف واحد ، فما أن شقشق الفجر حتى ذهبت إليه ، وطرقت بابه ، ففتحه ، ووقع بصره عليها ، فأومأ إليها برأسه محييا ، ولكنها لم ترد تحيته ، بل قالت فى غضب :

ـــ أرجو أن تغادر اليوم بيتى ، إنى فى حاجة إلى هذه الغرفة .

رمقها فى دهش ، وقبل أن يفتح فاه كانت قد أولته ظهرها ، وولت عابسة مقطبة ، دخلت حجرتها ، وصفقت الباب خلفها فى حنق شديد .

وقف مشدوها يفكر ، ما الذى فعله لتثور عليه كل هذه الثورة فإنه كان يحترمها ويبجلها ، وما أغضبها يوما ، كان يعاملها كما يعامل أمه ، وتحرك وهو مذهول ، وتناول حقيبته الكبيرة ، وراح يجمع متاعه ، وتزاحمت حوادث الأمس فى رأسه ، وأخيرا هز رأسه فى اقتناع ، فقد خيل إليه أنه اهتدى إلى سبب ثورتها ، أغضبها أنه حملها بين ذراعيه ، وأن جسدها الطاهر التصق بصدر رجل غريب !

فنـــان

١

نظر فى المرآة لآخر مرة ، وأصلح من هندامه ، ثم استدار ليخرج ، وقطع الغرفة وهو يصفر لحنا خافتا فى بهجة ، حتى إذا ما بلغ الباب مد يده وضغط الزر الكهربى ، فساد الغرفة ظلام ، وأغلق الباب خلفه ، وهبط فى الدرج منشرحا ، فقد أتم كتابة الرواية الكبيرة التى شغلته عن العالم شهورا ، إنه خارج الليلة ليستريح من أفكاره ، وليمضى سهرته فى ملهى من الملاهى ، ينعم بمباهج الحياة كما ينعم بها سائر الناس .

وبلغ وصيد الباب ، فألفى السكون يسيطر على المكان ، والظلام يلف الكون ، فوقف يجيل عينيه فيما حوله ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فرأى النجوم تتألق فى رقعة صافية زرقاء ، فأحس حركة تدب فى نفسه ، وشعر بعقله يعمل ، يترجم عما ترى العين بألفاظ ، إنه يذكر أن أحدهم وصف ما يراه الآن بزنجية تحلت بجمان ، وشاء أن يجد الألفاظ التى تصور ما يحسه ويراه ، فأغرق فى التفكير لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه ، وفطن إلى ما يعتمل فى جوفه ، نزل وقد انفرجت شفتاه فى سخرية وغمغم : « ما لنا وهذه الليلة ! لقد انتهينا من الكتاب ، وما خرجنا إلا لنتمتع بالحياة كما يتمتع بها الناس » .

وسار ، وعاد إليه هدوؤه بعد قليل ، جعل يدندن فى انشراح ، حتى إذا بلغ الطريق العام ، ورأى المصابيح القوية الممتدة على جانبيه ، أخذ يرمقها بعينه الفاحصة ، فبدت له كشموس رفعت على قضبان ، ونظر إلى صقال الطريق فخيل إليه أنه يرنو إلى صفحة هادئة من ماء تعكس ما يسقط عليها من ضياء ، ولمح « تاكسى » قادما ، فأشار له ، ثم ركب ، ومد بصره إلى السائق ، فأحس رضا ، ففى سحنته خصائص بارزة ، إن أنفه الكبير المقوس تلك التقويسة التى تجعله أقرب إلى منقار ببغاء ، وهاتين العينين الضيقتين ، والشارب المتدلى على الفم ، وهذه الجبهة المتغضنة ، والشعر المفلفل المنقوش البارز من « البيريه » تجعل منه شخصية متميزة ، إنه يستطيع أن يستعير هذه الملامح ، ليمنحها شخصية من شخصياته التى يرسمها ، وأطرق يفكر فى شخصية تصلح لها هذه الملامح ، وأغرق فى التفكير ، ولكنه تذكر فجأة أنه ما خرج الليلة إلا لينعم بالحياة كما ينعم بها سائر الناس ، فتململ فى جلسته ، ثم نظر من نافذة السيارة ، يتسلى بما يمر أمام عينيه من مشاهد .



ووقفت السيارة أمام الملهى ، فهبط ومد يده بالنقود إلى السائق ، وأدام النظر إلى وجهه فى إمعان ، كأنما يلتقط له صورة ، لتحتفظ فى مخيلته مع الصور العديدة التى يلتقطها فى كل آن . ودلف من باب المقهى ، فألقى نظرة شاملة على المكان ، ولمح فى مكان منزو نضدا خاليا ، فاتجه إليه ، وبقى لحظات وهو ساكن فى جلسته ، ولكن ما لبثت عيناه أن دارتا كما تدور الكاميرا ، فجعل يتطلع إلى الأضواء الخافتة الحمراء ، التى أضفت على المكان

جوا شاعريا ، ثم راح ينقل بصره بين الجالسين إلى الموائد ، يرمقهم بنظراته الفاحصة ، كأنما يحاول أن يتغلغل فى أعماق نفوسهم ،ليستشف سرائرهم ، ويكشف عن الأسرار المدفونة فى صدورهم . وأقبل النادل يلبى الطلبات ، فأخذ يتبعه نظره ، ويرقب حركاته ، ويحاول أن يفسر كل حركة وانحناءة .

وعزفت الموسيقا ، فأرهف السمع وأحس نشوة تغمره ، ولكن ما لبثت أن انقشعت النشوة ، فقد طأطأ بصره ، يفكر فى ترجمة الإحساس الذى يحسه إلى ألفاظ ، وأخذ يدخره فى نفسه حتى إذا ما احتاج إليه يوما وجده مذخورا ، ورنا إلى الفرقة الموسيقية ، فانشغل بأفراد الفرقة عن الأنغام ، وجذب بصره عازف الكمان ، القمىء الجسم ، ذو الوجه الجاف ، والشعر المسترسل كشعر فتاة ، فأخذ يرقبه مدة ، ثم راح يتخيله فى أوضاع وأشكال .

وسكتت الموسيقا عن العزف ، فصفق الناس استحسانا ، فعاد إلى نفسه وقد أحس تبرما ، فقد شغل عن الموسيقا ، وحرم متعتها ، وشعر بضيق يستولى عليه ، فما باله لا يمد بصره إلى شيء أو يسمع شيئا أو يحس إحساسا حتى يحيله عقله إلى مادة لفنه ، إنه يود أن يتمتع بالدنيا كما يتمتع بها الناس .

وفكر فى أن يفر من فكره ، فرأى أن يدعو فتاة يعرفها من فتيات الملهى لتشاركه فى جلسته ، إنها فتاة لطيفة خرجت معه مرات ، وقاسمته بعض لياليه . وأخرج ورقة خط فيها سطرا ، ودفع بها إلى النادل ليبلغها الفتاة ، وأقبلت بعد لحظات ، فصافحها فى رقة ، ثم جذب لها مقعدا ، فجلست إلى جواره ، فابتدأ يحادثها صافى النفس ، ثم راح يرقبها .

كانت رائعة الحسن ، فلم يهزه حسنها ، ولم يمس وترا فى قلبه ، ولكنه حرك فكره ، فجعل يتطلع إليها كما يتطلع إلى تمثال من الجمال يوحى بفكرة ، فيالشعرها السبط الفاحم السواد الذى صفف تاجا ، ويا للعينين الواسعتين



اللتين تطلقان سهاما ، ويا للفم الفاتن ، والشفتين الممتلئتين ، وراح خياله يحلق ، ولكن رن فى أذنه صوتها ، فعجب لحاله ، فقد شغل عن الفتاة الجالسة إليه ، وأحالها إلى مشاهد وأفكار .

وأقبل عليها بنفسه ، وأصغى إليها ، فتحدثت وتحدث ، ولكن سرعان ما جذب حديثها فكره ، فجعل يصغى إليها بعقله ، ويختزن حديثها فى واعيته ، فسيحتاج إليه يوما ، ونهضت لتتأهب للخروج معه ، وما أولته ظهرها حتى راح يفحصها بنظرة الفنان ، الذى يخشى أن تشرد منه شاردة .

وما اختفت عن عينه حتى تململ ، فما بال فنه يفسد عليه سهرته ، إنه يود أن يمضى ليلة كما يمضيها أى رجل !



وجاءت بعد أن تفننت فى إبراز فتنتها ، فاصطحبها وخرج ، وانطلقا إلى الجزيرة . كانت الليلة من ليالى الربيع المنعشة ، فما هب النسيم رقيقا حتى انتعشت روحه ، فمد يده وقبض على يدها ، فسرت نشوة فى صدره ، وما أحس تلك النشوة حتى جعل يفكر فيها ، كأنما أحس إحساسا ، فأسرع يعتقله قبل أن يفر منه ، وضايقه ذلك التفكير الذى يحد من نشوته ، فشاء أن يتخلص منه بأن يندمج فى إحساس فوار ، فضمها إلى صدره ، وراح يقبلها قبلة حارة ، نسى فيها نفسه ، ولكن ما رفع فمه عن فمها حتى هرع فكره ، ليسجل ذلك الإحساس .

وعاد إلى البيت حانقا متبرما ، فإنه لا يستطيع أن يرى الأشياء كما يراها الناس ، ولا أن يسمع الأحاديث كما يسمعها الناس ، ولا أن يحس

الإحساسات كما يحسها الناس ، ودخل فراشه وهو يحسب أنه غضبان ، وحاول أن ينام ، ولكن كانت تتلاحق فى مخيلته صور وأفكار ويحتمل فى صدره شعور وإحساسات ، واكتملت الصور ، ونضجت الأحـاسيس فنهض يدون ما تولد فى ذهنه ، وما اعتمل فى صدره ، فى لذة لا يحسها إلا الفنان .

شروق

هب نسيم خفيف ، فراح يداعب قطع الغسيل المنشورة فى شرفات بيوت الحى العتيق ، ويحرك الرايات الخضر الممزقة التى كلح لونها ، والتى مرفوعة أمام مقهى المعلم أبو سريع من أيام العيد التى انقضت منذ شهور ، وحمل صبى المقهى الإناء النحاسى الأصفر المعد لغسل الفلجانات ، وراح يرش الطريق الضيقة المتعرجة ، ليطفئ حرارة الأرض وليلطف الجو للرواد الذين ابتدءوا يفدون مع الليل ، وشربت الأرض وارتوت واستمر الصبى يدور بإنائه النحاسى الأصفر ينثر الماء نثرا ، ولم يكف حتى امتلأت حفر الطريق المبعثرة هنا وهناك ، فغدت كبحيرات صغيرة متقاربة قد تعكس ماؤها وهدأ سطحها ، وراح المارة من الرجال يرفعون جلابيبهم ، حتى لا تتلوث أطرافها ، وما كان أحد من الجالسين ليحس مرورهم ، أو يلتفت إلى حركاتهم ، وكانت النساء الملتفات بملاءات سود يرفعن أطراف ملاءاتهن ، ويسرن على أطراف أصابعهن ، حتى لا تتلوث كعوب أقدامهن العارية المدسوسة فى (شباشب) متباينة ، فكانت السيقان العارية تبدو مشدودة ، فتصوب العيون الخائنة إليها ، وتنطلق هتافات الإعجاب : « يا دين النبى » « اسم النبى حارسك » « على مهلك يا غزال » .

وخيم الظلام قبل الأوان على المكان ، فقد كانت مبانى الحى متقاربة متشابكة ، حتى ليخال إلى المرء أن فى مقدور الجارين المتقابلين أن يتصافحا

من النوافذ وابتدأت المحال الممتدة على جانبى الطريق تضىء مصابيح الغاز الخافتة ، فانبعث منها ضوء باهت مرتعش ، وأضاء المعلم أبو سريع مصابيحه الكهربية ، فبهرت النظر ، وأعلنت عن المكان .

وخرج المعلم أبو سريع من باب منزله القريب من المقهى ، واتجه بجلبابه الأبيض النظيف ، ولاثته الحريرية المزركشة ، وسار بخطوات منتصب القامة ، مرفوع الجبين ، ثم ارتقى درجة ، فأشرف على المقهى ، ورفع يده إلى رأسه وقال فى صوت أجش خشن « السلام عليكم » ، فرد الجميع فى احترام ظاهر « السلام السلام » .

وتناول المعلم كرسيا وانتحى جانبا ، وجلس بالقرب من شيخين يتناولان « التعميرة » فى هدوء ، وسقط النور على وجهه ، فبدا أسمر اللون ، واسع الفم ، ضخم الأنف غزير الشارب ، فى خده الأيسر أثر جرح عميق ، ورفع يده ، وراح يمرر أصابعه فوق فمه المطبق ، ثم تناول شاربه بين أصابعه ، وراح يفتله فى خيلاء .

وساد الصمت قليلا بعد إقبال المعلم ، ثم عادت الضوضاء سيرتها الأولى ، فارتفع صوت صبى القهوة ينادى : « واحد تعميره ناديه » ، « اتنين ينسون » .

وابتدأ باعة النهار الجوالون يعودون إلى حجرهم وأكواخهم . فكانوا يدفعون أمامهم عرباتهم فى استسلام وخمول ، وابتدأ باعة الليل ينسلون من دورهم ، ويخترقون الطريق الضيق ، يبغون الميدان الفسيح ، وينتظرون رواد الليل ، ولاحت فى نهاية الطريق عربة صغيرة ، قد صنعت جميعها من الزجاج ، ليس بها من الخشب إلا الإطارات ، وقد جهزت بمصابيح قوية تضيئها ، وأخذت العربة تقترب حتى وقفت فى الضوء الذى فرشته المصابيح

الكهربية المتألقة فى مقهى المعلم أبو سريع ، وارتفع صوت من كان يدفعها فى نبرات منغمة « عاشورا مبشورة » .

انتشر الدخان فى المقهى وتكاثف فعبق الجو وسيطر على المكان كسل وخمول ، وخرجت من الدار المواجهة للمقهى فتاة فى الثالثة عشرة ، ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، خمرية اللون ، ترتدى جلبابا ضيقا قصيرا كشف عن ساقيها الممتلئتين وأظهر تفاصيل جسمها فى إغراء ، وصارت تتخلع وتتمايل تمايل أغصان يداعبها النسيم ، فجعل جسمها يهتز كأنها زئبق يترجرج ، وما إن أحس الجالسون خروجها حتى التهبت منهم الحواس ، ودبت فيهم الحياة ، وتحولوا إلى عيون .

واتجهت زنوبة إلى بائع العاشوراء وتناولت صحنا وراحت تلتهم ما فيه ، والتفت البائع إليها وابتسم ، والتقت نظرتها بنظراته ، فارتبك وقال مغازلا وهو لا يدرى : « على مهلك يا جدع » فضحكت زنوبة ضحكة طويلة ممدودة ، كهربت الجو ، فما بلغت آذان الشباب حتى سرت فى أبدانهم رعشة لذيذة ، وحتى تدفقت الدماء الحارة فى العروق ، وهب أكثر من شاب ، وانطلقوا إلى عربة العاشوراء ، ليلتهموا زنوبة بعيونهم ، قبل أن يلتهموا ما فى الصحون التى دفعها الرجل إليهم .

كان المعلم أبو سريع يرقب ما كان يجرى عند عربة العاشوراء فى انتباه ، فامتلأ صدره غيظا ، وبان الضيق فى وجهه ، وجعل يتململ فى كرسيه ، وينفخ فى صوت مسموع ، ثم التفت إلى الشيخين الجالسين بالقرب منه وقال فى تأفف : « أعوذ بالله ، بنت تستحق قصف رقبتها ، لو كانت بنتى لشربت من دمها » .

فرفع أحد الشيخين التعميرة عن فمه وقال :

— آخر زمن .

فقال المعلم أبو سريع :

— أين أهلها ؟ أين الغيرة ؟

فقال الشيخ الآخر فى تحسر :

— لم يعد هناك غيرة يا معلم . الله يرحم أيامنا .

فقال أبو سريع وقد أمسك قميصه بين أصابعه ، وراح يحركه :

— والله إنى لأغار من قميصى .

وانتهت زنوبة من التهام العاشوراء فناولت الرجل الصحن وسارت وكأنما كان هناك من يخزها بإبرة فى خصرها الأيمن ، فينفر عجزها إلى الناحية اليسرى ، ثم يعود ويخزها فى خصرها الأيسر ، فينفر عجزها إلى الناحية اليمنى ، أو لكأنما كانت ترقص على نقرات موزونة ، فنظر أحد الشيخين إليها من بين أهدابه المسبلة فى إعجاب ، فقد كان فى سالف العصر والأوان زير نساء ، وقد تاب — أو بمعنى أصح أرغم على التوبة إرغاما — ولو كان به حركة لاشتهاها .

ونظر المعلم أبو سريع إلى جسم زنوبة الرجراج نظرة تمن ، فإنه كان يريدها،ولكنه ما كان يريدها لنفسه،بل كان يرغب فى أن يضمها إلى النسوة اللاتى فى داره ، فلو أنه ضمها إليهن لضمن إرضاء شباب الحى الذين ابتدعوا يزهدون فيما عنده ، بل لضمن وفود شباب الأحياء المجاورة ، ولعاد إلى البيت عزه الذى ولى يوم ولى شباب أخته .

وأطرق المعلم أبو سريع يفكر ، وراح يعبث بأصابعه فى شاربه المنتصب فى خيلاء ، وقد رفع حاجبه الأيمن ، وضيق من عينه اليسرى ، فقد كان يفكر ، وطأطأ رأسه برهة ، ثم رفعها وقد أشرق وجهه ، فقد هداه فكره إلى

أن يبعث بأخته إلى زنوبة ، لتربط بينها وبينها الأسباب ، ولتدعوها لزيارتها ، واطمأن إلى فكره ، وأحس غبطة ، فعما قليل تكون زنوبة فى داره ، وإنه من ذلك على يقين ، فإنه ليعرف أخته جيدا ، فهى شيطانة لا تعييها الحيل ، ولا يقف فى سبيلها العراقيل .

ومرت أيام ، وأقبل أول الشهر ، ولاحظ المعلم أبو سريع أن الشقة الخالية فى البيت المواجه لبيته قد نزلها سكان جدد ، فوقف فى الشباك ، وراح يرقب الوافدين على الحى العتيق . فرأى فتيات منهوكات ، قد لطخن وجوههن بالمساحيق ، ليخفين شحوب بشرتهن ، ولمحهن يرحن ويجئن فى تراخ وخمول ، كأنما قد استيقظن بعد نوم طويل ليستقبلن وفود الليل ، وما كانت حركاتهن غريبة عنه ، فقد شب فى بيت من هذه البيوت ، ومد بصره الحديدى يتفحص داخل الشقة ، فلم يجد كثير أثاث ، وما حاجة أمثالهن إلى الأثاث ، إنهن اليوم هنا ، لا يعلمن كم يمكثن ، فقد يمكثن يوما أو بعض يوم ، وقد يمكثن شهرا أو بعض شهر ، إن بقاءهن رهن بانكشاف أمرهن ، وعلى مقدار ما فى الحى من غيرة و .. شرف !

وأحس المعلم أبو سريع ضيقا ، فما كان يظن أن يجرؤ غريب على أن يقتحم عرينه ، وينافسه فى عقر داره ، وهبط إلى المقهى ، وتناول كرسيا ، وجلس بحيث استقبل باب البيت الذى نزله المنافسات الجديدات ، فقد عزم على أن يرقب الدار .

ومر أسبوع ، وخفت الرجل فى دار المعلم ، وانحرف طلاب الشهوات إلى الناحية الأخرى ، فإن لكل جديد زهوة ، فلم يستطع المعلم أبو سريع صبرا ، فعزم على أن يستعين ببعض أعوانه ، ليتخلص من هذه المنافسة التى أضجرته وأقلقته ، وأن يعمل على أن يكسب تأييد الشيوخ واحترامهم ، فما

كان بمستطيع أن يفاتح الشباب فى هذا الأمر ، فإنه يفهمهم ويفهمونه .

وجلس المعلم أبو سريع فى جلباب أسود عتيق ، وفى يده « الحاجة » ، وهى هراوة غليظة ، إذا حملها كانت نذير شر ، فإنه لا يحملها إلا إذا عزم على شجار ، ووقف خلفه اثنان من أعوانه ، فى يد كل منهما عصا طويلة ، وكان كلما وفد وافد ، ورأى المعلم فى عدة القتال قال مستفهما :

— كفى الله الشر !

فكان يرد عليه بابتسامة ، يحاول أن توحى بالثقة والاطمئنان ، حتى إذا ما اكتمل عقد معامليه اتجه إلى ركن كان يحتله رهط الشيوخ ، وتكلف الثورة والغضب ، فسأله أحدهم :

— خيرا ؟

— لم يعد هناك خير .

— مالك ثائرا اليوم ؟

فقال المعلم فى ثورة وغضب :

— لقد ترك لنا أهلنا هذا الحى طاهرا ، فوجب أن نحافظ على طهارته .

— إنه طاهر يا معلم .

— يا ليت ، لقد دنسته نساء عاهرات ، وما كان فى حينا فسق ، وما ينبغى أن يكون .

— وعلام عولت يا معلم .

— على دك هذا البيت الفاسد ، وإن كان نصيبى فى السجون ، لقد عشت شريفا ، ولا أحب إلا أن أعيش شريفا ، إلى رجل أغار من قميصى .

ولوح بعصاه ، وسار مرفوع الرأس ، منتفخ الأوداج ، وخلفه عوناه .

فنظر الشيوخ إليه فى إعجاب ، وغمغم أحدهم :

ـــ رجل شريف .

فقال آخر :

ـــ إنه أسد .

وهجم أبو سريع ومن معه على دار المنافسات ، وأعملوا عصيهم فيمن كانوا فى الدار ، ففر الرجال ، ووعدت النساء بالرحيل ، وفى سكون الليل خرجت نسوة متسللات ، كما جئن متسللات ، وانصرف أبو سريع هادئ النفس ، مطمئن البال .

وفى صبيحة اليوم الثانى استيقظ المعلم أبو سريع بعد القيلولة ، فوجد أخته وزنوبة جالستين تتحادثان ، فانشرح صدره ، وهزه السرور ، فقد سقط الطير فى القفص ، ونظر من النافذة إلى البيت المواجه ، وتطلع إلى شقة المنافسات ، فألفاها قاعا صفصفا ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة فوز ونصر ، فقد أصبح الحى له وحده ، لا ينافسه فيه منافس ، وفى داره تحفة جديدة ، يرجو أن تدر عليه الخير الكثير .

وخرج إلى المقهى متهلل الوجه ، راضى النفس ، وأقبل الشيوخ يصافحونه فى حماسة ، والتفت إليه أحدهم وقال :

ـــ عينى باردة عليك ، وجهك مضىء اليوم .

فقال المعلم أبو سريع وأصابعه تعبث بشاربه فى خيلاء :

ـــ ما أحلى الشرف يا أبا خليل ؟؟؟

رسالة حارة

عزيزى خيرى :

هذه الرسالة ليست بنت اليوم ، روادتنى فكرة الكتابة إليك أول مرة منذ شهور ، وأخذت تراودنى كل ليلة منذ ذلك اليوم . كنت أدخل غرفتى ، وأغلق على بابى ، وأتهيأ للكتابة ، ولكنى كنت كلما جلست إلى القرطاس لأبثك لواعج نفسى أحسست خجلى حائلا بينى وبين تسطير ما أحس ، فما كان لفتاة أن تبعث إلى شاب لا يعرف عنها شيئا ــ وإن كانت تعرف عنه كل شىء ــ برسالة تشكو له فيها ما تقاسى من وجد .

ظل ذلك الخجل يقهرنى حتى ليلتى هذه ، فقد دخلت إلى فراشى بعد أن اطمأننت إلى عودتك من مقهاك ، وحاولت النوم ، ولكنى أرقت ، ولم تغمض لى عين ، وتقلبت فى فراشى كأنما أتقلب على جمر ، فقد تآمر على خيالى ، فأحضر صورتك أمام عينى فى شكول تؤجج النار فى الفؤاد ، فطغت إحساسات الحب ، فملأت صدرى ، حتى كادت تكتم أنفاسى ، فلم أجد لها منفسا إلا أن أقوم فى هجعة الليل لأسكب شواظ القلب على رسالة أبعث بها إليك ، لعل نارى تبرد ، وقلبى الذى أضنانى يهدأ ، والخيال الشارد السارح يثوب ، ويطوقنى ملاك النوم بجناحيه ، فيدثر نفسى القلقة الحائرة هدوء ، وإن كان هدوءا إلى حين .

رأيتك يا حبيبى أول مرة بعد ظهر يوم لن أنساه ، كنت ذاهبة إلى

طبيب الأسنان ، وكنت عائدا من عملك ، فما وقعت عيناى عليك حتى تملكنى إحساس غريب ، شعرت بروحى تهفو إليك ، وانطلقت فى طريقى ، وما ابتعدت خطوات حتى تلفت خلفى لأمتع العين برؤيتك .

وانتهت زيارتى للطبيب ، وعدت إلى البيت ، فجلست فى الشرفة أستروح نسيم الأصيل ، وفجأة شعرت كأن جناح حمامة يخفق فى جوفى ، كان قلبى يضطرب ، رأتك عيناى وأنت مقبل من دارك ، منطلق إلى الميدان ، فقفز قلبى فى سرور الولهان .

تتبعتك بعينى مضطربة النفس ، حتى إذا اختفيت عن ناظرى ظل قلبى يتبعك ، وانقضى النهار وأقبل المساء وأنا أفكر فيك ، وجاء أوان مغادرتى الشرفة ، وتحركت لأدخل إلى غرفتى ، ولكن لم يطاوعنى قلبى ، لم يشأ أن يغادر الشرفة قبل أن يطمئن إلى أوبتك . مرت من الليل ساعات وأنا جالسة أرصد الطريق ، فإذا لمحت شبحا قادما حسبته أنت ، فتسرى فى بدنى رهبة لذيذة ، وطال مكثى وما تسرب الملل إلى ، فقد كنت مفعمة بالنشوة ، لأنى أرقب عودة رجل خفق له القلب .

علمنى حبك يا حبيبى أن الظلام مرتع خصب للخيال . راحت الأوهام تنمو فى فكرى ، وتزدهر فى نفسى ، فتنتشى روحى ، ويرضى فؤادى . وفجأة اشتد وجيب قلبى ، رآك فى حلكة الليل قبل أن تميزك عيناى ، وبقيت أتبعك بنظرى حتى اختفيت ثانية فى الظلام ، فغادرت الشرفة وأنا أحس خفة وانشراحا .

صارت الشرفة مأواى ، فى الصباح أهرع إليها لا ستجلاء طلعتك ، وفى الظهر أنتظر عودتك ، وعند الأصيل أرقب خروجك إلى مقهاك ، أما الليل فكان مسرح الأحلام .

فكرت مرة فى أن أتبعك ، لعلى أستطيع أن ألفت نظرك إلى ، فارتديت ثيابى قبل موعد خروجك عند الأصيل ، ووقفت فى شرفتى قلقة ، تتجاذبنى خواطر تترجح بين الإقدام والإحجام : ولمحتك قادما ، فاندحر ترددى ، ووجدت نفسى أهرول ، وأنطلق كأنما كنت واقعة تحت تأثير منوم مغناطيسى ، وهبطت الدرج قفزا ، ووصلت إلى الطريق وقلبى فى حيرته واضطرابه ، وأحسست رهبة تسرى من قمة رأسى إلى أطراف أصابع قدمى ، مشت فى بدنى رعدة ، وتدفق الدم حارا إلى وجهى ، وتلفت بعيون زائغة ، فألفيتك تسير أمامى ، فأغذذت سيرى ، حتى إذا اقتربت منك ضيقت من خطوى ، كأن قوة خفية أرغمتنى . وتبعتك على البعد ، كأنما كنت منجذبة إليك ، حتى إذا لمحتك تدخل مقهاك وقفت أديم النظر وأنا سعيدة ، ثم عدت راضية من حيث جئت .

فى يوم تقابلنا وجها لوجه ، ولا أكذبك القول فأقول إنها مجرد مصادفة ، فما أحب وأنا أعترف لك بحبى ، أن أكذب عليك ، كانت هذه المقابلة ثمرة تدبير فكرت فيه ليالى وأياما ، يا طالما قابلتك فى خيالى وابتسمت لك ، ثم حدثتك وحدثتنى ، ونعمنا باللقاء ، ولكن ما إن قابلتك فى الحياة ، وهممت أن أبتسم لك كما فعلت فى الخيال ، حتى جمد وجهى ، وعز على الابتسام . فكرت فى أن أدعوك ، أن أهتف باسمك ، وفتحت فمى وأطبقته ، ولم ينبعث منه صوت ، تحطمت الألفاظ على شفتى ، فعدت إلى البيت حانقة على نفسى ، وثار قلبى ، فأخذ يخزنى وخزا ما أقساه .

ومرت على ليلة ليلاء ، ليلة لن أنساها ما حييت ، جلست فى الشرفة أرقب عودتك ، وكان الظلام يرخى ستوره السود ، والسكون يسيطر على المكان ، فراح خيالى يرتع حرا طليقا ، ينعم بأعذب الرؤى وألطف

التخيلات . ومر الوقت ، ووافى ميعاد أوبتك ، فأرهفت منى الحواس ، وجعلت أتفرس أشباح الغادين ، لأطمئن إلى عودتك ، وانقضت ساعة ، ثم ساعة و لم تقع عليك عيناى ، فتحرك قلقى ، وثارت نفسى ، واستولى على ضيق ، وزاد فى كربى أن هجس فى صدرى هاجس جرح روحى ، راح يوسوس لى أنك تنعم اللحظة بحبيبة الفؤاد إذ كنت أنتظرك وقد اندلع فى جوفى نار .

تحركت عقارب غيرتى ، وراحت تلسعنى لسعا ، وأحسست جمرة نار فى حلقى ، وعبرات تخنقنى ، وحنقا يلفنى ، وتمنيت بكل جوارحى أن تعود ، لأنجو من ذلك العذاب ، ولكن الوقت راح يمر و لم تلمحك عيناى ، فخطر لى أن أنسل فى هدوء الليل إلى مقهاك ، أنقب عنك حتى أستريح من حواسى التى تآمرت على ، ولكنى جبنت عن تنفيذ ذلك الخاطر الذى طفق يلح على ، يؤازره القلب الواله الحيران .

وبرد الجو ، وصفرت الرياح ، فمشت فى جسدى قشعريرة لم ألتفت إليها ، كنت شاردة فى تيه الخيال ، غارقة فى بحور الأفكار ، وأشرف الليل على الانقضاء وأنا فى مكانى ، وأخيرا انسللت من الشرفة محطمة النفس مهيضة الجناح .

وأشرقت الشمس ، وتسللت إلى غرفتى ، وما إن فتحت عينى ورأيت الضياء ، حتى شعرت بخوف يسرى فى صدرى ، خشيت أن يكون ميعاد خروجك إلى عملك قد انقضى ، وكتب على ألا تكتحل عيناى ذلك اليوم برؤيتك ، ولكنى شعرت بثقل فى جسمى عاقنى عن النهوض ، فتحسست جبهتى بيدى ، فألفيتها تكاد تنصهر ، لقد سقطت فريسة للحمى ، وما فطنت إلى هذه الحقيقة حتى ارتجفت ، لم أرتجف لمرضى ، بل خشية أن

أهذى باسمك ، فيتبدى مكنون نفسي ، ويفضح سر قلبي الذى ائتمنت عليه ضلوعي ، وطويت عليه صدرى .

ولازمت الفراش ، وراحت الدقائق واللحظات تمر وئيدة بغيضة ، وعادني طيفك فى ساعات صحوى ، فأنعش روحي ، وأرضى فؤادى ، وفى يوم من أيام مرضي لججت فى التفكير فيك . وأخذت أناجيك ، حتى غلبني النوم فرحت فى سبات ، وفيما أنا غارقة فى نومي رأيت كأنما أنا وأنت فى حديقة رائعة ، تفتحت أزهارها ، وغنت أطيارها ، نخطر خفافا على زرع أخضر بهيج ، وقد انسدل شعرى على كتفي ، فأخذ النسيم يداعبه ، وأنت ترنو إلى فى عطف .

ولمحنا نهرا فهرولنا إليه مسرورين ، حتى إذا بلغناه ألفيناه من لجين ، ووجدنا زورقا رائعا زين بالزمرد والياقوت ، انتثر فيه الورد والياسمين ، فركبنا فيه ، وأخذنا نجدف فى البحر العجيب ، وقد سرى صوت سماوى أخاذ يغني بأعذب الألحان ، فعبث بقلبينا ، فملأنا نشوة ، وفاضت سعادتنا ، فالتصق رأسانا .

والتفت إلىّ وفى عينيك حب ، ولففت ذراعيك حولى ، وضممتني إليك ، ولم أستطع أن أحتمل السعادة التى كنت فيها ، فاستيقظت خافقة القلب ، مرهفة الإحساس ، وما إن هدأت مشاعرى حتى أخذت أفكر فى حلمي اللطيف ، منشرحة الصدر ، راضية النفس ، قريرة العين .

وكأنما كان ذلك الحلم الحبيب البلسم الشافى لمرضي ، فما أشرقت شمس النهار حتى أبللت مما كنت أقاسي ، ولكنى لم أبرأ من حبى ، فما ملكت قواى حتى هرعت إلى الشرفة خافقة الفؤاد ، أرقبك فى الغدو والآصال ، وطغى حبى وفاض فلم يعد يسعه جوفى ، ولم يعد يقنع بسبحات الخيال ، وطمع فى أن

يغمر الحبيب بالإحساسات الفوارة .

إننى أكتب إليك وليس لى على نفسى سلطان ، قهرنى حبى ، وتمرد على قلبى ، واستبد بى وأرهقنى ، حتى أرغمنى على أن أكتب إليك ، فنزلت على حكمة مقهورة ، وإن كان فى ذلك طعنة لكبريائى نجلاء .

القلم يرتجف بين أصابعى ، وقلبى يطفو ويغوص ، ويملى على كلمات ، والعرق البارد ينبثق من جبينى ، ليتنى أستطيع أن أعصى ما يأمر به قلبى ، ولكن هيهات ، فها هى ذى يدى تسطر ما يمليه الفؤاد .

سأنتظرك عند محطة الترام فى الميدان ، فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ، ولن أذكر لك عنوانى ، حتى لا تجيب بأنك لا تستطيع أن توافينى فى ذلك الميعاد ، فإنى أريد أن أحيا الأيام الباقية وأنا سعيدة ، يداعبنى أمل لقياك . وإلى ذلك اليوم المرتقب أتمنى لك ولنفسى أسعد الأحلام .

« فتحية »

وطوى خيرى الرسالة وهو نشوان ، يحس خدرا لذيذا ، فما دار بخلده أن هناك من تحبه هذا الحب العارم الجبار. كانت حياته مجدبة قبل أن تصل إليه هذه الرسالة الحارة . فما كان ممن يتفيئون ظلال واحة الخيال ، كان يضرب فى صحراء الحياة محدود الآمال ، ولكن ما إن قرأ هذه الرسالة حتى شرد بصره ، وفتحت فى رأسه أبواب التصورات .

راح يفكر فى فتحية ومن تكون ، وما شكلها ، وتفتق ذهنه فراح يجلب له ممثلات السينما الحسان ، فيستعير لفتحية من هذه قوامها ، ومن تلك نضارتها ، ومن ثالثة عينيها النجلاوين ، ومن رابعة صدرها الفاتن الرائع ، واسترسل فى تخيلاته حتى تجسمت فتحية فى ذهنه نموذجا للحسن والجمال .

وخرج إلى الطريق ، وسار يتلفت يمينا ويسارا ، وفوق وتحت ، يتفرس فى

الشرفات ، فلمح أكثر من فتاة جذابة ، تصلح أن تكون صاحبة الرسالة النابضة بالحب والحياة ، طفق يوزع ابتساماته هنا وهناك ، لعل ابتسامة منها تكون من نصيب فتحية ، فتنزل السكينة بالقلب الولهان .

وخطر له أن يحيى من فى الشرفات الممتدة على جانبى الطريق بكلتا يديه ، كما يفعل الزعماء ، والأبطال ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر الذى اقتحم عليه خياله فى هذه اللحظة الحاسمة من لحظات حياته ، لحظة التنقيب عن الجميلة التى فتحت له قلبها قبل أن يطرقه ، ووهبت له السعادة والحب .

انطلق وهو يحس كأنما بعث خلقا جديدا ، إنه محبوب ، وما أسعد أن يكون المرء محبوبا ، وتدفقت فى عروقه دماء حارة ما أحس حرارتها قبل يومه ، وسرى فى صدره أمل حلو أنعشه ، وأحيا نفسه من الموت .

ولمح فى شرفة من الشرفات ، فتاة جذابة ، ممشوقة القد ، دقيقة الخصر ، تهدل شعرها الكستنائى المتموج ، فأخفى فى دلال جزءا من وجهها الحلو الناصع البياض ، زادها حسنا ، وبدت ذراعاها البضتان كأنما خرطتا من الشمع ، خفق قلبه لجمالها الآسر ، الذى يلعب بالقلوب ، ويعبث بالرجال .

وقف يرنو إليها مذهولا ، وبقى مدة ، ثم انتبه إلى نفسه ، وراح يتلفت حوله ، فرأى رجلا مسنا أبيض الشعر ضئيل الجسم ، محدودب الظهر ، جذب حسنها عينيه ، فراح يتفرس فى جمالها ، ويتلفت نحوها كلما خطا فى الطريق خطوات ، فابتسم خيرى مزهوا ، فجمال من أحبته سبى الرجل الفانى ، وجعله يتلفت وفى عينيه إعجاب ، كشاب فوار الحواس .

وأشرق وجهه بابتسامة عذبة ، ومرر يده على شعره تحية ، فخيل إليه أنها ابتسمت له ، ومدت يدها تصلح شعرها المتهدل ، فانشرح صدره ، وصدق

ما حزره قلبه ، إنها هى بعينها ، فتحية التى بعثت إليه برسالتها الحارة ، ترد عليه تحيته بتحية مثلها .

وسار فى طريقه وهو نشوان ، سره أنه اهتدى إلى فتحية ، ووجدها نابضة بالحياة كرسالتها ، ووسع فى خطاه ، فقد دب فيه نشاط غريب ، وما إن بلغ الميدان حتى أحس رغبة فى أن يعود ويتطلع إلى فتحية ، فدار على عقبيه ، وقفل عائدا من حيث جاء ، فلما لاحت له الشرفة ظلت عيناه متعلقتين بها ، وانداح فى صدره خدر لذيذ .

ودنا من الشرفة ، فخفف من خطوه ، ورفع رأسه ، وراح ينقل فيها عينيه ، وقد تحرك فى جوفه اضطراب شهى . كانت شفتاها ممتلئتين مغريتين ، ووجنتاها فى لون الورد ، وعيناها آسرتين ساحرتين ، فانبعث من عينيه بريق أخاذ ، وسار الهوينى وهو يتلفت ، حتى اختفت الشرفة عنه .

وعاد إلى داره ، فاسترخى فى مقعد وثير ، وأخرج الرسالة ونشرها ، وراح يعيد تلاوتها ، فغمرته نشوة أعظم من النشوة التى غمرته أول مرة ، إنه يرى الآن بعين خياله فتحية : بشعرها الكستنائى المتموج ، ووجهها الحلو الصبيح ، توجه إليه خطابها فتنتشله من دنياه المحدودة ، لترفعه إلى عوالم رحيبة من السعادة والهناء .

وضع الرسالة على ركبتيه ، وأطلق لخياله العنان ، فرأى نفسه وفتحية فى تلك الحديقة البديعة التى رأتها فى منامها ، وهما يهرولان إلى النهر الرقراق ، ثم يتجهان إلى الزورق الرائع . ويركبان فيه ، وينطلقان ليسبحا فى عالم السعادة ، وقد أسند رأسه إلى رأسها ، واسترسل فى تخيلاته ، فألفى نفسه يضمها إلى صدره فى وله ، ويمطرها بقبلاته الحارة ، فأحس وهو فى مقعده نشوة عارمة .

وتبدل خيرى ، دب فيه نشاط بعد خمول ، واستيقظت حواسه بعد سبات ، وسبح خياله ، فهام فى سماوات التصورات ، بعد أن كان مشدودا إلى الأرض ، وصار يعتنى بهندامه ، يقف أمام المرآة سويعات ، وما كان يرتدى جاكتته إلا وهو هابط فى الدرج لا يلوى على شىء .

وراح يحيا على الأمل ، يعد الدقائق والساعات ، يرصد يوم الخميس فى قلق ورجاء ، وما انبلج صبح ذلك اليوم الموعود ، حتى فتح صوان ملابسه ، وأخذ يتفرس فى حلله ، يقلب هذه ، ويفحص عن تلك ، حتى اطمأن إلى حلة رمادية جذابة فتناولها ، ونادى الخادم الصغيرة ، وأمرها أن تذهب بها إلى الكواء .

واتجه إلى حيث يضع أحذيته ، وانتقى منها حذاء وضعه فى عناية بالقرب من المشجب ، ثم ارتدى ملابسه وخرج إلى الطريق ، وسار نشيطا ، حتى إذا بلغ الشرفة لم يجدها أحدا ، فانقبض ، وتريث قليلا لعلها تقبل فيبتسم لها ، مؤكدا أنه سينتظرها فى الموعد المضروب ، ولكن مرت لحظات دون أن تفد إلى شرفتها ، فانطلق وهو يحس ضيقا ، لكن سرعان ما انقشع ضيقه ، فقد خطر له أنها تتأهب للقاء الذى يهفو إليه قلبها .

وذهب إلى عمله وهو جذلان ، راح يداعب زملاءه طلق الوجه ، ولم يستطع أن يطوى صدره على سره ، فأخذ يقص عليهم قصة الفتاة الفتانة التى أحبته ، وبعثت إليه تلتمس منه أن يوافيها اليوم ، لتطفئ لهيب الغرام ، وأرضى ذلك الحديث غروره ، فجعل يحدثهم عما سيفعله بعد اللقاء .

وانقضى ميعاد العمل فى الديوان ، فأسرع بالعودة وهو فرحان ، وما بلغ أول الطريق الذى يقطن فيه ، حتى سرى فى جوفه قلق لذيذ ، ومد بصره إلى شرفتها فلمحها ، فرقص قلبه سرورا ، وأغذ السير ، حتى إذا أصبح تحت

شرفتها رفع رأسه ، وافتر ثغره عن ابتسامة ، فخيل إليه أنها تبادله الابتسام ، فسار إلى بيته وهو هيمان .

وجلس إلى طعامه ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان شارد اللب ، مشغولا بما يجرى فى رأسه من رؤى وتخيلات ، فنهض وغادر السفرة ، وذهب إلى مقعد طويل تمدد فيه ، وأرخى لخياله العنان .

راح يفكر فيما سيفعله عند اللقاء ، فرأى أن يذهبا إلى مصر الجديدة ، ثم يستقلا سيارة إلى كازينو مونترو الضارب فى صحراء ألماظة ، لينعما بالهدوء وهواء تلك المنطقة الجاف ، واستراح إلى تلك الفكرة ، ولكن سرعان ما قفزت إلى رأسه فكرة أخرى ، إنها رأت فى منامها أنهما يذرعان حديقة بديعة ثم انطلقا إلى زورق راح يتهادى بهما فى نهر صاف رقراق ، فلماذا لا يحقق لها فى الحقيقة ما رأته فى المنام ؟

واطمأن إلى ذلك الخاطر الجديد ، فقر رأيه على أن يذهبا إلى قصر النيل ، يجوسان خلال حدائق الجزيرة كفراشتين طليقتين ، ثم يركبان زورقا من الزوارق المنتشرة هناك ، يخطر بهما فى النيل ، عند الأصيل ، فيمتعان الطرف بمشاهدة الغروب الفاتن ، الذى يملأ النفوس بالجلال .

وأخذ الوقت يمر وهو غارق فى بحور النشوة المستمدة من الخيال ، ودقت ساعة الحائط الرابعة ، فأحس رنينها فى نفسه ، ارتفعت دقات قلبه ، وأرهفت مشاعره ، وزحفت إلى صدره رهبة خفيفة .

وقام يتأهب للانطلاق للقاء ، فذهب إلى المرآة ، وقرب وجهه ، وراح يتفرس فى صقالها ، فألفى شعرة نابتة فى خده ، فجذبها بالملقاط ، ثم أخذ يرجل شعره اللامع ، وارتدى قميصا أبيض هفهافا ، وتناول رباط عنق جذابا ، راح يعقده فى حرص ، ومد يده إلى العقدة يتحسسها فى رفق ، ليزيل



ثنية خفيفة فى طرفها .

وتناول حلته الرمادية فى حرص بالغ ، ثم ارتداها ، وأخذ يصلح من هندامه ، ويمد يده إلى المنديل المتدلى من جيبه ، يرفعه قليلا ، ثم يخفضه قليلا ، ثم يعود ليرفعه ، حتى إذا استراح إلى وضعه تقهقر خطوة ، وجعل يفحص عن صورته فى المرآة .

وأخذت اللحظات تمر فى بطء ، فطفق يذرع الغرفة صاعدا هابطا ، وقد سيطر عليه اضطراب مشوب بلذة ونشوة ، وخطر له أن يقرأ رسالتها ، فمد يده ، وأخرجها وراح يقرؤها خافق القلب ، مرهف الحواس .

ونظر إلى الساعة ، فألفاها الرابعة والثلث ، فتململ فى ضيق ، واتجه إلى الشرفة ، ووقف يستنشق الهواء ، ولكنه لم يطق أن يبقى فيها طويلا ، فدخل يقطع الحجرات جيئة وذهابا فى حيرة واضطراب . واستقر رأيه أخيرا على مغادرة الدار ، فراح يهبط فى الدرج متمهلا ، حتى يحافظ على رونق حلته .

وسار يتهادى ، حتى إذا بلغ شرفتها زاد وجيب فؤاده ، ورفع عينيه فلم يجدها ، فسرت الطمأنينة فى صدره ، إنها الآن أمام المرآة تتأهب للقياه ، آه لو تدرى لأسرعت بالهبوط ، لينعما بأسعد الأوقات ! وبلغ الميدان ، فوقف عند محطة الترام ، يمد بصره إلى الطريق الذى ستقبل منه فتحية بقامتها المشوقة ، ووجهها الحلو الصبيح ، الذى يزينه عينان صافيتان رائعتان ، وفم فى لون العقيق ، يغرى باللثم والعناق .

ونظر فى ساعته ، فارتفع نبضه ، وزاد خفقان قلبه ، وسرى الدم حارا فى عروقه . إن هى إلا عشر دقائق ثم تقبل فتحية بذاتها اللطيفة . يا طالما حادثها فى الخيال أرق حديث ، وإن هى إلا لحظات حتى يناجيها فى الواقع الملموس ، الذى يفوق سحره سحر الخيال أعذب مناجاة ، وراح يغدو ويروح على

الطوار ، وعيناه ترقبان منفذ الطريق ، الذى ستقبل منه الفتنة والإغراء .

ووقعت عيناه وهو يتلفت على فتاة مقبلة نحوه ، إنها تبتسم له وإن ابتسامتها تتسع وتتسع ، فرمقها فى دهش ، فما كان يحسب أن تبلغ الجرأة بفتاة أن تغازل شابا مثل هذه المغازلة المفضوحة ، ودنت منه وهمست :

ـــ لقاء سعيد يا خيرى بك .

ومدت يدها تصافحه ، فأحس رأسه يدور ، وقلبه يغوص فى قدميه ، وضيقا ينتشر فى صدره ، إنها فتاة سمراء ، مفلفلة الشعر ، واسعة الفم ، جاحظة العينين ، أنفها أقرب لأنوف الزنوج ، وقد انتشر فى وجهها بقع سوداء زادت فى دمامتها .

وهمس فى صوت مفزوع :

ـــ فتحية هانم ؟!

فانفرج فمها الواسع عن أسنانها الصفراء ، فوقف مذهولا لا يدرى ما يفعل ، بعد أن انجلت لعينيه الحقيقة البشعة ، ثارت إحساساته وامتزجت ، حتى كاد يتعطل تفكيره ، وأقبل الترام ، فصعدت فتحية مسرعة ، وصعد خلفها دون أن يدرى .

وأخيرا أفاق من المفاجأة البغيضة ، والترام يجد فى سيره وقفزت إلى رأسه فكرة ، فنهض مسرعا ، وقفز من الترام ، وراح يعدو برهة وهو من الخوف يتلفت !

غيرة القصير

وقف أمام المرآة يصلح من هندامه وهو شارد اللب ، فقد كان يحاول أن يمسك بأطراف أفكاره التي انتشرت في ذهنه كأبخرة لم تتبلور ، لينسج منها قصة ، وخطر له أن يستعير ملامحه لبطل روايته ، فتفرس في صورته المنعكسة على صفحة المرآة ، وأدام النظر إلى وجهه الأبيض المستدير وعينيه الواسعتين ، وحاجبيه اللذين كانا يبدوان كأنما قد رسما بقلم من الفحم ، وشفتيه الرقيقتين ، كانت صورته مقبولة ، وعضلاته مفتولة وعلى الرغم من ذلك لم يرض عن صورته يوما ، فقصر قامته حال بينه وبين الرضا ، فكان يشعر في قرارة نفسه بشيء من الهوان ، وإن حاول جاهدا ألا يبدي إحساسه بهذا النقص الذي يضايقه .

وأقبلت زوجه ، فلمحها في المرآة في ثوب بديع أبرز جمال تكوينها ، فرفع رأسه قليلا ليرنو إلى وجهها الحلو الدقيق ، فقد كانت أطول منه قامة ، فرأى خصلة من شعرها قد تهدلت على وجهها ، فزادت من فتنتها ، ولمحها وهي تمد يدها لتعيد الخصلة إلى مكانها ، وتحرك رأسها الصغير حركة لطيفة ، فراح يرقبها وقد ارتسمت على شفتيه طلائع ابتسامة . كانت مصدر إلهامه ، ومنبع وحيه ، ولطالما أوحت إليه بأفكار .. فجمالها الرائع كان ينبت في صدره وسوسات ، فكان يغذي وساوسه بخياله ، حتى تترعرع في ذهنه ، وتستوي قصة .

وارتديا ثيابهما ، وخرجا معا إلى الطريق ، فراحت تخطر كحلم رائع

هادئ ، وسار إلى جوارها وقد نفخ صدره ، وزها كالطاووس ، لا تيها بالتحفة النادرة التى تشاركه فى حياته بل تحديا للغادين والرائحين ، فقد كان يتلفت يمنة ويسرة يرقب عيون الناس ، فإذا رأى رجلا يصوب إلى امرأته نظره السفيه ، رماه بنظرة ثائرة غاضبة عابسة فيرغمه على أن يغض من بصره ، ويوسع من خطوه ، كان رنو الأبصار إلى زوجه يخنقه ويضايقه وقد يسر هذا الخنق وهذه المضايقة قصر قامته وخياله الخصيب .

انطلقا وهو منتفش كالديك ، واقتربا من فاكهى جوال فارع الطول ، يملأ وجهه شارب ضخم فتل ورفع ، حتى كاد طرفاه المدببان يمسان الأنف المفلطح الكبير ، فرفع بصره إليه ، فألفاه يتطلع إلى زوجه فى فضول بغيض . بعينين براقتين ، فشعر بخنق شديد ، ورماه بنظرة شزر غاضبة ، فلم يحفل به الرجل ، ولم تختلج عيناه خلجة واحدة ، بل ظلتا مصوبتين إلى الجمال اللطيف الآسر للقلوب والأبصار ، فشعر الزوج بعضلات وجهه تتقلص ويمرجل غضبه يفور ، ولكنه كظم غيظه وانطلق ، وما ابتعد عن الرجل خطوات حتى صك أذنيه صوته المنغم ينادى :

ـــ أنا فى حبك ظلمونى يا حلو .

فتدفق الدم حارا إلى رأس الزوج ، وشعر بشواظ من نار تسرى فى عروقه ، وأحس عقدة من الخنق تعقد فى جوفه ، فتضيق من صدره ، وانتفض من الغيظ ووقف وهو يلتقط أنفاسه فى ثورة وجهد ، وهم بأن يدور على عقبيه ، ليعود لذلك المتغزل الوقح ، فيحطم له وجهه ، ولكن زوجته فطنت إلى ما يدور فى رأسه ، فمدت يدها وجذبته بخفة من ذراعه ، فرفع وجهه إليها فرآها ترنو إليه عاتبة ، فكبح جماح نفسه ، وكبت عواطفه الثائرة وانطلق نافخا صدره ، يتلفت يمنة ويسرة ، منفوشا كالديك .

كانا قد خرجا لزيارة أخت زوجته ، فلما اقتربا من دارها التفت إلى زوجته وقال :

— لن أستطيع أن أمكث معك طويلا ، عندى موعد هام .

كانت زوجته تعلم شدة غيرته ، ولطالما أضنتها هذه الغيرة ، فقالت لتسكن فى صدره الطمأنينة :

— انتظرنى لنعود معا .

— لا . يمكنك أن تعودى وحدك .

ودخلا على الأخت ، فألفياها وحيدة ، فانشرح صدر القصير ، وطفق يمد بصره ، ويدور بعينيه فى المكان ، فلم يلمح أحدا فشعر بطمأنينة ، وانتشت روحه ، ولكن لم تدم طمأنينته طويلا ، فسرعان ما غاضت وانتشر فى صدره قلق لما أقبل عديله وصافحه ، ثم اتجه إلى زوجته يصافحها ، ويبالغ فى الترحيب بها .

كان عديله أسمر اللون ، عادى الملامح ، ولكنه كان محدثا لبقا ، وكان طويلا ، فكان هذا من أسباب نكد القصير ، وكان يضايقه لباقته فى الحديث ، فلو أنه كان عييا لما أنصتت زوجته إليه ، ولما انشرحت لما يرويه من أحاديث . جلس صاحب الدار وهو يرحب بها ، ثم أخذ يروى قصة وقعت له فى أسلوبه الفكه ، فضحكت الأختان ، فشعر القصير بيد قوية تهصر قلبه ، وبطعم الصاب من فيه ، فتململ فى كرسيه ، فقالت زوجته :

— لن نستطيع أن نمكث طويلا .

فقالت أختها :

— ولماذا ؟

— حامد عنده موعد هام .

— يذهب إلى موعده وابقى معنا .

وقال صاحب الدار مجاملا :

— وسأوصلك عند عودتك إلى دارك .

فتحركت عقارب الغيرة فى صدر حامد ، وجعلت تلسعه . و لم يطاوعه قلبه الغيور أن يترك زوجته لرجل غريب وإن كان عديله ، فقال وهو يبتسم ابتسامة كادت تفضح ما يكنه صدره .

— أوه تذكرت .

فقالت زوجته باهتمام :

— ماذا ؟

— الموعد غدا لا اليوم .

واستأنفوا أحاديثهم ، وشرد ذهن حامد ، فقد كان يفكر فيما كان المتوقع حدوثه لو انصرف وترك زوجته لعديله . رآهما فى الخيال سائرين جنبا إلى جنب ، هى بقوامها الممشوق ، وهو بقامته المديدة ، وما كان يستطيع أن يتصوره صامتا ، فرآه يتحدث إليها متفكها ، ويتودد إليها فى ظرف ، وهى تنصت إليه جذلانة ، كما تنصت إليه الآن . واستسلم لخياله ، وتهيأ لينسج ما يوحيه خياله المريض ، ولكن ضحكات رنت فى أذنيه ، قطعت عليه حبل تفكيره ، فانتبه واغتصب ابتسامة ، ليوهم الآخرين أنه يشاركهم حديثهم ومرحهم.

و لم تدم انتباهته طويلا ، فسرعان ما شرد ذهنه ثانية ، وجعل يجتر حوادث قصة كتبها ، كانت تشبه ما يجول فى ذهنه الساعة ، و لم يفطن من قبل إلى أنها تترجم عن إحساسات اللحظة ، لعل نفس الإحساسات التى يحسها الآن ، بذرت فى صدره دون أن يدرى من أول يوم رأى فيه عديله ، ثم ترعرعت هذه الإحساسات فحسب أنها من وحى خياله ، فكتبها دون أن يفطن ، إلى أنه

كان يترجم عن مخاوفه ووساوسه .

كانت القصة تدور حول شاب وزوجته ، وأختها التى تعيش معهما ، وفى يوم كشف الزوج أنه يحب أخت زوجته . فحاول أن يكتم إحساسه ، وأن يئد حبه ، ولكن حبه كان طاغيا جارفا ، فاجتاح الحوائل ، وهجر الزوج زوجته ، وفر مع من أحبها .

هذا ما حدث فى القصة ، وهو ما يتصور الآن أنه سيحدث فى يوم من الأيام ، لو أنه ترك كل شيء يجرى فى مجراه ، ولكنه لن يدع ذلك يحدث ، سيفر بزوجته من طريق عديله ، ولن ييسر لهما المقابلة بعد اليوم ، وما وصل تفكيره إلى ذلك حتى هب منتصبا ، وأشار برأسه لزوجته ، فنهضت وانصرفا ، وقد وطن العزم على أن يخاصم عديله ، ليحول بينه وبين زوجه ، وليدرأ ما يهدده به خياله المريض من أحداث .

وراح يبدى نفورا مستترا من عديله كلما قابله ، ويسخر منه سخريات مغلفة بغلاف رقيق من الذوق ، ويستفزه ويخز كبرياءه وخزا ، فتحلم الرجل ، واعتصم بالصبر الجميل ، ولكن ذلك الصبر أحنق حامدا ، فراح يفسره بأن الرجل يحتمل أذاه إرضاء لزوجته التى يهواها ، فكشف عن نفوره ، وهتك الغلاف الرقيق الذى كان يغلف به سخرياته ، وجعل يجرح كبرياء الرجل ، فحلت الجفوة بينهما ، وامتنعا عن التزاور ، فتنفس القصير فى اطمئنان ، وهدأ صدره المكروب ..

ولم يدم هذا الهدوء طويلا ، ولن يدوم ما دام حامد يشعر فى أعماقه بالهوان لقصره ، ويدع نفسه مطية ذلولا لخياله المريض ، ففى يوم مرضت الزوجة ، وعادها أكثر من طبيب ، فقرروا علاجا يحتاج إلى بعض العناية ، وفضلوا انتقالها إلى مستشفى تمرض فيه ، كانت الزوجة تفضل أن تعالج فى بيتها ،

ولكن القصير راح يقنعها بأفضلية العلاج فى المستشفى ، فاقتنعت .

ودخلت الزوجة المستشفى ، وأقبل حامد فى عصر ذلك اليوم ، الذى دخلت فيه ليزورها ، وسار منبسط الوجه ، هادئ النفس ، حتى إذا ما دخل غرفتها ، ورأى طبيبا شابا بجوارها وهى تبتسم ، أو خيل إليه ذلك ، اكفهر وجهه ، وتلبد بغيوم الغيظ ، وثارت نفسه ، وهب خياله يغذيه بشكوكه فيضنيه .

كان الطبيب معتدل القامة ، فيه وداعة محببة ، يرنو إلى زوجته بعينين جذابتين ، وهو قابض على معصمها يجس نبضها ، فأحس غيرته تكساد تعصف به ، وشعر بوخز فى صدره ، وبجفاف فى حلقه ، وتذكر أنه كتب قصة حول طبيب كان يعالج فتاة ، فتوطدت الألفة بينهما على مر الأيام ، ثم تطورت إلى حب عميق ، إن هذا الطبيب الشاب الوسيم ، سيقابل زوجته الجميلة فى الليل والنهار ، فما يدريه أن هذه المقابلات لن تتطور إلى ألفة ، ثم إلى حب عميق ؟

وأطرق وقد نزل بصدره ضيق ، وخرج الطبيب ، وبقى وحده فلم يحادث زوجته ليرفه عنها ، بل ظل فريسة طيعة لأفكاره ، التى أخذت تعذبه وتضنيه ، وفيما هو فى إطراقه ، أحس حركة عند الباب ، فرفع رأسه ، فرأى عديله وزوجته ، فزاد امتعاضه واستياؤه وزاد كربه ، أما يكفيه الطبيب حتى يأتيه العديل !

وانتزع ابتسامة كانت تقطر مقتا ، ومد يده يصافح الأيدى الممدودة ، ولم يبد ترحيبا ، وانطلق العديل إلى فراش المريضة ، وجلس على حافته ، فما وجد مقعدا فى الحجرة ، وراح يحادثها متلطفا محاولا التخفيف عنها ، فكانت تبتسم فشعر حامد بسكين تمزق قلبه ، وبأظافر حادة تنهش صدره . ومر

الوقت ثقيلا بطيئا ، وأخيرا انصرف عديله وزوجته ، ولكن حامد لم يحس ارتياحا ، فالخطر جاثم هنا فى هذا المستشفى ، يهدده فى كل لحظة ، وفى كل ساعة .

وشرد ذهنه ، فرأى الطبيب بعين خياله بجوار زوجته ، بقامته المعتدلة ووجهه المشرق الصبيح ، فانقبض ، ورأى عديله يأتى فى الصباح ، وفى المساء ، فباب المستشفى مفتوح ، فزاد انقباضه ، وأقبل الليل ، فتراكمت فى مخيلته أفكاره السود ، فعزم على ألا يترك المستشفى ، قبل أن يأخذ زوجته معه ، فلن يدعها لعديله ، ولذلك الطبيب .

اقترب من زوجته وقال :

ــ سنعود إلى البيت الآن معا .

فبان الدهش فى وجه الزوجة ، وقالت فى عجب :

ــ ولماذا ؟

ــ لا أحتمل دخول البيت ، وأنت بعيدة عنه .

وحزرت زوجته ما يكابده من وساوس ، فنهضت ترتدى ثيابها لتنصرف معه ، فقد كانت تعلم أنه عنيد ، وانفلتا من المستشفى متسترين بالظلام ، وأسرع فى سيره ، ليفر بزوجته من المصير الذى صوره له خياله المريض !

قصرٌ في الجنة

رفع بصره عن الكتاب الذى كان يقرأ فيه ، ونظر إلى ساعته ، فألفى أن ميعاد ذهابه إلى الزمالك لزيارة خطيبته قد اقترب ، فوضع الكتاب المطبوع فى ورق أصفر على حافة مكتبه الأنيق ، ثم نهض ليتأهب للخروج .

إنه شاب متوسط القامة ، متناسب التقاطيع ، حلو القسمات له عينان سوداوان ، وأنف دقيق ، وفم صغير يحرسه شارب خفيف ، تلوح عليه البراءة والصفاء ، تلقى علومه فى الجامعة ، والتحق عقب تخرجه بوزارة الخارجية ، وعشق القراءة ، فما كان يغادر داره بعد عمله إلا لماما ، ولكنه ما كان يقرأ الكتب الحديثة أو الكتب العربية القديمة ، بل كان يهوى الكتب الصفراء التى تبحث فى الجنة والنار ، والبعث والحساب ، وقصص الأنبياء والأولياء ، وحكايات الصالحين والمتصوفين ، فيقبل عليها فى شغف ولذة .

وكان إذا تعب من قراءته يجلس إلى أمه وأقاربه ، يصغى فى اهتمام إلى القصص العجيبة التى يرددونها عن الأقطاب ، الذين كشف عنهم الحجاب ، أو يقص عليهم بعض النوادر التى قرأها فى كتبه الحبيبة عن الأولياء ، الذين أتوا فى كل خطوة معجزات يعجز عنها الرسل !

كان متدينا ، وما كان يعرف دينه الصحيح ، فقد شب وهو يصغى إلى البدع ، ويتلقى تعاليم دينه من أفواه العوام وأمه العجوز .

دخل غرفته ليرتدى ملابسه ، وفتح الصوان ، وأخرج حلة فاخرة ،

وقميصا أبيض هفهافا ، وهم بتبديل ثيابه ، ولكنه تذكر أنه سيمضي الوقت بين المغرب والعشاء فى بيت خطيبته ، فذهب يتوضأ حتى لا تفوته الصلاة .

ولبس ثيابه ، وخرج يتلفت ، فلما لمح سيارة قادمة أشار إليها ، ثم ركبها ، وانطلقت به وهو غارق فى غمرة من النشوة . فقد احتلت فكره صورة خطيبته الشابة الجذابة . وأمام قصر فاخر من قصور الزمالك وقفت السيارة ، فهبط منها فى عظمة ، وتقدم فى ثبات ، وأقرأ البواب النوبى السلام ، وسار فى الحديقة المنسقة تنسيقا بديعا بضع خطوات ، ثم راح يصعد فى الدرج الرخامى الفاخر ، فى تؤدة ووقار ، وقلبه يخفق فى جوفه طربا .

ودخل غرفة الاستقبال ، وغاص فى مقعد وثير ، وراح يتلفت فى إعجاب ، كان كل ما فى المكان ينطق بالبذخ والروعة ، فالصور الزيتية التى تزين الحيطان تسلب الألباب ، والرياش الفاخر والطنافس الفخمة ، والأثاث الرائع ينتزع الإعجاب ، وسمع حركة ، فنظر صوب الباب ، فرأى خطيبته قادمة بقامتها الممشوقة فى ثوب وردى ، فبدت كملاك ، فخفق قلبه فى صدره ، وانتصب واقفا ، وأقبلت تخطر فى خفة الغزال ، فلما دنت افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ، أضاءت نفسه ، فابتسم فى انشراح ، ولكنه لم يقدم يده ليصافحها ، كان يخشى أن تنقض وضوءه .

وقعدت وقعد ، وجعل يرنو إلى وجهها المليح وهو جذلان ، ويتحدث إليها وهو نشوان .

وأقبلت حماته ، فنهض وحياها فى أدب ، ولم يصافحها ، وجلسوا يتحدثون ، ومر بعض الوقت ، وفر النهار ، ووفدت طلائع الليل ، ورأت الحماة أن تنهض ، متظاهرة بقضاء حاجة ، لتخلى الجو للخطيبين ، فقامت مستأذنة ، وغادرت المكان .

ورنت الفتاة إليه بعينيها الرائعتين ، وقد انبعث منهما بريق خاطف عبث بأوتار فؤاده ، وألقت رأسها إلى الخلف فتهدل شعرها السبط الحالك السواد كليلة ظلماء ، وزمت شفتيها الممتلئتين ، فكانت فتنة ، إنها تهيأت للقبل ، وباتت تنتظر أن يهوى بشفتيه على شفتيها ، وصدرها فى علو وانخفاض ، وغض من بصره ، وقال فى صوت خافض :

— سجادة الصلاة من فضلك .

فنهضت وهى تحس خيبة ، وانطلقت متبرمة لتحضر ما طلب ، وما غابت عن عينيه حتى أخذ يلتقط أنفاسه المكروبة ، ويجفف العرق المنبثق من جبينه ، وعادت وفى يدها سجادة جديدة لم تستعمل من قبل ، زخرفت برسوم وتهاويل تشغل العابد عن صلاته ، فتناولها منها شاكرا وفرشها ، وخلع حذاءه ، ووقف يصلى فى خشوع .

وغاصت فى مقعد وثير ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الفتنة والإغراء ، وأخذت تنظر إليه وقد انتشرت فى صدرها سحائب من الضيق ، وجاءت الأم ، فلما ألفته قائما يصلى لوت شفتها السفلى ، وقعدت بعد أن فطنت إلى أنه ليس هناك ما يدعوها إلى انتحال الأعذار لمغادرة المكان .

والتفت إلى اليمين وهو يسلم ، فوقعت عيناه على الساقين الجميلتين ، فأسبل جفنيه ، ثم التفت فى سرعة ناحية الشمال ، ونهض وهو يتمتم بالاستغفار ، وقالت له الأم وهى تبتسم :

— حرما ..

فقال فى حرارة :

— جمعا إن شاء الله .

وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون ما فعلوه استعدادا لليلة

الزفاف .

وعاد إلى داره وهو يحس خفة ، وفرحا يلفه ، فقد جلت تلك الزيارة صدره ، ودخل فراشه ، وأطلق لخياله العنان . فأخذ يجتر ما حدث له فى يومه ، رأى خطيبته وهى ترنو إليه بعينيها الساحرتين فى وله وهيام ، وقد ألقت رأسها إلى الخلف ، واستدارت للقبل فاضطرب ، واستيقظت مشاعره الكوامن ، وانبعث من جوفه صوت راح يؤنبه على أنه لم يضمها إليه ويقبلها قبلة حارة ، تترجم عما يكنه لها من حب ووجد ، إنها خطيبته وعما قليل تصبح زوجته ، فلماذا لا يداعبها مداعبة لطيفة ، ويناجيها مناجاة رقيقة ، ويهمس فى أذنها بحديث عذب يدغدغ حواسها ، وينعش فؤادها ؟!

وظل ذلك الصوت يحرضه على أن يبدى لها حبه حتى استجاب له ، فعزم على أن يعتصرها إذا ذهب لزيارتها ، وأن يغمرها بقبلاته ، وأن يسمعها وجيب قلبه الولهان . وما كاد يستريح إلى ذلك العزم حتى هب خاطر جديد قوض ذلك العزم ، وجعله ككثيب من الرمال .

تذكر أن صديقا من أصدقائه خطب فتاة ، فكانا يخرجان معا ، يقضيان شطرا من الليل فى الملاهى ودور اللهو ، يعبان كئوس الحب مترعات ، وفى لحظة من لحظات النشوة انطلقا فى حبهما حتى النهاية ، فلم يفزعا ، فما كان يفصل بينهما وبين ليلة الزفاف إلا أيام ، وقبل الليلة الفاصلة وقعت حادثة ذهب ضحيتها الشاب ، مخلفا خطيبته للذل والعار .

واحتلت هذه الذكرى أقطار نفسه ، فمشت فى يديه رعدة ، ولفه خوف ، ونكص عن عزمه ، وصمم فى نفسه على ألا يرتكب ما قد يقوده إلى مثل تلك النهاية البغيضة ، فما يدرى ما تخبئه الأقدار ؟!

وفى عصر يوم من الأيام ، دخل مكتبه ، وأخذ يقرأ « حكايات

الصالحين » ، ومر الوقت وهو فى مطالعته ، حتى بلغ حكاية استحوذت عليه ، فراح يقرؤها مرهف الحس مشغوفا ، وما أتمها حتى أغلق الكتاب وهو مفعم بالنشوة ، وغادر مكتبه ، وذهب ينقب عن أمه فى غرف الدار .

ألفاها جالسة بالقرب من النافذة تستنشق الهواء ، وتقطع الوقت بالتطلع إلى الغادين والرائحين ، فدنا منها وقال فى صوت خافت :

— هنيئا له .

فالتفتت أمه إليه ، وقالت فى استفسار .

— من ؟

— شاب رأى ما أعد له فى الجنة قبل أن يموت .

فنظرت إليه أمه وفى عينيها اهتمام ، وقالت :

— كيف ؟

فقعد بالقرب منها ، وتهيأ للحديث ، ثم قال :

— خرج جيش من جيوش المسلمين يغزو أرض الروم . وكان فى ذلك الجيش شاب يصوم النهار ويقوم الليل ، وجعل ذلك الجيش يتقدم فى زحفه ، حتى حاصر حصنا من الحصون ، وفى ليلة من الليالى خرج ذلك الشاب فيمن خرج ، ليحرس القوم ، فظل يتعبد دون نصب أو كلال ، فلما طلع الفجر دنا منه رجل ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، إن رحمتها كانت خيرا لك » فقال له الشاب : « يا أخى ، إنما هى أنفاس تعد ، وعمر يفنى ، وأيام تنقضى ، وأنا رجل أرتقب الموت » . فجعل الرجل يقسم له أن يدخل الخيام ليستريح ، فدخل ونام ، وفيما هو فى نومه أتاه رجلان لم ير أحسن منهما ، فسلما عليه ، فرد عليهما السلام ، فقالا له : « أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك ، واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشرى ،

فانطلق معنا حتى نريك ما أعد الله لك من نعيم » .

فانطلق معهما ، وإذا بخيل لا تسبقها خيل ، كأنها البرق الخاطف ، أو هبوب الريح ، فامتطوها .

وانطلقوا حتى انتهوا إلى مجالس ذات أسرة من ذهب وهاج ، مكللة بالجواهر ، محفوفة بكراسي من اليواقيت ، وعلى كل سرير جارية أحسن من القمر ، وفى وسطهن جارية أحلى من الحسن ، وأنضر من الورد ، كأنها الشمس تحف بها الأقمار ، فقال الرجلان للشاب : « هذا منزلك ، وهؤلاء أهلك ، وهنا مقيلك » ثم انصرفا عنه ، فوثبت الجوارى إليه بالترحيب ، ثم حملنه حتى أجلسنه على السرير الأوسط ، إلى جانب الجارية المليحة ، ثم قلن له : « لقد طال انتظارها لك » .

وأخذ الشاب والجارية يتجاذبان أطراف الحديث ، قال الشاب : « أين أنا ؟ » فقالت الجارية : « فى جنة المأوى ! » فقال : « ومن أنت ؟ » فقالت : « زوجتك الخالدة » ، ومد يده ليضمها إليه ، فردتها ردا رفيقا ، ثم قالت : « أما اليوم فلا ، فإنك راجع إلى الدنيا ، فتقيم ثلاثة » . فقال لها : لا أحب أن أرجع » . فقالت : لابد من ذلك » .

واستيقظ من نومه لا صبر له عنها ، ثم قام فتطهر وتطيب ، وأخذ سلاحه ، وتوجه إلى موضع القتال وهو صائم ، فقاتل إلى الليل ، ثم انصرف ، فتحدث الناس بقتاله ، ثم مكث قائما يصلى حتى آخر الليل ، ثم أصبح صائما يقاتل أبلغ مما فعل بالأمس ، فلم يزل يلقى نفسه فى المهالك إلى غاية النهار ، وهو لا يصل إليه شيء مما كانوا يرمونه عليه ، وظل يتقدم كليث كاسر كشر عن أنيابه حتى بلغ باب الحصن ، وجعل يعالجه حتى فتحه ، وفى هذه اللحظة جاءه سهم فى منخره فخر صريعا ، وصعدت روحه إلى جنة

المأوى ، لتنعم بالزوجة الخالدة .

وصمت قليلا ثم غمغم :

— هنيئا له .

وقالت أمه فى ابتهال وهى ترنو إلى السماء من النافذة :

— اللهم عدنا !

وأطرق يفكر فى الجنة وقصورها .

وأفاق من حلم يقظته ، فنهض يتأهب للذهاب إلى قصر الزمالك ، ليقدم لخطيبته هدية .

ودنا من القصر ، فلمحه البواب النوبى ، فهب واقفا يرحب بمقدمه بشا ، وقد لمعت عيناه وأسنانه البيضاء فى رقعة وجهه السوداء ، وراح يصعد فى الدرج الرخامى متمهلا ، وهو ينمق مقالة رقيقة يقدم بها هديته .

وقادته الخادم إلى شرفة رحبة ، تطل على حديقة الدار ، فراح يقلب ناظريه فى الورود والأزهار ، ويملأ رئتيه بالعبير الفواح وهو نشوان ، وجاءت فى ثوب سماوى أبرز فتنتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خفق قلبه ، ورفت على شفتيه ابتسامة ترحيب ، وحيته فى رقة ، وجلسا يتحادثان .

كان يتلفت نحو الباب بين لحظة وأخرى ، يرصد إقبال حماته . وكان يرجو من كل قلبه أن تقبل ، وأن لا تغادر الغرفة حتى لا ينفرد بخطيبته ، ولكنها لم تظهر ، فقال فى رقة :

— أين ماما ؟

— خرجت .

فأحس رهبة تنتشر فى صدره ، وتململ فى جلسته ثم دس يده فى جيبه ، وأخرج علبة فاخرة من القطيفة ، وقدمها إليها وهو يقول :

— تفضلي .

وسكت ولم يتفوه بكلمة من المقالة التي نمقها ، فتناولت العلبة وفتحتها ، فانبسطت أساريرها .. كانت هديته عقدا من اللؤلؤ ، فراحت تقلبه وهي تقول دون أن ترفع عينيها عنه :

— متشكرة .

ورفعت العقد بين يديها ، ثم وضعته على جيدها ، وحاولت أن تشبكه حول عنقها ، ولكنها وجدت عنتا ، فالتفتت إليه وعيناها تفيضان بالبشر ، وقالت :

— تسمح ؟!

واستدارت له ، فمد يده وجعل يشبك العقد في أناة ، وإن كان الدم يتدفق حارا في عروقه ، وقلبه يخفق في شدة واضطراب ، وثارت مشاعره ، وتآمرت عليه ، فجعلت تهتف به أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يضمها إلى صدره الذي اشتعلت فيه النار ، وأن يهوى على عنقها بقبلة تطفئ ذلك اللهيب .

وكاد يضعف ويستجيب لهواتف نفسه ، ولكن خيل إليه أنه في قصر في السماء ، وقد التف حوله الوصيفات ورحن يهتفن به : « مهلا حتى يتم الزواج » ، فكبت عواطفه التي كانت تمور في صدره فوارة دافقة .

ونهضت بقامتها الممشوقة ، واتجهت إلى مرآة قريبة لترى العقد في جيدها : فأخذ يتبعها بعينين براقتين وفي جوفه ثورة ، ورأى أنه لو مكث أكثر من ذلك فقد تقهره رغبته ، فوطن النفس على الفرار .

أقبلت تخطر في روعة ، وجلست إلى جواره ، وقد التصقت كتفها بكتفه ، فأحس دبيب الثمل يسرى في جسمه ، وملأت رائحتها الزكية أنفه ،



فدار رأسه ، وكاد يضعف ، ولكنه ملك نفسه ، ونهض وهو يقول :

— أرجو أن تسمحي لي بالانصراف .

فنظرت إليه وقد اتسعت حدقتاها ، وقالت :

— هكذا سريعا ؟

— إني ذاهب لقضاء بعض الحاجات .

فقالت في دلال :

— انتظر حتى تعود ماما .

ولو طاوع نفسه لجلس ، ولكنه كان يخشى ذاك السكون المخيم عليهما ، وتلك النزوات التي كانت تستبد به أحيانا كمارد جبار ، فقال :

— بلغي تحياتي لماما .

ومد يده وصافحها ، فألفى نفسه يضغط على يدها في خفة ، ويجذبها إليه قليلا ، فلمعت عيناها ببريق أخاذ ، وتضرجت وجنتاها بحمرة ، فقد تدفق الدم الفوار إلى وجهها ، وترددت أنفاسها سريعة ، فاضطرب وإن كانت النشوة قد ملأت أقطار نفسه .

وغادرها وأخذ يقطع الردهة الطويلة في خطا واسعة . وصدره مسرح لإحساسات متضاربة ، انتشرت فيه مشاعر الحب ثائرة مزمجرة ، كما انداحت فيه راحة لطيفة لانتصاره على هواتفه ، وبلغ الدرج الرخامي ، فراح يهبط فيه متمهلا ، ولفحه النسيم المنعش ، فهدأت ثورة مشاعره .

وفي ذات يوم خرج ليشتري بعض أشياء ، وفيما هو سائر لمح جنازة متواضعة في طريقها إلى مسجد الحسين ، فوقف يتشهد ، وخطر له خاطر ، لقد سمع من أمه وممن خالطهم ، أن من يحمل ميتا ويسير به إلى قبره يبني له قصر في الجنة ، فلماذا لا يتقدم ويشارك في حمل النعش ، فيضمن لنفسه قصرا

يغص بالجوارى والولدان والحور العين ؟!

واستولى عليه ذلك الخاطر ، واطمأن له ، فتقدم ثابت الخطو ، وحمل النعش ، وقد انتشرت فى جوفه إحساسات الرضا ، وسار ووجهه منبسط : وما فطن إلى أن الناس قد وقفوا يرمقونه فى دهش ، كان الرجل الوحيد الأنيق ، فى جنازة من الحفاة ولابسى الجلابيب الزرقاء .

وانطلقت الجنازة ، ووقفت شابة وسيدة تنظران إلى ذلك الأنيق الذى يحمل النعش ، وما وقعت عيونهما عليه حتى أنكرتا ما رأتا ، وأخذتا تتبادلان النظر فى دهش ، كانتا خطيبته وأمها ، خرجتا لاستكمال بعض الحاجات قبل ليلة الزفاف .

وغمغمت الأم فى أسى :

— يا للفضيحة !

واربد وجه الفتاة : ولاح فيه الحنق الشديد والغضب الثائر ، وأحست خنجرا يطعن كبرياءها ، ففكرت فى الفرار ، ولكنها عادت وصممت على أن تدنو منه ، لتريه أنها قد رأته فى موقفه الشائن ، فجذبت أمها من يدها وقالت لها :

— تعالى .

واندفعت إليه ، وأخذتا تحملقان فى وجهه وعيونهما تقذف حمما من الغضب ، ووقع بصره عليهما فارتبك ، ولكن لما ابتعدتا عنه أقلع ارتباكه ، ولج فى سيره ، حتى لا يقوض القصر الذى بدأ يبنيه فى السماء .

وبلغت الجنازة مسجد الحسين ، فوضع حمله ، وعاد مهرولا ، ينقب عن خطيبته وأمها هنا وهناك ، وقد تفصد عرقه ، ولما يئس من أن يعثر عليهما ، عزم على أن يذهب لزيارتهما بعد صلاة المغرب .

وقضيت الصلاة ، فانطلق فى سيارة إلى الزمالك ، وهو يحس قلقا ، ولما وقفت السيارة أمام القصر ، زاد ارتباكه ، وهبط منها وهو يضطرب ، وتقدم فى خطا ثقيلة وهو يتلفت ، وقع بصره على البواب النوبى ، فألفاه متجهما ، فانقبض وأحس خوفا . ودنا من البواب ، وقال فى صوت متهدج :

ـــ السلام عليكم .

وهم بالدخول ، ولكن البواب لم يفتح الباب ، وقال فى لهجة خشنة :

ـــ إلى أين ؟

فقال فى تخاذل :

ـــ الهانم فوق ؟

ـــ الهانم لا تريد أن تقابلك .

وقف مشدوها لا يدرى ما يفعل ، وثارت كرامته وغضب وتركه البواب وغاب فى غرفة صغيرة ، وعاد وفى يده لفافة ، دفعها إليه وهو يقول :

ـــ وقد نصحتنى أن أعيد لك هذه .

تناول اللفافة فى تراخ ، وقفل عائدا منقبض النفس ، مطأطئ البصر ، لقد أعادت إليه هداياه ، وقطعت كل ما بينه وبينها من سبب ، وسار حزينا محطما ، وفى ذلك اليأس المرير قفزت إلى ذهنه فكرة ، بددت بنورها الظلام الذى يخيم على كهف صدره ، فغمغم :

ـــ إن كنت خسرت قصر الزمالك ، فقد كسبت قصرا فى الجنة !

قصة الحذاء

سمعت طرقا خفيفا على باب مكتبى ، كان متناهيا فى الرقة ، ففطنت إلى أن صاحبه يحاول أن يوحى إلىّ أنه رجل مهذب ، لا يحب إقلاق الناس ، وإن حزرت أنه صاحب حاجة ، جاء إلى الديوان يلتمس منفذا لحاجته ، فقلت :

ـــ تفضل .

فدلف إلى الحجرة إنسان قمىء ، ترف على فمه ابتسامة ، وما إن وقعت عيناه علىّ حتى حنى رأسه فى أدب وقال :

ـــ حضرتك مصطفى بك ؟

ـــ نعم . أية خدمة ؟

ـــ لى موضوع هنا أحب أن أعرضه على سعادتك .

فأشرت إلى كرسى قريب منى ، وقلت :

ـــ تفضل .

وقعد وسحب الكرسى واقترب منى وقال :

ـــ تقدمت فى مناقصة لتوريد زيوت للوزارة ، ورسا علىّ العطاء ، وحدد يوم ١٠ لانتهاء التوريد ، ومضى ذلك التاريخ ، ولم أستطع تنفيذ العقد ، كان التأخير لأمر خارج عن إرادتى ، اشتريت من تجار كثيرين ، ولم أتسلم الزيوت فى الميعاد الذى اتفقنا على أن أتسلمها فيه ، ولقد قرروا هنا الشراء من السوق على حسابى وتحميلى فرق الأسعار ، ولو تم ذلك كان فيه خرابى .

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أن تمد أجل التوريد .

— هذا ليس من شأنى ، هذا من اختصاص وكيل الوزارة .

— قيل لى إنك تستطيع أن تقنع الوزارة بمد أجل التوريد . أرجو منك أن تفعل شيئا ، اشتريت بكل أموالى زيوتا ، سأتسلمها قريبا ، فإذا لم أوفق فى مد أجل التوريد ، فسأصاب بكارثة .

— سأهتم بهذا الموضوع .

— أرجو منك .. مستقبلى بين يديك .. لن أنسى هذه المكرمة ما حييت .

وصافحنى الرجل وهو يشد على يدى ، وخرج وهو ينحنى فى أدب . وجلست أكتب مذكرة للوزارة أطلب فيها امتداد أجل التوريد ، وذهبت إلى الوزارة ، وقابلت هذا وذاك ، وتمكنت بعد لأى أن أحصل على الموافقة المنشودة ، وأخطرت الرجل ، فجاء إلى يسعى ، يزجى إلىّ عبارات الشكر والتقدير .

ومرت أيام ، ووفد إلى مكتبى ذلك الرجل القمىء ، يبتسم فى رقة ، وينحنى فى احترام ، فلما وقعت عيناى عليه قلت :

— خيرا ؟

— أتممت التوريد ، ولم أصرف بعد ثمن ما وردت .

فاستفسرت عن سبب تأخير الصرف ، فعلمت أن هناك بعض الإجراءات لم تستوف بعد ، فوعدت الرجل خيرا ، وانصرف من عندى وهو يكرر الشكر ، ويدغدغ أذنى بعبارات الثناء .

وما انقضى على انصرافه يومان حتى تسلمت رسالة سرية من الوزارة ،

ففضضتها فإذا بها شكوى من ذلك الرجل القميء . يتهمني فيها صراحة أنني أتعمد تأخير صرف قيمة الزيوت التي أتم توريدها ، فانتشر الضيق في صدري ، وأحسست دماء حارة تتدفق في عروق ، وشردت قليلا ، فتذكرت قصة الحذاء ، فخمدت ثورتي ، وارتسمت على شفتي ابتسامة زراية . كانت تلك القصة البلسم الشافي لنفسي ، كلما أساء إلىّ من أحسنت إليه :

كنت رئيسا لفريق كرة القدم بالمدرسة الابتدائية ، وفي يوم من أيام الخميس جاءني ثلاثة أقارب لزملاء لي في المدرسة ، وقالوا لي :

ــ سنتبارى اليوم مع فريق من فرق الحي ، ونحب أن تلعب معنا ، إنها مباراة هامة ، إذا فزنا فيها انعقدت لنا بطولة الحي .

فاعتذرت بأني أرسلت حذاء الكرة للإصلاح ، ولن يتم إصلاحه قبل يوم الجمعة ، فقال أحدهم :

ــ عندنا أكثر من حذاء .

وقال آخر :

ــ عندنا حذاء جديد يليق بك .

وعرضوا على أن أذهب معهم ، فانطلقنا إلى دارهم يتملقونني ، ويتحدثون عن براعتي في اللعب ، وأنا مطرق حياء ، حتى إذا بلغنا البيت ، دلفنا إلى غرفة بها أرائك عتيقة ، وبعض أحذية الكرة ، وملابس مبعثرة ، أجلسوني في الصدر وغاب أحدهم ، وعاد يقدم لي كوب شراب الليمون ، فشربته وقد شاعت في نفسي إحساسات الرضا ، وقدموا إلىّ حذاء جديدا ، فخلعت حذائي ، وهممت بلبس حذاء الكرة ، فامتدت أكثر من يد تعاونني على لبسه ، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وأنا أنظر إلى الحذاء ،

وأضرب به الأرض ، فقال أحدهم :

— رائع .

فذهبت إلى الأريكة ، وجلست ورفعت رجلى لأخلع الحذاء ، فإذا بأصوات تقول فى استنكار :

— ماذا تفعل ؟

— أخلعه .

— لا .. لن تخلعه .

— لماذا ؟

— سيبقى فى قدميك حتى تذهب به إلى الملعب .

فقلت فى إنكار :

— أسير فى الطريق وفى قدمى حذاء الكرة !

— كلنا نفعل ذلك .

ولفوا حذائى فى ورقة ، ووضعوه تحت إبطى .

واستأذنت فى الانصراف ، فعرضوا على أن أتغدى معهم ، وألحفوا فى العرض ، فاعتذرت بأننى لم أخبر أهلى ، وهبطت إلى الطريق ، والثلاثة من حولى ، حتى إذا بلغت رأس الشارع ودعونى فى حرارة ، فانطلقت وأنا نشوان ، هزتنى تلك المعاملة الطيبة ، ومست شغاف قلبى .

وذهبت إلى الملعب ، وما إن لمحونى قادما حتى خفوا إلىّ مرحبين وأحاطونى بعطفهم ، حتى غرقت فى السعادة .

وبدأت المباراة ، فعقدت العزم على أن أبذل غاية ما فى وسعى من مجهود ، فهذا أقل ما أقابل به ذلك الكرم .

ووفقنى الله ، فسجلت لهم إصابة ، ثم أردفتها بأخرى ، وانتهت المباراة

وقد فازوا بهاتين الإصابتين ، وتفرقت الجموع ، وأقبل الثلاثة إلى يهرولون ، فحسبتهم قد خفوا إلى يزجون آى الشكر وعبارات الإطراء ، فرقص قلبى فى جوفى ، وإن تدفقت إلى وجهى دماء الخجل .

قال أحدهم وهو ملهوف :

— الحذاء ؟

فقلت فى بلاهة :

— ماذا ؟

— نريد الحذاء .. اخلع الحذاء .

فقلت فى إنكار :

— الآن ؟!

— نعم الآن .

— ليس معى حذاء آخر ، ولا أستطيع أن أسير حافيا .

— هذا ليس من شأننا ، نريد الحذاء .

— تعالوا معى إلى بيتنا .

— لا .. إننا نريد الحذاء .

وجلست على الأرض مقهورا ، وقبل أن تمتد يدى إلى رباط الحذاء ، امتدت أكثر من يد ، وما هى إلا لحظات حتى كنت فى الأرض الفضاء وحدى ، عارى القدمين إلا من الجورب .

هذه هى قصة الحذاء التى أتذكرها كلما وقعت على إساءة ممن أحسنت إليه ، فتجلب على شفتى بسمة ازدراء ، وتنزل بصدرى تلك الراحة التى يحسها من فقد إيمانه بالناس .

فارس وامرأة

١

أتم منصور الرواية التى كان يقرؤها ، فطواها وهو يزفر زفرة ارتياح ، ولاح فى وجهه انشراح ، ووضعها على ركبته ، ثم ألقى برأسه إلى الخلف ، وأسبل عينيه ، وأخذ يجتر فى لذة وشغف فعال البطولة والشهامة التى قام بها البطل ، ثم ما لبث كما هى عادته ، أن أقحم نفسه فى غمار الحوادث ، فانتزع من البطل بطولته ، وتسربل بها ، ورأى نفسه بعين خياله فارسا مجلى يركب الصعاب ويقتحم الأهوال ، ويقاسى فى سبيل حبه النبيل أشد المقاساة ، حتى ينعم فى الختام بالحبيبة ربة الطهر والعفاف .

رزق منصور بسطة فى الجسم ، وقوة فى الذراعين ، وسذاجة لا تتفق ومظهره الجبار ، وكان فى قرارته راضيا عن نفسه كل الرضا ، مع أنه لم ينل إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ثم اضطرته قسوة الحياة أن يحترف حرفة لتدر عليه رزقا ، إلا أن ذلك لم يفت فى عضده ، بل راح يعمل على أن يثقف نفسه بنفسه ، فعكف على قراءة الروايات ، فشغف بها حبا ، فما كان يسير فى الطريق ، إلا وفى يده رواية ، وما كان يرى فى البيت إلا قارئا أو سابحا فى بحور الخيال .

وباتت أمنيته فى الحياة أن تهبط عليه من السماء ، فتاة كتلك الفتيات

الرائعات ، اللائى يهبطن على أبطال الروايات ، يرعاها بعطفه ، ويغمرها بحبه ، ويبثها مكنون نفسه ، ويكافح فى سبيلها ، وينافح عنها حتى تخلص له وحده ، ويعيشا فى سعادة وهناء . وكان يرى فتاته بعين الخيال ، فى لحظات التأمل التى تعقب قراءة الروايات ، لذلك ما كانت تستقر على حال ، بل كانت تتغير وتتبدل بتغير البطلات ، فمرة سوداء الشعر بيضاء البشرة ، سوداء العينين ؛ ومرة ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، ومرة سمراء خفيفة لطيفة . وما كان يغوص فى نفس فتاته ، فما كانت الروايات التى يقرؤها لتهتم إلا بالمظهر الخارجى الجذاب للفتيات ، إن كل ما يطلبه أن تكون مثال العفة والوفاء .

وظلت أمنيته تداعبه فى خلوته ، فعاش يترقب اللحظات السعيدة التى ستهبط عليه فيها حبيبة الفؤاد ، لتحيل حياته الفارغة إلى قصة جذابة ، ينعم فى عالمها الواقعى بما ينعم به فى دنيا الخيال ، وكان يؤمن فى نفسه ، أن القدر يخبئ له مفاجأة كتلك المفاجآت السعيدة التى يدخرها مؤلفو الروايات ، ليمنحوها أبطالهم مكافأة لهم على ما قاسوه من مشقة وحرمان ، وكان يعتقد أن ذلك لن يتأخر طويلا ، ولكنه ما كان يدرى على أية صورة من الصور البهيجة ، ستقع هذه الحادثة المرتقبة ، فما كان يرفع بصره عن الروايات ليرى الفتيات اللاتى يملأن الدنيا حوله حياة ..

وفى صباح يوم من أيام الصفاء ، خرج منصور من داره ، ولم يكن فى يده كتاب ، فقد أتى قبل طلوع النهار على الرواية التى كانت معه ، انطلق ساهما يقطع الطريق التى اعتاد أن يذرعها كل يوم فى ذهابه إلى العمل ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يحادثها وتحادثه ، وملأ خياشيمه فجأة عبير حلو نفاذ ، فإذا فتاة على قيد خطوات منه ، راعه منها دقة خصرها ، وتناسب جسمها ،

وحسن تكوينها ، فوسع فى خطاه ، حتى إذا ما حاذاها أحس رعدة خفيفة تسرى فيه ، والتفت إليها يتفرس فى وجهها ، فبهره جمالها ، وكان قد وطن نفسه على أن يهمس لها همسات إعجاب ، ولكن بريق العينين الواسعتين ألجم اللسان ، فتأخر قليلا ، وراح يتبعها كالمأخوذ الذى فقد الحواس .

وبلغت محطة الترام ، فوقفت تنتظر ، ووقف على بعد خطوات منها يمعن النظر ، وهمس فى جوفه هامس بأنها فتاة الأحلام التى هبطت عليه من السماء ، فرنا إليها رنوة حبيب ولهان ، وأقبل الترام فقفزت إليه فى خفة الغزال ، فشعر بقلبه يخفق فى صدره خفقات ، فلبث قليلا شاخصا ببصره إلى الترام ، ثم استأنف سيره وهو يفكر فى الفتاة ، رآها فى الخيال تسير بالقرب منه ، ورأى نفسه يلملم أطراف شجاعته ، ويهرع إليها يحييها فى جرأة ، فترد تحيته بابتسامة عذبة ، فيحادثها وتحادثه حديثا حلوا يشرح الصدر ، ويبهج الفؤاد ، وأحس نشوة تملأ نفسه ، ولكنه لم يركن إلى هذه النشوة طويلا ، فإن هذه الصورة البسيطة من صور التعارف لم ترض خياله الجموح ، فراح يجتر مشاهد الروايات ، فرآها أول ما رآها فى عربات السفر ، التى تجرها الجياد تقطع القفار . ورأى نفسه على صهوة جواد فى أعلى الجبل ، يرقب العربة المنطلقة فى الفضاء ، وإذا بالجياد تجمح فجأة ، فتنطلق كريح عاصفة لا تلوى على شيء ، فيلوى عنان جواده ، وينحدر كسيل جارف حتى يبلغ الجياد الجامحة ، فيقفز فوقها ، ويجذبها من أعنتها ، وقبل أن يتم هذا المشهد فى ذهنه ، زال ليحل مكانه مشهد آخر لا يقل عنه روعة وفخامة ، رآها سجينة فى قلعة من قلاع العصور الوسطى وهو فى عدة الفرسان شاهرا سيفه ، ينازل الرجال ، ويجدل الأبطال ، ليصل إلى آسرة الفؤاد ، وظلت المشاهد تقفز إلى ذهنه متتاليات وهو غارق فى نشوته ، محلق فى عالم وردى من الأحلام .

وعاد مع الليل إلى بيت الأوهام ، فتمدد على أريكة عتيقة ، وأرخى لفكره العنان فراح ينسج من خيوط خياله حول فتاة الصباح مواقف رائعة من البطولة والغرام ، واستمر فى تحليقه اللذيذ فى سماوات الأحلام ساعات ، حتى إذا ما فاضت بهجته وارتوى خياله ، هبط إلى الأرض لحظات ليفكر كما يفكر الناس ، ففكر فى نفسه المقيدة بقيود وأغلال ، رأى فقيرا لا يقوى على إقامة عش هانئ لزوجين سعيدين ، فقد تعقدت الحياة ، فشاعت فى صدره سحابة خفيفة من الكدر ، لكن سرعان ما تبخرت تلك السحابة ، فقد عاد ثانية ليسبح فى بحور الخيال ، فأقنع نفسه أنه اليوم فى البداية يتعثر ويقاسى الحرمان ، أما فى الغد فستبتسم له الدنيا ، سينساب فيها لينعم بخفض العيش وبهجة الحياة .

وظل كطيف يتشكل فى شكول لطيفة ، وينعم برؤى اليقظة ، حتى غلبه النوم ، فنام واستمر فى رقدته الهنيئة ، حتى داعب أذنيه صياح الديكة ، مبشرة بدنو طلائع النهار ، فنهض يرجل شعره ، ويسوى هندامه ، فقد عزم على أن يتودد إلى الفتاة . وترك الدار قبل ميعاده الذى اعتاد أن يخرج فيه ، ووقف على وصيد الباب يرصد الطريق ، ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال . ومر الوقت بطيئا فلم يحس مللا ، فقد كان ممتلئا أملا ، وخفق قلبه فجأة ، ثم اشتد وجيبه ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، فقد لمحها تخرج من دار قريبة من داره بقوامها الممشوق ، ومرت أمامه ، فملأ خياشيمه عبيرها الحلو النفاذ ، فانتشت روحه ، وهم بأن يومئ لها برأسه محييا ولكنه لم يجرؤ ، فظل ثابتا لا يريم ، ولولا البريق المتألق فى عينيه لحسبته تمثالا .

وبعدت عنه خطوات فعاد إلى نفسه وتملك حواسه ، فجعل يقتفى أثرها ، ولم يجد فى نفسه الشجاعة ليدنو منها ليسمعها ما نمق طول الليل من كلمات ،

وما انفك يرقبها على البعد حتى ركبت الترام ، فانطلق إلى عمله وهو يحاول أن يجد لنفسه الأعذار ، فما هو من الرقعاء الذين يعترضون الفتيات فى الطرقات ، إنه يتمتع بما يتمتع به الفرسان من حميد السجايا ونبل الأخلاق !

٢

وترادفت الأيام وهو ينتظرها فى الصباح ، ويتبعها على البعد خافق الفؤاد ، وكانت تترفق فى السير أحيانا ، وتتلفت أحيانا ، وابتسمت مرات ، ولكن كل ذلك لم يشد أزره ، ويشجعه على هجر السجايا الحميدة ونبل الفرسان ! وكأنما شاء القدر أن يترضاه ، فجعل تعارفه على الصورة المشتهاة ، ففى ليلة من الليالى بينما كان يسير عند أوبته فى الميدان القريب من داره ، إذ لمح ذلك الجسم المتناسب الذى انطبع فى الفؤاد ، ينساب فى لألاء الضياء المنبعث من مصابيح الميدان ، فيسرى فيه اضطراب لذيذ ، وانطلق إليها خفيفا ، حتى أصبح على مرمى حجر منها ، وعرجت إلى شارعهم الضيق ، فخطر له أن يذهب إليها ، ليلقى عليها فى رقة تحية المساء ، فالشارع هادئ ساكن ، والظلام سائد ، لا تقوى على هتك غلالته تلك المصابيح الخافتة القليلة التى تكاد تلفظ الأنفاس ، ولكنه كبح ذلك الخاطر ، فقد كره أن يقوم فى الظلام بما أحجم عن تنفيذه فى وضح النهار .

ورآها على بصيص النور الواهن تنفر من شىء . وسرى فى أذنيه همس زجر ، فحملق وقد أرهفت منه الحواس ، وأغذ فى السير حتى اقترب منها ، فلمح شابا يطاردها ، فثارت ثورته ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ، وصك أذنيه صوتها وهى تنهر الشاب ، فلم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، ثم يلكمه

لكمة قوية ترنح بعدها الشاب ، وهوى على الأرض ، وداعبه صوتها وهى تغمغم : « متشكرة » ، فأحس خدرا لذيذا ، وتحركت أحاسيس البهجة فى نفسه فغمرته بالسرور والهناء .

وحنى لها رأسه فى أدب جم ، ثم انصرف ودخل داره هيمان ، وتمدد على أريكته العتيقة ، وأسبل عينيه ، وجعل يستعيد ما حدث من لحظات فى نشوة ، رأى نفسه وهو يلكم الشاب تلك اللكمة الجبارة ، فشعر بزهو ، وأنصت إلى صدى صوتها الرقيق ، فأحس دغدغة فى الحواس ، ولاحت له فى ظلام الغرفة عيناها البراقتان الواسعتان ترنوان إليه ، فانتفض كأنما سرى فيه تيار كهربى ، وانطلق خياله ليحلق فى أجوائه ، ولينسج ما تشتهى النفس ، فغمرته سعادة شاملة .



وصارا يتلاقيان كل صباح ، وتواعدا يوما من أيام الربيع ، فهب النسيم عليلا فأنعش روحيهما ، وسارا ملتصقين ، فهبت العواطف النائمة تتصارع فى جوفيهما . أحس حنينا إليها ورغبة فى أن يضمها إلى صدره الذى ضاق بأحاسيسه الفوارة ورنا إليها فى وله ، ونظر إلى عينيها الجذابتين فانتشى ، وضيقت من عينيها ، وألقت برأسها على صدره ، ورفعت وجهها فى دلال وإغراء كأنما تتأهب للقبل ، وملأ عبيرها خياشيمه ، فكاد يهوى بشفتيه على شفتيها المغريتين ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وترفع عن أن ينتهز لحظة من لحظات ضعفها ، فقد كان فارسا !

وبلغا مقعدا فجلسا يلتقطان الهواء فى قوة ، فقد أجهدتهما أحاسيسهما ،

وبقيا صامتين برهة ، ثم تناول منصور يدها وضغطها فى رفق ، وقال فى صوت متهدج :

— أحبك .

وصمت كأنما عقد لسانه ، وأشرق وجهها ، فتملك روعه ، وعاد إليه بعض هدوئه ، فقال فى أناة :

— أحبك . ولما كنت أمقت أن أرتكب ما يرتكبه الشاب العابث فإنى ..

ثم عاد فصمت ثانية ، كأنما ألجمه حياؤه ، ولكنه قهر خجله وقال :

— أتقبلين ؟

فهمست فى صوت خفيض .

— ماذا ؟

— التزوج بى .

فترقرق ماء الحياء فى وجنتيها ، وبرقت عيناها ببريق السعادة ، ولاح فى محياها الرضا كل الرضا ، وهمت بالكلام . ولكنه أسرع وقال :

— يكفينى ما أرى ، إنى سعيد ، أسعد مخلوق فى الوجود .

٤

دقت الدفوف ، وأطلقت الزغاريد ، وأغلق الباب خلف العروسين ، واختلى منصور بفتاة الأحلام التى هبطت عليه من السماء فغمرته السعادة ، وراح قلبه يرقص فى صدره طربا ، فقد نال فى النهاية حبيبة الفؤاد ، وربة الصون والعفاف .

وقادها إلى مقعد طويل ، وجلسا ، فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع



وجهها فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع ، فانقبض وقال بصوت مبحوح :

— ماذا ؟

فقالت فى انكسار :

— إنى تاعسة . متكودة .

فزاد انقباضه ، وأحس رأسه يدور ، وقال فى حشرجة :

— ماذا جرى ؟

فقالت وقد نكست رأسها :

— لا فائدة من الكتمان ، سأبوح بكل شىء .

فحملق فيها مشدوها ، وراحت تعترف :

— خطبنى فوثقت فيه ، وغرر بى فاستسلمت له ، وفى لحظة من لحظات الضعف نال كل شىء .

وصمتت ، وساد الغرفة سكون الرموس ، ولكن كان صدر منصور مسرحا لصراع هائل جبار ، فقد بات بين أمرين : أن يطرد المدنسة من البيت ، أو يستر عرضا ، وظل فريسة لأفكاره تتجاذبه وتتنازعه ، وأخيرا نهض إليها كفارس كريم ، يحنو على ضعيف ، ويقيل عثرات المتعثرين ، وربت على كتفها وقال :

— عفا الله عما سلف .

٥

ووطن العزم على أن يتناسى ما عرفه تلك الليلة الهائلة ، وراح يمنى النفس بأن يحيا حياة سعيدة ، بعد أن ضحى واحتمل تلك الصدمة المروعة فى ثبات ورباطة جأش ، إنها ستقدر نخوته ولا ريب ، وستمنحه الحب ، بل ستجود له بالنفس ، تقديرا لما أسدى إليها من معروف .

ومرت شهور ، فأبدت نفورها منه ، فراح يتألفها ويتودد إليها ، وكان كلما أظهر لها الحب ازدادت منه نفورا ، وجعلت تنغص عليه حياته ، وترهقه بما لا يطيق ، حاول أن يرضيها ، فما كانت ترضى ، وحاول أن يلبى رغباتها ، فكانت تزداد تعسفا ، فجعل يفكر بعقلية الفارس ، ولو فكر بعقلية المرأة لفطن إلى أنها كرهته من تلك الليلة ، ليلة العفو الكريم !

وتجرأت عليه على مر الأيام ، فكانت تسخر منه وتهزأ به ، وفى يوم أخذ السباب يتدفق منها ، فقالت له فى ثورتها :

ــ اخرج يا ..

وقالت كلمة تملأ الفم ، فخرج منكس الرأس ، كفارس ثلم شرفه ، وكسر سيفه .

في العيد

عضها الجوع ، فجعلت تتلوى فى فراشها ، و تفتح عينيها ، خشية أن يفر منها النوم ، ولكنها كانت سادرة فى الوهم ، فقد نأى النوم عنها وأمعن في الهجر ، فما كان يجود بوصال المحرومين الجائعين .

وأحست سكاكين تمزق جوفها ، ووهنا يدب فى أوصالها ، فدفعت عنها غطاءها الذى كونته من قطع شتى من الأنسجة اختلفت ألوانها ، فبدا الحصير الممزق فى ضوء الذبالة الخافت ، كأعواد من القمح ، صفت على ظلال سود ، وتحاملت على نفسها ونهضت ، قصيرة هزيلة نحيلة ، عبث الزمن بصفحة وجهها ، فخلف غضونا ، وترك الجوع آثاره ، فكانت ذبولا .

وانطلقت كالطيف صوب الذبالة وحملتها ، وسارت يسترها جلباب أدكن فقد شبابه ، فذهب سواده ، واستحال إلى لون الزيتون ، وهرعت إليها قطتها تتمسح بها ، فتزيد فى اضطراب خطوها ، إنها قطة تقاسمها ليلها ، وتغادرها نهارها ، فما كانت تستطيع أن تصبر على الحياة المتقشفة القاسية .

وراحت تجوس خلال حجرتها التى كانت أشبه بكهف ، فما كان بها للهواء منفذ ، إلا ذلك الباب اللافظ إلى بضع درجات متهدمات ، تؤدى إلى فناء الدار الرطب ، الذى ينبعث منه روائح ماء آسن ، وتنطلق فيه أسراب الجنادب والخنافس ، وما كان بها كوة ، تسمح لأشعة الشمس أن تنفذ منها ، لتبدد ذلك الليل السرمد . ثم اتجهت إلى قلة ذليلة طاح رأسها ، رفعتها

وتجرعت منها جرعة .

وعادت إلى حصيرها وتمددت ، وسحبت غطاءها ، ولكن ما كانت تلك الجرعة لتكتم أنفاس ذلك الغول الذى كان يعوى فى أعماقها ، وينشب أظافره فى أحشائها ، فسرعان ما أنت وتلوت .

ولم تطق صبرا ، فهبت ثانية من رقدتها ، أحضرت قطعة خبز يابس ، كانت تدخرها ، ورشتها بالماء ، ثم جاءت بقليل من الملح ، وقعدت تأكلها ، لتسكت ذلك الصراخ المنبثق من أغوارها ، وخفت إليها قطتها ، تنظر بعينيها الخضراوين المتألقتين فى الظلام كمصباحين ، فتغافلت عنها ولكن القطة راحت تتمسح بها ، فشعرت كأن اللقمة وقفت فى حلقها ، وتحركت شفقتها . فأشركتها فى كسرتها .

وارتفع ثغاء الخراف ، فمشى الصوت فى أذنيها ، حقيقة موجعة ، فأطرقت وقد ارتسم الأسى فى وجهها الجاف الذابل ، فغدا هو عيد الأضحى ، ولم تعد تملك ما تبيعه لتحتفل بالعيد كما يحتفى به جيرانها ، باعت كل شيء ، ولم يبق فى حجرتها إلا الحصير والقلة ، والموقد والقدر .

وخطر لها أن تبيع القدر ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الخاطر ، فلو أنها باعتها لتشترى بثمنها لحما ففيم تطهوه ؟ وغزتها همومها ، فظلت فى إطراقها ، وأخيرا رأت أن تخرج إلى الدنيا ، تبحث وتنقب ، لعلها تعود بقطعة من اللحم ، تجعلها تستقبل العيد مستبشرة ، كما يستقبله آلاف الناس .

وصك أذنيها أقدام الجيران القاطنين فوقها ، فكان ذلك إيذانا بأن الليل قد أدبر ، وأن النهار قد أقبل ، فقامت تلف ملاءتها حول جسمها النحيل ، أطفأت الذبالة ، وذهبت تتلمس طريقها ، فتتحسس الجدار ، وتهبط الدرج المتهدم ، وتنساب فى الفناء الرطب ، وتستنشق رائحة الماء الآسن ، دون أن

تنقبض فى وجهها المتغضن عضلة ، فقد أسنت حياتها ، وخرجت إلى الطريق ، فبهرها النهار ، ولفحها الهواء ، وسارت وئيدة تتلفت ، فألفت دكان الجزار ، وقد زين بالرايات ، وتدلت الخراف والعجول ، وازدحم الناس عنده يشترون ، فوقفت على البعد تنظر ، والحزن يرعى فى جوفها ، والحرمان يخزها وخزات أليمة قاسية ، تزيد أساها ضراما .

وخيل إليها أن الناس فطنوا إلى وقفتها الذليلة المتطفلة ، فانسابت فى الطريق مطرقة ، ينفجر الحزن فى جوفها ، وبلغت دار بعض من تعرف ، ممن رزقهم الله بسطة فى الرزق ، فدخلت يداعبها طيف من أمل .

وجلست تتحدث مع ربة الدار ، وتصرم الوقت ، ووافى ميعاد الغداء ، فدعتها السيدة إلى الطعام ، فتمنعت تمنع الراغبات ، ثم لبث ترفرف فى جوفها فرحة ، وفى مثل لمح البصر طاف بذهنها أطياف أكلات شهية ، فتحلب ريقها ؛ وجلست إلى المائدة ، وإذا بالطعام قطعة من جبن وزيتون أسود ، فحنقت ، وزاد فى حنقها اعتذار السيدة بأنها لم تطبخ اليوم لأن غدا العيد الكبير !

وانقضى النهار وهى تدور على البيوت ، وأقبل الليل ، وقد دب التعب فى أوصالها ، فعادت إلى حجرتها ، عابسة الوجه ، تملؤها خيبة ، وتجر رجليها جرا ، وعادت كما خرجت خالية الوفاض ، وقد ذاب الأمل تحت وهج الواقع الأليم ، وراح اليأس يرتع بين جوانحها مخلفا المرارة والأسى .

وارتمت على حصيرها مكدودة ، يدثرها الحزن ، ويجثم على صدرها الضيق ، وأخذ الوقت يتصرم وئيدا ، وأخيرا طاف بها ملاك النوم فهجعت ، وتقضى الليل ، وأقبل نهار العيد ، فخرج الناس إلى المسجد مكبرين ، وارتفعت أصوات التهليل ، فقامت من رقدتها تتلفت ، ونفذت دقات الهاون فى البيوت المجاورة إلى مسامعها ، فكان لها على نفسها وقع ثقيل ، وتسرب

دخان الشواء إلى حجرتها ، ومشى إلى خياشيمها ، فـأحست غصة ، وأدارت عينيها فى المكان فى ذلة ، وخيل اليها أن آذان الجيران أرهفت إلى ذلك الصمت السائد فى حجرتها ، وأن عيونهم تتطلع إليها ، فعز على نفسها أن يفطنوا إلى أن الفقر قد أقعدها عن أن تحتفل بالعيد ، فقامت إلى الموقد وأشعلته ، ثم وضعت عليه القدر وقد ملأتها بالماء القراح ، وجعلت تحركه بالمغرفة ، وتتعمد أن تدق جدار القدر ، ليسرى صوت رنينه إلى الآذان المتصتة إلى ما يجرى فى كهفها ، لتدخل فى روع الجميع أنها مثلهم بالعيد مستبشرة ، ونظرت حولها تبحث عن قطتها فلم تجدها ، وظلت هى فى حجرتها تقاسى الحرمان الشديد ، ولم تقو على احتمال ما هى فيه ، فتركت الماء يغلى على النار ، وارتمت على حصيرها تبكى وتنتحب .

من أجلك أنت

راح المطر ينهمر فى الخارج ، وأخذت الريح تولول ، تكاثف الضباب على النوافذ ، وأسدل الظلام ستوره السود ، وسرت قشعريرة فى جسم حمدى ، فهرع إلى المدفأة ينتفض من البرد ، وجعل يدس أعواد الحطب ليؤجج النار ، لعل حرارتها تنتقل إليه ، فتنقضى تلك الرعدة التى تملكته . كانت ليلة من ليالى لندن الباردة ، التى لم يألفها بعد ، فسرى الدفء فى جسمه ، فأحس راحة ، وأطرق رأسه ، واستسلم لأفكاره ، فراحت الصور تتتابع فى مخيلته كشريط السينما ، فرأى الأهل والأحباب ، وراح يجتر الذكريات ، فكان يتمهل أحيانا ، ويسرع أحيانا ، حتى إذا ما فكر فى سهام تريث فى تفكيره ، وانعكس على وجهه أثر ما يعتمل فى صدره فشابه كدر خفيف .

كانت سهام آخر فتاة عرفها فى القاهرة ، قبل أن يسافر إلى إنجلترا ، قابلها فى حفل أقامه صديق ، وعرفها هناك ، وجذب بصره إليها ابتسامتها ، كانت ابتسامة غامضة ، لم يعرف كنهها أول ما وقعت عليها عيناه ، ولكنها أسرته ، فتودد إلى صاحبتها ، وواعدها اللقاء ، فقبلت ، وعلى فمها الابتسامة التى شغف بها ، ومست أوتار قلبه .

وقابلها مرات ، وفى ذات يوم راح يبثها حبه ، وقد زاد نبضه ، وتدفق الدم حارا فى عروقه ، فحسب حرارته ستشعل نار الصبابه فى جوفها ، فتبادله الغرام ، ولكن راعه ما بدا فى عينيها ، وما ارتسم على شفتيها ، وقد نظرت إليه

فى ازدراء . وعلى شفتيها ابتسامتها الغامضة ، وقالت فى سخرية :

— واها لك ، لا زلت صبيا فى الغرام .

فأحس كأن ماء باردا صب عليه ، وعقد لسانه ، وسار صامتا يحاول أن يلم شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، وقبل أن يفيق من سخريتها ، استأذنت فى الانصراف ، وفى عينيها بريق خبيث كان يصرخ به هازئا ، فيذل كبرياءه ، ويخز نفسه وخزا قاسيا .

واستمرا فى مقابلاتهما وكان كلما غازلها رمقته بنظرتها الهازئة ، وارتسمت على ثغرها تلك الابتسامة التى بات يرتجف منها ويهابها ، لم تعد ابتسامة غامضة ، وعزم على ألا يقابلها ، ولكنها راحت تعترض سبيله ، وتحاول أن تجعله ألعوبة ترجحها فى لذة ، فقد كانت تجد فى تعذيبه بهجة ، فأخذ يحادثها فى تحرز ، ويعاملها فى حرص ، متحاشيا أن يعرض نفسه لهزئها ، أو أن يكون هدفا لابتسامتها الساخرة المريرة .

وقابلته قبل أن يترك الديار ، فحاول أن يضمها إليه ، ليقبلها قبلة الوداع ، فقد حسب أن الظرف ليس ظرف سخرية وعناد ، ولكن ما أن مد ذراعيه ليلفهما حولها ، حتى جفلت منه ، وقالت وهى تبتعد وعلى شفتيها ابتسامتها الساخرة :

— أحسبت نفسك لبقا ، فحاولت أن تستغل ساعة الوداع ؟! هيهات ، سافر يا حبيبى وفى مخيلتك ذكرى هذا الوداع .

وتململ فى مقعده أمام المدفأة ، وأحس مرارة ، وخطر له أن يكتب إليها رسالة ينتقم لنفسه فيها ، لما ناله من هوان ، وألح عليه ذلك الخاطر ، فراح يكتب :

عزيزتى سهام :

راودتنى فكرة الكتابة إليك ، وألحت على . فأخذت أسطر لك هذه الرسالة من بلاد الغربة ، كنت أحب أن أقول لك فى أولى رسائلى أننى أعيش هنا فى محرابى أصلى من أجلك ، وأن طيف الحبيب يؤنسنى فى وحدتى ، ولكن ابتسامتك التى تمزق قلبى ، تنهانى عن الخوض فى حديث صبيانى للغرام ، لطالما قلت لى إنك تمقتين فى الرجال اللف والدوران .

إننى ما فعلت شيئا هنا إلا بوحى منك ، أقولها صادقا لا هازئا ولا ساخرا ، وأرجو أن تؤجلى ابتسامتك ، حتى أفضى إليك بما يثبت ادعائى ، ويدعم قولى .

ذهبت بعد أن استقر بى المقام فى لندن إلى مطعم من المطاعم ، وكان الليل قد انقضى منه ثلثه ، وقعدت أتناول طعامى ، وأنصت إلى الموسيقا الهادئة ، التى كانت تعزف ألحانا خفيفة ، ورفعت رأسى عن الطعام ، وألفيت فى النضد المواجه لى فتاة ذهبية الشعر ، كان شعرها يحاكى شعرك ، فخطر لى أن أحدق فيها إكراما لك ، بل أقصد أن أقول إكراما لشعرك ، وتلاقت عينانا . وابتسمنا ، وخرجنا من المطعم وقد تعارفنا ، وأمضينا ليلة شاعرية وأنا أمرر يدى على شعرها ، أستغفر الله بل شعرك ، فلولا شعرك يا سهام ما جذبت تلك الفتاة بصرى .

وفى دار من دور السينما التقيت بفتاة زرقاء العينين ، فذكرتنى بعينيك ، ففكرت فى أن أتودد إليها إكراما لعينيك ، فاقتربت منها ، وحادثتها فحادثتنى ، وخرجنا من الدار صديقين ، وأمضيت ليلتى أنظر إلى عينيها ، بل إلى عينيك ، لقد أسعدتنى تلك الفتاة ، وجعلتنى أعيش ليلة لن أنساها ، فشكرا لعينيك ، فلولاهما لما خطر لى أن أتودد إلى الفتاة .



وفى ذات يوم التقيت بفتاة فى حديقة من الحدائق ، كان قوامها يشبه قوامك ، فهفت نفسى إليها ، ولا ضرورة أن أكرر أننى فى الواقع قد هفوت إليك ، فمشيت إليها وحييتها ، فابتسمت لى ، فجلست بجوارها وتبادلنا أعذب الحديث ، وما غابت الشمس فى الأفق البعيد ، حتى كنت أضم إلىّ قوامها البديع الذى يشبه قوامك الذى عز على يوم الوداع .

إننى يا سهام أعيش فى لندن أنقب عن الفتيات اللاتى يذكرننى بك ، ففى الواقع إنى أعيش هنا من أجلك أنت .

وتقبلى قبلات المخلص .

« حمدى »

وطوى الرسالة ، وقد أحس راحة ، فقد راح يتصورها وهى تقرأ رسالته فى ضيق ، وبات ينتظر طلوع النهار ، ليبعث إليها بوخزة ، ردا على وخزاتها القاسيات . ومرت أيام وأسابيع ، وجاءته منها رسالة ، ففضها وراح يقرأ :

حبيبى حمدى :

تسلمت رسالتك الأولى ، وأصدقك القول إنها أول حديث لك مس وترا حساسا فى قلبى ، إنها رسالة رائعة ، ما كنت أتصور صدورها عنك ، أحسست غيرة لما قرأتها وسألت : كيف لم يخطر على قلبى أن أمارس ذلك النوع من الحب ، إنى أحبك يا حمدى بعد أن قرأت رسالتك ، وقد صممت على أن أبادلك حبا بحب .

ورحت أتفرس فى وجوه الشباب ، فرأيت شابا يشبه فمه فمك ، فابتسمت له ، إكراما لفمك ، فابتسم لى واقترب منى وتودد إلى ، وحادثنى وحادثته ، وانطلقنا إلى الجزيرة ، وقعدنا على مقعد هناك ، واقترب منى ، ثم لف ذراعه حولى ، وهوى بفمه ، بل فمك ، على فمى وطال العناق . أمضينا

ليلة يا حمدى لن أنساها ما حييت ، فشكرا لفمك ، فلولاه ما هفت نفسى إلى ذلك الشاب .

وقابلت شابا طويل القامة ، كانت قامته كقامتك ، فرحت أرنو إليه ، ولفت نظره تطلعى إليه ، فدنا منى ، وهمس فى أذنى بكلمات ما كنت أقبلها من شاب ، ولكنى استرحت إليها إكراما لك ، وسرت بجواره ، كان لبقا ذكرنى إياك ، فعشت معه ساعات من أبهج ساعات العمر ، إننى يا حمدى مدينة بما أنعم به من سعادة لحبك ، فلولا تنقيبى عمن يذكروننى بك ، لأمضيت أيام حياتى هباء .

وفى حفل من الحفلات التقيت بشاب ذكرنى إياك ، وكان أثره فى نفسى عميقا ، فقد تقابلنا أنا وأنت فى حفل كذلك الحفل ، فخفق قلبى لما رأيته ، حسبته أنت ، ودنوت منه ، وقد أفعم صدرى بإحساسات لذيذة ، وأقبل على يغازلنى ،فألنت له جانبى إكراما لك ، وعشنا معا فى عوالم لذيذة أنا وأنت .

إننى يا حمدى أكرر لك إعجابى بفلسفتك ، فعش يا حبيبى فى لندن من أجلى ، وأعاهدك أننى سأتنقل بين القاهرة والإسكندرية ، أبحث عن الرجال الذين يذكروننى بك ولن أعيش بعد اليوم يا حبيبى إلا من أجلك ، من أجلك أنت .

وتقبل قبلات

المخلصة جدا

« سهام »

سيدى !

زوجتى العزيزة :

ما كنت أظن أنى سأكتب إليك مثل هذه الرسالة فى يوم من الأيام ، وما دار بخلدى قط أنى سأعود يوما إلى البيت فلا أجدك ، وأجد تلك الرسالة الجائرة القاسية : « قرأت رسائل عشيقتك ، فبانت خيانتك . الوداع » ما أقساك فى أحكامك ، وما أشد غيرتك القاتلة ! وما ضرك لو انتظرت حتى أعود ، لأشرح لك كل شىء ، ولكنك تسرعت كما هى عادتك ، وأخطأت الحكم كما هى عادتك ، وأصررت كما هى عادتك على أنك كنت على صواب .

ما كنت أحب أن أقص عليك ما سأقصه ، لأننى أعلم أنه سيؤلمك بعض الإيلام ، وسيثير غيرتك — وما هى فى حاجة إلى ما يثيرها — وما أحب إيلامك أو إثارة عواطفك ، ولكنه تصرفك الثائر الغيور ، الذى يضطرنى الآن إلى رواية كل شىء ، وسرد ذكريات حسبت أنها كفنت فى حافظتى ، فإذا بك اليوم تبعثينها بما فيها من آلام وأحزان .

أما ما سأقصه عليك فسيحز فى نفسى بقدر ما ستلسعك عقارب غيرتك — وإن كانت غيرة ليس هناك ما يبررها — ولكن لا بأس ما دمت قد انقدت إلى أوهامك ، ورحت تنقبين فى مكتبى عما يدعم شكوكك ، ويثبت لك أن لى ماضيا ككل الناس .

كلنا له ماض ، وقد فكرت بعد زواجنا أن أفضى إليك بماضىّ ، وأن أقص عليك قصة هذه الرسائل . ولكنى أحسست أنك سعيدة ، وأن سعادتك تعود إلى اقتناعك بأن زوجك ليس له ماض ، إنه رجل خلق يوم زواجك ، رجل لم يمش إلى خطيئة و لم يدنس قط ، و لم يخفق قلبه لأحد قبلك قط . عرفت أنك ممن يعشن بخيالهن ، فلم أشأ أن أهبط بك إلى الأرض ، فتركتك فى عالمك ما دام فى ذلك هناؤك وسعادتك .

كنت أجد الغبطة تشيع فى وجهك ، والرضا يكتنفك، فكنت أشفق أن تصدمك الحقيقة يوما ، فتحطم أحلامك ، وتقوض هناءك ، فكنت أمد لك فى حبل الأوهام ، فأوحى إليك أنك أول امرأة خفق لها الفؤاد ، فكنت تتقبلين ذلك منى فى سرور الأطفال ، ولكنك كنت أحيانا تتشككين فيما أقول ، فتستفسرين فى هدوء متكلف — ما كان ينطلى على — عمن عرفت قبلك ، وما كنت بقادر على أن أقص عليك شيئا ، فإنى بك عليم ، فإن غيرتك هوجاء جامحة ، فإذا ما ثارت لا تبقى ولا تذر ، فما أدرانى أنك ما كنت تغضبين كما غضبت اليوم ، ولا تتركين البيت كما فعلت اليوم ، فكنت أؤكد لك أنك الوحيدة فى حياتى ، لأعيد إليك بشرك ولأملأ نفسك غبطة وحياة .

أصبحت هذه الرسائل تذكارا ، وصارت صاحبتها ذكرى . بينا أنت ملء القلب ، ملء النفس ، ومالى أقول ذلك لك وأنت تعرفينه وتحسينه ، فللأسطر فى القرطاس ما حاولت أن أخفيه فى صدرى ، وما فيه ما يشين ، ولكنها طبيعتك الواهمة ، هى التى أرغمتنى على أن أكتم ماضى ، وأغلق نفسى على ذكرياتى .

ففى شتاء عام ١٩٤٤ ، جاءنى صديقى الدكتور فتحى ، وقال لى : قم ،

فقلت له : إلى أين والدنيا برد شديد ؟ ، فقال : إلى مريضة مصابة بفقر دم حاد ، فقلت له : لا بالله دعني اليوم ، وخذ متطوعا آخر ، فإن دمي متجمد فى عروق ، فنظر إلىّ وابتسم وقال : قم ، إنك كالحصان ، وسحبني من يدى ، فقمت فى تراخ ، وقلت : إلى المستشفى ؟ فقال ونحن نخرج : لا إلى بيتها .

وهبطنا فى الدرج ، حتى بلغنا سيارته ، فركبنا وانطلقنا إلى حى من أحياء المدينة الراقية ، ووقفت السيارة أمام منزل فخم . فأسرع الدكتور ، وحمل حقيبته ، وقفز وراح يجد فى السير . فأسرعت خلفه لألحق به ، وقابلنا عند الباب خادم نوبى ، وراح يسير أمامنا ونحن خلفه نخترق الردهة الخارجية ، ثم نسير فى ممر طويل ، ثم ندخل غرفة بها سرير ، قد تمددت فيه فتاة حلوة التقاسيم ، ولكنها كانت شاحبة اللون جدا ، حتى إن شفتيها كانتا باهتتين لا أثر للدم فيهما ، وعينيها غائرتان ، وبجوار سريرها رجل وخط الشيب رأسه ، وامرأة قد انعكس القلق على وجهها ، كانا والديها ، وما إن لمحانا حتى أسرعا يصافحاننا فى لهفة واغتباط ، وفتح الطبيب حقيبته ، وأخرج إبريقى العملية الكبيرتين ، وأنابيب المطاط ، والتفت إلى والديها ففطنا إلى ما ينبغى ، فانسحبا فى هدوء ، فأغلق الدكتور فتحى الباب ، وابتدأت عملية نقل الدم .

راح يسحب الدم منى ، فانتابنى اضطراب ، وشعرت بخفقان فى قلبى ، وكأنما روحى كانت تسحب منى ، فقد كان الدم يمر بقلبى فى سرعة ، وينطلق إلى الحقنة ، وازداد وجيب قلبى . وتفصد العرق البارد من جبينى ، وكأنما أحست ما أعانى من ألم فى سبيلها ، فمدت يدها ، وراحت تربت على يدى ، ثم تمررها فى رفق فوق ذراعى ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة كانت

عزائى فى كربتى .

وتمت العملية ، وبقيت أحس تعبا ، وقلبى فى صدرى يدق دقا ، ورفعت رأسى ، فلمحتها تتطلع إلى فى امتنان ، ثم قالت فى رقة :

— عاجزة عن شكرك .

— العفو .

وأقبل والداها علىّ ، وغمرانى برقتهما وظرفهما ، فأخجلانى ، وانعقد لسانى ، فصرت أتمتم بتمتمات لا معنى لها ردا على شكرهما واغتباطهما ، وهممنا بالانصراف ، وحاول والدها أن يدس فى يدى ورقة مالية لا أدرى قيمتها ، فاعتذرت فى لطف ، فألح على ، فأفهمه الدكتور أنى متطوع ، وأنى لا أتناول أجرا ، وزاد على ذلك أنى من أسرة لها مكانتها ، فصافحنى الرجل فى حرارة ، وكرر شكره ، وقال لى : أرجو أن تعتبر هذه الدار دارك ، إنى أحب أن أراك دائما .

ووفد الليل ، فدخلت إلى فراشى لأنام ، ولكنى وجدت نفسى أفكر فى عملية اليوم على الرغم منى ، فما كانت أول عملية أشترك فيها ، فقد قمت بذلك مرارا ، وما كانت هى أول فتاة ينقل إليها دمى ، ولكنى ألفيت صورتها تلح على مخيلتى . وتحتل فكرى . ولما كانت الأفكار تنمو فى الظلام ، أخذت أفكارى تنمو وتتضخم ، فرحت أتصور نفسى معها أحادثها وتحادثنى ، وجعلت أجتر أفكارى فى نشوة وطرب .

وتنفس الصبح ، فخرجت إلى عملى ، واندمجت فيه ، فما كان أمامى فسحة من الوقت لأخلو بنفسى ، ولكن ما انقضى وقت العمل ، وما عدت إلى البيت ، حتى ألفيت رغبة الانطلاق إلى دارها تراودنى ، إنى لم أزر مريضا بعد انتهاء العملية أبدا فما هناك ما يدعو إلى زيارته ، ولكنى أجد رجلى

تحملانی إلى هنالك ، وكأنما قوة خفية تدفعنى دفعا ، ووجدت نفسى أجتاز باب الدار ، فأجفلت وهممت بالفرار ، واعترانى خجل شديد ، فماذا يقولون عنى إذا ما وجدونى بينهم دون أن يكون هناك ما يبرر وجودى ، ونكصت على عقبى ، وقفلت عائدا مضطربا ، ولكن ما سرت فى الطريق خطوات ، حتى أحسست تلك القوة الخفية تدفعنى إلى هنالك ، فسرت كالمسحور ، واجتزت الباب وقد أخذ قلبى يقفز فى صدرى ، وقطعت فى الردهة الخارجية خطوات ، فقابلنى الخادم النوبى ، فانتبهت كمن يهب من نوم عميق ، وفطنت إلى سخافة ما أقدمت عليه ، فسألت عن الهانم فى اقتضاب ، وابتدأت فى الانسحاب ، ولكن فوجئت بصوت يرحب بمقدمى ، فرفعت رأسى فرأيت والدها على رأس السلم يهتف فى انشراح : أهلا .. أهلا .. فما كان أمامى إلا أن أصعد فى الدرج مهرولا ، لأصافح اليد الممدودة لى .

ودخلت غرفتها ، فمدت يدها إلى فأخذت يدها بين يدى ، وسألتها عن صحتها ، فأجابت بحمد الله ، وتهلل وجهها وبرقت عيناها ببريق أحسست ضياءه فى قلبى ، وجىء لى بكرسى وضع بجوار سريرها ، فجعلت أحادث والديها ، وكنت أرنو إليها بين وقت وآخر ، وانقضى وقت أحسست بعده أن لابد من قيامى ، فنهضت وإن كنت فى قرارة نفسى أتمنى أن تطول جلستى ، بل أتمنى ألا تنقضى أبدا .

وتركتهم وسرت فى الطريق أفكر فيما فعلت ، فأغضبنى سلوكى ، فعقدت العزم على ألا أكرر الزيارة بعد اليوم أبدا . ولكن ما جاء اليوم الثانى ، وما خلوت بنفسى حتى انهار عزمى ، وانطلقت إلى هناك ، أنعم بالسويعات الحلوة التى أقضيها بجوارها .

كان فى وسعي أن أترضاك ، وأن أكذب عليك ثانية بأن أقول لك ما كنت أحس به نحوها كان عطفا .

إنى جد آسف يا زوجتى العزيزة لإيلامك ، ولكن ما ذنبى إذا كنت قد نكأت جرح قلبى ، ونبشت ذكرياتى ، وهيجت كوامن نفسى ، وبعثت إحساسات كاد يدركها الموت .

وفى يوم وصلتنى دعوة منهم ، فذهبت فألفيت الموجودين لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، ولمحت الدكتو فتحى ، فاتجهت إليه وصافحته ، وجلسنا نتحادث ، وأقبلت فى ثوب أنيق أبيض ، فبدت لعينى كملاك لطيف ؛ وجاءت وصافحتنى وهى تبتسم ، فأحسست رعدة خفيفة لذيذة تسرى فى يدى ، ثم وجدت نفسى أضغط على يدها فى رفق ، فشاعت غبطة فى صفحة وجهها النقية ، وتركتنى وذهبت تحيى ضيوفها ، فالتفت إلى الدكتور فتحى ، وقلت : صحتها فى تقدم .

فلم يحرك الدكتور شفتيه ، ولم يعلق على ما قلت بشيء ، بل راح يخوض فى حديث آخر ، وقمنا للعشاء ، فلما انتهى ذهب المدعوون إلى غرفة يتحادثون ، ولما كنت لا أدخن ولا أطيق رائحة الدخان ، انسحبت إلى غرفة أخرى ، وما انقضت برهة حتى جاءت تشاركنى فى وحدتى ، أصبحنا وحدنا ، فلم أشعر إلا وأنا أقترب منها ، وأهمس لها بصوت مرتجف متهدج . أبثها لواعج نفسى ، وأشرح لها حبى ، وأطرقت تستمع إلى ، وكأنما حديثى لم يكن مفاجأة لها ، فرفعت رأسها الجميل ، ورنت إلى فى وله وحنان ، ودنوت منها ، فاختلطت أنفاسى بأنفاسها ، فلم أستطع مقاومة نفسى ، فضممت جسمها الضاوى إلى صدرى وقبلتها قبلة هزت كيانى ، وتفتحت لها نفسى .

وانتهى الحفل المتواضع ، وخرجت والدكتور فتحى ، وكنت شارد اللب ، وجاشت فى صدرى رغبة الإفضاء إليه بحبى ، ولكن غالبت نفسى ، وأخيرا غلبت على أمرى ، فخرجت الكلمات من فمى تكشف ما بى ، فقلت له فى صوت حاولت جاهدا أن يكون هادئا لا أثر للتأثير فيه : سأخطبها يا دكتور . فقال الدكتور دون أن يلتفت إلى : إنها لا تجوز لك . فسألته : و لم ؟ فقال فى نبرات ساخرة : امتزج دمك بدمها . فلم أهتم بسخريته ، وقلت فى حماس : وما يهم وقد امتزجت روحى بروحها . فقال فى جد : بالله لا تتعجل . فسألته فى لهفة : وما الضرر ؟ فقال فى نبرات حزينة : لم تشف بعد . فقلت له فى يقين : غدا تسترد قواها . وصمت الدكتور ، فالتزمت السكوت حتى افترقنا .

وسافرت إلى الريف ، وبعثت إلىّ برسالتها الأولى تشرح حبها ، وتكشف مكنون نفسها ، وتبادلنا الرسائل ، فتأجج الحب فى صدرى ، كان حبا جارفا ، فلم أستطع عليه صبرا ، فذهبت إلى والديها لأخطبها . رحبا بى وأكرمانى ، وتقبلا خطبتى قبولا حسنا ، واتفقا على إتمام الزواج بعد عودتها من الريف سليمة قوية . فكتبت إليها أزف البشرى ، وأستحثها على الإسراع بالعودة .

وانقضى شهر خلته دهرا ، وعادت أخيرا إلى الدار ، فأسرعت لأقابل حبى ، وكانت صورتها طوال الطريق تشغل رأسى ، كنت أراها فى مخيلتى متوردة الوجنتين ، متسربلة رداء الصحة والعافية ، و ما أن دلفت إلى الدار ، وما أن سألت الخادم النوبى عنها ، حتى علمت أنها مريضة فى فراشها ، فانقبض قلبى ، وشعرت جفافا فى حلقى ، وكأنما عقدت عقدة فى صدرى ، فضيقت أنفاسى ، فرحت أصعد فى الدرج مسرعا ، واتجهت إلى حجرتها ،

فألفيتها ممددة فى فراشها ، لقد كانت طيفا .

كانت مقابلة قاسية ، حطمت نفسى تحطيما ، وودت دموعى أن تطفر من عينى ، ولكن رحت أغالب دموعى ، وجاهدت لأبدو هادئا مطمئنا ، فجعلت أبتسم وقلبى يقطر دما . واستأذنت فى الانصراف على أن أعود بعد قليل ، فأذنوا لى ، فانطلقت إلى الدكتور ، ودخلت عليه وقد بان الأسى فى وجهى ، وقلت بصوت حزين : عادت يا دكتور ، ولكنها عادت حطاما .

فتطلع الدكتور إلى ، ثم أسبل جفنيه ولم يتكلم .

فقلت : ما رأيك يا دكتور فى أن نعيد عملية نقل الدم ، إنى مستعد أن أجود لها بكل دمى .

فقال فى اقتضاب : لم يعد دمك ينفعها .

فقلت فى فزع : وكيف ؟

فقال فى أسف : تسمم دمها .

أطرقت حزينا ، وخرجت أجر رجلى جرا ، ونزل بى هم ثقيل ، فما عاد لها فى الأرض إلا أيام ، فرحت أذرف الدمع السخين ، وما انقضى أسبوع حتى انقضت كما ينقضى الحلم الجميل ، وصارت ذكرى بعد أن كانت بهجة نفسى ومنية قلبى .

وهذه يا زوجتى العزيزة قصة خيانتى التى أثارتك ، وجعلتك تفرين من البيت ، وما هى بالقصة البهيجة ، وما فيها ما يستحق أن يثير نقمتك وغيرتك ، إلا إذا كنت تعزمين على أن تغارى من طيف ، لقد انقضى الماضى ، فأصبح كأمس الدابر فعودى إلى زوجك المتلهف إليك ، ولنوصد على الماضى بابا ثقيلا ، فالماضى بأحزانه وآلامه لى ، والحاضر والمستقبل المشرق لك .

روميو

التفت الرجال الذين كانوا جالسين فى بهو الفندق الفخم ناحية الباب ، فانفرجت أسارير الشباب ، واتسعت عيونهم ، والتمعت ببريق أخاذ ، وراح الشيوخ ينظرون فى إعجاب من بين أهدابهم البيضاء ، ومن خلف نظاراتهم الذهبية ، فقد كانت فتاة حلوة رشيقة فاتنة مقبلة فى دلال ، يتبعها كلب أبيض ضئيل أنيق ، وكانت الفتاة ممشوقة القد ، ناهدة الصدر ، فاحمة الشعر ، واسعة العينين ، صافية البشرة ، تتدفق حيوية ، وكانت تسير الهوينى ، مرفوعة الرأس ، لا تتلفت يمنة أو يسرة ، بل كانت تنطلق فى ثقة ، وكانت ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا ، ينم عن ذوق وبسطة فى العيش ، إنها غنية ولا ريب ، سعيدة من غير شك ، جمال رائع قاهر ، يفتن العابد ، ومال وفير يدنى الأمانى ، ويحقق الأحلام .

ووسعت خطوها ، وسارت فى الردهة الطويلة الموصلة إلى جناحها ، وكلبها خلفها يجد فى السير فى غبطة ، والتقت فى الممر بشاب طويل القامة عريض الكتفين ، فيه فتوة وشباب ، فالتقت العيون ، وابتسمت أسارير الشاب ، وظلت الفتاة فى طريقها دون أن تختلج عينها خلجة ، وبلغت جناحها ، وفتحت الباب وانتظرت فلم يسرع الكلب فى الدخول كما اعتاد أن يفعل كلما فتحت بابا ، فأدارت رأسها الجميل ، ونظرت من فوق كتفها ، فرأت الكلب بين يدى الشاب ، وهو يمسح على شعره الطويل ، فهتفت فى

صوت ساحر :

— روميو .. روميو .

فقفز الكلب من بين يدى الشاب ، وراح يعدو نحوها فى فرح ، ووقف الشاب ينظر ويبتسم فى رقة ، ولكن الفتاة كانت قد اختفت خلف الباب الذى أغلق فى رفق .

وخلعت ثيابها ، ولبست غلالة رقيقة أبرزت مفاتنها ، وتقدمت من المرآة تديم النظر فيها ، وتتطلع إلى محاسنها ومفاتنها فى زهو وإعجاب ، فغمرها سرور ، واجتاحتها نشوة ، ولكن ما لبث أن غاض السرور ، وفرت النشوة ، وغام وجهها بسحائب خفيفة من الحزن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت الأفكار تتزاحم فى رأسها وتتلاطم ، فسارت نحو المقعد الطويل ، وتمددت فوقه ، ومدت بصرها إلى لا شىء ، وأطلقت لخيالها العنان .

رأت نفسها بعين خيالها فى ثياب عرسها ، فأحست غصة فى حلقها ، وضيقا فى صدرها ، فكأنما قد عقد فيه عقدة . ودمعة تترقرق فى مآقيها .. أحست فى مقعدها نفس الإحساس الذى أحسته ليلة زفافها ، فما أحست ليلتها بهجة أو فرحة أو نشوة ، وما سرها الحرير الغالى الذى كانت ترفل فيه ، فيزيد فى حسنها ، وما أحبت الحرير بعد ليلتها تلك ، فإنها لتحسبه أكفانها درجت فيها ، فإنها كانت تزف إلى شيخ فان مرتجف .

ورأت نفسها شابة حلوة متفتحة فى دار أبيها ، تعيش فى عالم وردى من الأحلام ، وتهيم فى دنيا فسيحة من الأوهام ، تنتظر فى نشوة فارسها ورجل أحلامها ، الذى سينقلها من دنياها الضيقة إلى عالم السعادة الرحب اللانهائى ، عالم الحب والصبابة والغرام ، فكم مرة رأته فارسا يمتطى جوادا ،

ثم يقبل ويخطفها ويعود بها صعدا ، ليعيشا فى السحاب ، وكم من مرة رأته شابا ظريفا لطيفا من هؤلاء الأبطال ، الذين رأتهم على الشاشة فى أدوار غرامية تلهب الحواس .

ورأت نفسها فى دارها ، غرفة زوجها المسدلة الستائر . المقفلة النوافذ ، الهادئة هدوء الرموس ، الساكنة سكون القبور ، تغدو وتروح ، لتناول الشيخ المريض الدواء ، إنها تمضى الشهور ، وأية شهور ، الشهور الأولى لزواجها إلى جواره تمرضه وتعنى به وتؤاسيه ، وهى فى أشد الحاجة إلى العطف والعناية والتسلية .

واعتدلت فى المقعد الطويل فى تبرم وضيق ، وحاولت أن تفر من أفكارها التى تتوافد عليها توافد الموج ، فما تنكسر فكرة حتى تفد أخرى ، إنها لتود أن تنعم بذلك النسيم اللطيف الذى يهب من البحر فى رقة ، فراحت تملأ صدرها بالهواء ، وتتكلف الهدوء ، ولكن فكرها كان يعمل ، فراحت تمرر كفيها على وجهها دون جدوى ، فإن أفكارها أخذت تغزوها فى إصرار ، فاستسلمت لها برغمها ، وتمددت ثانية وقد انحسرت الغلالة الرقيقة عن صدرها ، فبدت كتمثال رائع ، لفنان مبدع .

ورأت نفسها يوم خرجت من غرفة زوجها خلف الطبيب ، لتستفسر منه عن حال زوجها ، لما استشفت من وجهه القلق بعد أن فحص عن حاله ، فأنبأها الطبيب أن لابد من سفره إلى الخارج ، فإن جو القاهرة أضحى لا يلائمه ، ورأت نفسها وهى تحاول إقناع زوجها أن تصحبه فى سفره ، وأن تفل من عزمه ، ولكنه أصر على الرفض ، وعلى استصحاب خادمه .

ورأت نفسها اليوم وهى تودع زوجها قبل أن تقلع الباخرة به ، وقبل أن تعود إلى الفندق ، فأحست راحة عزتها إلى نسيم البحر المنعش ، وإن كانت



فى الحقيقة راحة تخلصها من ذلك العبء الثقيل ولو إلى حين .

وقامت إلى الشباك القريب منها ، وأطلت منه ، فداعبها نسيم الأصيل ، وراح يعبث بشعرها السبط ، ويقبل وجنتيها فى رقة ، فأنعشها ورد إليها هدوءها وطمأنينتها ، فراحت تمد الطرف إلى البحر الساجى فى نشوة وطرب .

وجاء الليل يرخى ستائره السود ، فاتجهت إلى النور وأضاءته ، ثم جلست إلى المرآة تتزين ، فقد عزمت على العشاء فى الخارج ، وما أتمت زينتها حتى نهضت ونادت فى رقة :

— روميو .. روميو .

فقام الكلب عن الوسادة الوثيرة التى كان نائما فوقها ، وأقبل عليها يهز ذيله فرحا ، فمدت يدها ، وفتحت الباب ، فخرج روميو يعدو ، فخرجت خلفه وراحت تقفل الباب فى هدوء ، وأحست شخصا بالقرب منها ، فالتفتت فإذا نفس الشاب الطويل العريض الكتفين ، الممتلئ فتوة وشبابا ، والذى قابلها فى الممر لما جاءت ، وداعب روميو ، يفتح الباب المجاور لبابها ، فقد كان جارها ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة حلوة ، ولكنها لم تعبأ به ، ولم تلتفت إليه ، بل انطلقت فى طريقها وروميو فى أثرها يبصبص بذنبه فى سرور .

وتناولت عشاءها ، وفكرت فى أن تذهب إلى السينما ، ولكنها أحست جسمها يحن إلى الراحة ، فعادت إلى الفندق ، واتجهت إلى جناحها ، وبدلت ثيابها ، ثم اندست فى فراشها ، وجعلت الأفكار الحلوة تداعبها قبل أن يمس ملاك النوم بأنامله الرقيقة جفنيها ، وراحت فى سبات عميق ، فرأت فيما يرى النائم أنها قائمة بين الضباب ، محلولة الشعر ، فى ثياب رقيقة شفافة ،

لا تكاد تستر جسمها ، وقد سرى فى الجو نغم حلو أخاذ ، آت من بعيد ، كان نغما ملائكيا عذبا يستحوذ على المشاعر ، ويهز القلوب ، فامتلأت نفسها نشوة ، وأخذ الضباب ينقشع شيئا فشيئا ، فإذا هى فى مكان من بلور ، وأخذت الأنغام تشتد وتقترب وتتضح ، فأحست نفسها خفيفة خفة الطيف ، فأخذت تقفز فى فرح ، وترقص فى طرب ، وتميل وتتثنى كما يميل الغصن إذا داعبه النسيم ، وفجأة لاح أمامها شاب جميل ، عارى الجسد ، مفتول العضل ، قوى البدن ، مد يده ، وتناول بها يدها ، وجعل يشاركها فى رقصها ، ويهيم معها فى الفضاء العريض ، ونظرت نحوه فإذا هو زوجها قد خلق من جديد ، فندت منها أنة فرح ، وانفرجت شفتاها عن لؤلؤ نضيد ، وانبعثت الموسيقى من هنا وهناك ، وغشى المكان ضياء عجيب ، ونظرت إلى زوجها فإذا هو قد تبدل ، وإذا بها تجد مكانه ذلك الشاب الطويل الذى داعب روميو ، والذى ينزل فى الغرفة المجاورة لغرفتها ، فأقبلت عليه فى انشراح ، فجذبها من يدها فى رفق وسار بها فوق السحاب ، ثم ركبا زورقا من ذهب ، وراحا يجدفان فى الفضاء ، ويسبحان فى غبطة حول النجوم ، وتركا الزورق ، ودخلا حديقة ، فرشت أرضها بالأزهار ، وقد توسطها سرير من الورد ، يحف به قنوات من زئبق رجراج ، وانطلقا إلى السرير ، فتمددت فيه ، واستنشقت عبير الأزهار فانتعشت روحها ، فتطلعت إليه فى دلال ، وقد تكسر جفناها ، فمال عليها فى رقة ، وضمها إلى صدره فى حنان ، وراح يلثمها هنا وهناك فى لهفة وسعار .

وفتحت عينيها ، فألفت نفسها وحيدة فى فراشها ، فأحست طعم الصاب فى فمها ، وجفافا فى حلقها ، ما كانت تلك السعادة إلا حلما من الأحلام ، لاحت فى الخيال لحظة ، ثم اختفت وقد خلفت وراءها لهفة وحسرة .

وحاولت أن تستأنف نومها ، ولكن النوم خاصم جفنيها ، فإن دمها ليتدفق حارا فى عروقها ، وإنها لتحس به يصعد إلى رأسها فى فورة ، وأن وجنتيها تكادان أن تنصهرا ، وأن قلبها ليدق فى ثورة وعنف ، ويقفز فى جوفها ، حتى ليكاد أن يفر من فيها ، وإنها لتحس شيئا يضغط أنفاسها . إن مشاعرها المذخورة قد ثارت عليها وتمردت ، فقد ضاقت بذلك الكبت المتواصل ، وتود أن تنطلق .

وأحست أنها باتت فريسة عواطفها ، فقامت من فراشها ، وفتحت الشباك القريب من مخدعها ، لعل الهواء العليل يلفحها ، فيخفف من إحساساتها المتمردة ، ولكنها كانت ليلة قمراء . توحى بالشعر والحب ، فما فتحت الشباك حتى انسل ضوء القمر الفضى إلى غرفتها ، فأجج عواطفها ، وزاد ثورتها ، وأشعل رغبتها ، فانهارت فى فراشها انهيارا ، وبقيت مدة لا تبدى حراكا ، إلا أن عواطفها كانت فى داخلها تتصارع وتتضارب .

وانتصبت واقفة ، وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا فى قلق ، فكانت تذهب إلى النافذة تملأ رئتيها بالهواء ، ثم تعود إلى حيث كان روميو نائما ، ولم تطق صبرا على الإحساسات التى كانت تعتمل فى صدرها ، فارتمت فى فراشها حانقة قانطة .

وهبت من فراشها ثانية ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وبان فى وجهها عزم صادق ، وسارت إلى المرآة كالمسحورة ، وراحت تسوى من شعرها ، وتبرز فتنتها ، ثم مشت إلى الباب فى خفة ، وفتحته فى احتراس ، خشية أن يستيقظ روميو ، وخرجت وسارت خطوات ، حتى بلغت الباب المجاور لبابها ، ودقته فى رفق ولم تضطرب ، فقد كانت مأخوذة ، وكأنما كانت فى حلم من الأحلام .

وفتح الباب ، وظهر الشاب الطويل القامة ، العريض الكتفين ، وقد بان الدهش فى وجهه ، وعقدت المفاجأة لسانه ، فلم يدر ما يفعل ولا ما يقول ، ولاحظت ما اعتراه من ارتباك ، فقالت :

— هل رأيت روميو من فضلك ؟

فقال فى بلاهة :

— روميو ! .. روميو ! ..

فقالت بصوت منغم :

— روميو ؟ . كلبى .

وكان قد تملك روعه قليلا ، وسيطر على أعصابه ، فابتسم . وقبل أن يجيب أطل روميو من باب حجرتها ، وأخذ يعوى ، وكأنه ينادى سيدته ويحذرها ، والتفت الاثنان إليه وقد عاد الشاب إلى ارتباكه ، أما هى فقد صعقت فى مكانها ، وارتفع الدم حارا إلى رأسها ، ثم تنبهت كمن أفاق من حلم وجرت ، فحملت روميو بين ذراعيها ، ودخلت حجرتها ، وأغلقت بابها فى قوة ، كأنها تصفع به الشيطان ، وقضت ليلتها تبكى .. وحيدة !!

شجرة الشيطان

ريح عاصفة ، وبرق ورعد ، وزمجرة وزئير ، وظلام دامس حالك .. فقد ثار الكون ثورة هائلة ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيونا ، ففار الماء وارتفع ، وبلع الدنيا فى جوفه ، وأخذت سفينة نوح تجرى فى موج كالجبال ليالى وأياما لا تستقر على حال ، حتى بعث الله ريحا على الأرض ، فهدأ الماء ، واستوت السفينة على صخرة .

وبعث نوح الحمامة فانطلقت ، و لم تلبث أن عادت ، فما زال الماء يغطى الأرض .. وتقضت أيام سبعة ، فعاد وأرسل الحمامة ، وانقضى النهار وهو يرقب عودتها ، وجاء الليل فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطينة برجلها ، فأيقن أن المياه قد قلت عن الأرض .

وكشف الغطاء من الفلك ونظر ، فإذا وجه الأرض قد جف ، فأطلق الوحوش ، والطيور ، والهوام ، فانطلقت فى الفضاء ، وهبط إلى الأرض ليغرس ما معه من أشجار . وأراد أن يغرس شجرة العنب ، فلم يجدها ، وظل يبحث عنها هنا وهناك ، حتى أعياه البحث ، فأطرق فى حزن . وفيما هو فى إطراقه ، أوحى الله إليه أن إبليس قد سرقها ، فقال نوح لإبليس :

ـــ أعد شجرة العنب .

ـــ لا أعيدها حتى تشركنى فيها .

ـــ وما قيمة هذه المشاركة .

فأطرق نوح قليلا ، وراح يفكر ، فقد كان يخشى أن يستغلها إبليس فى

فتنة الناس ، ولكنه لم يجد من إجابته بدا ، فقال فى استسلام :

— قد جعلت لك فيها الثلث .

— لا .. يجب أن يفوق نصيبى نصيبك .

— هذا جشع !

— هذا شرطى ..

فقال نوح فى نبرات المغلوب :

— قد جعلت لك الثلثين .

فانبسطت أسارير إبليس لهذه المشاركة ، وذهب ثم عاد بشجرة العنب فغرسها ، وما انتهى من غرسها ، حتى ذبح عليها طاووسا ، فشربت من دمه . ونمت الشجرة ، وطلعت أوراقها ، فذبح عليها قردا ، فشربت من دمه ، وراح يتعهدها ، حتى إذا ما أثمرت ذبح عليها أسدا ، فارتوت من دمه ، وقبل أن ينضج العنب جاء بخنزير ، وذبحه على الشجرة ، فشربت من دمه .

تدلت العناقيد منتفخة ، فكانت كأكياس ملئت دما ، ورأى إبليس نضج العناقيد ، فراح يجمع الأعناب فى فرح ، ثم راح يعصرها خمرا .. وأقبل رجل ، فقدم إبليس إليه ما عصر ، فعب الرجل من الخمر حتى ارتوى ، وأخذ إبليس يرقبه وقد ارتسمت على شفتيه البغيضتين ابتسامة شماتة وخبث !

ما دبت الخمر فى أعضاء الرجل حتى زها كما يزهو الطاووس ، وما سار خطوات حتى انتشى ، فذهب عنه الوقار ، وأخذ يصفق ويرقص كما يرقص القرد ، وقويت عليه الخمر ، فسكر وعربد ، وزمجر زمجرة الأسد ، وجعل يحطم ما تصل إليه يداه .. ولكن سرعان ما خدره السكر ، فنعس ثم استلقى ، وجعل يغط فى النوم غطيط الخنازير ..

وقهقه إبليس قهقهة عالية ، فقد صارت له شجرة يفتن بها الناس !

امرأة وألحان

ذهب وصاحبه لشراء أسطوانات موسيقية ، وما كان راضيا عن ذهابه ، فما كان يعرف شيئا عن الموسيقى الغربية . ولولا إلحاح صديقه عليه ليصاحبه ، لما غادر مقهاه ، ولفضل أن يبقى فى جلسته على إفريز الطريق يتبع بعينيه الغاديات الرائحات ، كما يتبع المشاهد فى اهتمام الكرة وهى حائرة ، فى مباراة حامية فى التنس .

ودلفا إلى المحل ، فطفق يقلب عينيه فيه فى استغراب ، فما كان يحسب أن فى قلب القاهرة مثل ذلك المكان ؛ رأى قاعة فسيحة ، قامت فى وسطها كعبة قسمت إلى آلاف الأدراج ، وضع على رأس كل منها اسم غريب لا يعرفه ، ورأى عشاق الموسيقى يطوفون حول الكعبة فى صمت وخشوع ، ينقبون عما يخون فى اهتمام ، وألفى صديقه قد سلك فى الطائفين ، وشردت منه الأبصار ، فأحس نفسه غريبا ، وفطن إلى أن عليه أن يفعل شيئا حتى لا يبدو نشازا فى ذلك الجو المتآلف ، فراح يقرأ الأسماء اللاصقة بالأدراج ، وخطر له أنه قد يتورط فيما يسفر عن جهله ، فدبت فى نفسه رهبة خفيفة ، فهرع إلى حيث كان صاحبه ، ودنا منه يحتمى به .

ومس أذنيه صوت نسوى رقيق يقول فى نبرات خافضة .

— أية خدمة ؟

فالتفت ، فرأى فتاة رائعة الجمال ، زادت من روعتها الأيدى الماهرة التى

صففت الشعر الأحمر الفتان ، ونشرت الظلال والأصباغ فى مهارة ، فى رقعة الوجه الحلو القسمات ، وتدلى من أذنيها هلالان بديعان ، زانا الوجه الآسر ، ورفت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ليس لها سبيل إلا إلى القلب ، وتألقت عيناها الزرقاوان الواسعتان ببريق أخاذ ، ووقع بصره على الصدر الناهد الشامخ فى كبرياء ، كان جمالها من ذلك الطراز الطاغى ، الذى لا يقف فى طريقه شىء ، فظل يديم إليها النظر ، لم تتحرك شفتاه ، أما صديقه فقال فى بساطة :

— السيمفونية الثامنة شهر زاد ..

وانطلقت إلى الأدراج تحضر الأسطوانات ، وانطلق صديقه معها ، أما هو فوقف يرقبها ، ويفحص عنها بنظره ..

ساقان متناسقتان ، وجسم غاية فى الروعة والجمال ، إنها فتنة تسير على الأرض ، وتعبث بالقلوب ، وتسبى العقول .

وأحضرت الأسطوانات ، فسارت وصديقه إلى جوارها إلى غرفة صغيرة من الغرف الزجاجية الكثيرة التى ستر نصفها بستائر كثيفة ، ووضع بها فونغراف وكرسيان ، فأسرع إليهما وجلس على كرسى أمام صديقه ، أما هى فاتجهت إلى الفونوغراف ، ووضعت أسطوانة من الأسطوانات وهو يرقبها فى اهتمام ، ويرنو إلى ذراعها البضة ، وقد استيقظت عواطفه فى صدره .

وانسابت الأنغام ، فأطرق صديقه فى خشوع ، ووقفت هى عند باب الغرفة والابتسامة الحلوة ترف على شفتيها ، أما هو فلم يحفل بالأنغام ، وراح يرنو إليها ، يملأ عينيه من روائع الجمال ، وانسابت بعد قليل ، فجعل يرصدها من زجاج الباب . وأقبلت مرات تبدل إبرة الفونوغراف ، فكان يتطلع إليها خافق الفؤاد .

(صدى السنين)

وسكنت الموسيقى ، فساد الغرفة هدوء ، وأراد أن يقول شيئا ، فقال :

ـــ عندى فونوغراف مهجور ، ما كنت أحسب أن له قيمة قبل أن أرى هؤلاء الناس !

فابتسم صديقه ، ونهض يحمل الأسطوانات ، وقابلا الفتاة فى الردهة ، فقال الصديق :

ـــ سآخذ اليوم شهر زاد ..

وظل هو يرنو إلى الفتاة فى اشتهاء ، ولو طاوع نفسه لسألها عن اسمها ولطلب منها أن تقابله هذا المساء .

وعاد إلى داره ، وما خلا بنفسه حتى ألفى طيف الفتاة أمام عينيه لا يريم ، وقد احتلت صورتها فكره ، وهفت إحساساته إليها . كانت ابتسامتها العذبة تدغدغ حواسه ، ونظراتها المنبعثة من عينيها الزرقاوين الآسرتين ، تعبث بأوتار قلبه . صار يراها بقوامها الممشوق ، وصدرها الناهد الشامخ غادية رائحة فى خياله ، وأمضى ليلته وطيفها فى رفقته ، وما لاح الصباح حتى كانت قد استولت على لبه ومشاعره .

وأصبح الصباح ، وصورتها تلح عليه ، ونفسه تهفو إليها ، وقلبه يهتف به أن ينطلق ليراها ، فقام وخرج ، وساقته رغبته إلى هناك ، فوقف أمام المحل لحظة ، وقد دبت الرهبة فى جسمه دبيب النمل ، ولمحها من خلل الزجاج الخارجى ، فخفق قلبه ، وراح يستجمع جأشه ، ينمق ما يقوله ، حتى إذا اطمأن إلى نفسه دلف إلى المحل ، واتجه إليها وهو يرصد جسمها الرائع وقد استيقظت فى نفسه مشاعره الكوامن . وانتبهت إلى وجوده ، فالتفتت إليه وعلى شفتيها ابتسامتها العذبة التى تعبث بالأفئدة ، وقالت فى صوتها الهامس المشحون أنوثة :

— أية خدمة ؟

فقال فى صوت متهدج :

— أريد أن أسعد بموسيقى تعجبك .

فانفرجت أساريرها ، وقالت وقد تكسرت أهدابها .

— المهم أن تعجبك أنت .

فقال وقد سكن روعه :

— ستعجبنى ولا شك .

وفتحت درجا ، وأخرجت أسطوانة ، وقالت :

— حلاق أشبيلية لروسينى ..

ولم يلتفت إلى ما تقول ، فما كان يفرق بين موسيقى وموسيقى ، كان يتطلع إلى جسدها وقد أفعم بإحساسات فوارة ، ولو طاوع نفسه لضمها إليه واعتصرها ، ولجعل يلثمها فى سعار ، ليطفىء النار التى تأججت بين حنايا ضلوعه .

وسار إلى غرفة من الغرف الزجاجية الكثيرة لتسمعه سريناد شوبير ، فجلس على كرسى ، وانحنت تضع الأسطوانة ، وتبدل الإبرة ، فدنا جسدها من جسده ، وملأ عبيرها أنفه ، فاضطرب ، وراح يرنو إلى صدرها الناهد وفى عينيه بريق .

وانسابت الأنغام ، فانسلت الفتاة فى خفة ، وأسندت ظهرها إلى باب الغرفة ، وأطرقت تنصت ، وعلت وجهها النشوة ، أما هو فراح يصعد عينيه فى جسدها الرائع ، وفى صدره نار ، وظلت خاشعة ، وظل يتطلع إليها فى اشتهاء ، وقد أصم أذنيه عن الأنغام ، حتى إذا ما انتهت القطعة ، وتحركت الفتاة صوب الحاكى « الفونوغراف » انتبه إلى نفسه ، فغمغم فى صوت

متهدج وهو يرميها بنظره الحار .

— رائعة .

وغادر المحل وهو يحمل لأول مرة أسطوانة موسيقية ، وانطلق إلى البيت ، وما خلا بنفسه حتى جعل يفكر فى الفتاة واحتل تفكيره صورتها ، وقد أسندت ظهرها إلى باب الغرفة الزجاجية ، وتراءى له جسدها الفتان ، فتدفق دمه حارا فى عروقه ، وخطر له أن يدير الأسطوانة التى اشتراها ، ليهيئ نفس الجو الذى عاش معها فيه لحظات ، فأحضر حاكيه « فونوغرافه » المهجور ، ووضع فيه الأسطوانة ، واسترخى فى جلسته ، وراح ينعم بالأحلام .

انساب النغم حلوا جذابا ، يشرح الصدر ، ويفتح الخيال ، فراح يهيم فى سماواته ، فأحس نشوة تملأ أقطار نفسه ، وراحة تدثره ، فرد ذلك الشعور الهائج إلى أن نفسه باتت تستريح إلى التفكير فيها ، والحياة معها ولو فى الخيال .

ووافى اليوم التالى ، فألفى نفسه ينطلق على الرغم منه إلى من شغلت الفؤاد ، ودخل المحل ، وأدار عينيه فيه ، فلم يجدها ، فأحس انقباضا ، وفكر فى العودة من حيث جاء ، وقبل أن يدور على عقبيه لمحها خارجة من غرفة من الغرف الكثيرة الممتدة على جانبى الردهة ، فأحس الراحة ، وذهب إليها متطلق الوجه ، فلما رأته ابتسمت له ابتسامة هزت كيانه ، وأيقظت مشاعره الفوارة فى صدره ، وقالت له فى صوتها الخافض المشحون أنوثة :

— وجدت لك قطعة موسيقية رائعة .

فقال وهو يرنو إلى جسدها فى اشتهاء :

— وما هى ؟

— منتصف الليل لبيتهوفن .

وذهبت تحضر الأسطوانة ، وهو يتبعها بعينيه ، ثم دخلا ليسمعا القطعة



التي يروى بها « يتهوفن » همسات العشاق فى منتصف الليل ، وجعل يخدج الفتاة بنظره ، ولكن ما إن انبعثت الأنغام ، حتى ألفى نفسه برغمه يصيخ إليها السمع ، وعجب فى نفسه كيف أن مثل هذه الأنغام شغلته لحظات عن التطلع إلى جسدها الحلو الجذاب ؟!

وعاد إلى داره ، وطفق يفكر فى الفتاة وهو ينصت إلى « منتصف الليل » ، وسرعان ما استولت الأنغام على حواسه ، حتى شغلته عن التفكير فى الجسد الحلو ، فراح يصغى إليها نشوان ، وقد تفجرت فى نفسه ينابيع جديدة من المشاعر . وتفتحت فى صدره إحساسات رقيقة هفهافة ، وسمت روحه . فأخذت تهيم فى عوالم نقية من الخيال .

ومرت الأيام وهو يتردد على محل الموسيقى ، ينتقى ما يشتهى من القطع الموسيقية ، وفى يوم عاد إلى داره ، وراح يصغى إلى القطعة التى اقتناها ، وقد امتلأ نشوة ، وأفعم بإحساسات لذيذة ، وظلت الأنغام حلوة عذبة رقيقة ، وهو فى محرابه جذلان ، وانتهت الأسطوانة ولما تنته القطعة الجذابة ، كان لها بقية فى أسطوانة أخرى ، فأحس رغبة فى أن ينعم الساعة ببقية القطعة التى ذهبت به فى دنيا وردية حبيبة ، وضايقته لذته المبتورة ، ففكر فى أن ينطلق ، ليحضر بقية القطعة ، ولكن الليل كان قد أرخى سدوله .

وما إن أصبح الصباح حتى هرع إلى محل الموسيقى . وقابل الفتاة ، وقد رفت على شفتيها ابتسامتها الساحرة الآسرة ، ولكنه لم يلتفت إليها ، وسألها عن الأسطوانة التى يبغيها ، ودخلا إلى الغرفة الزجاجية ، وانبعثت الأنغام ، ووقفت الفتاة عند باب الغرفة ، بجسمها الممشوق الفتان ، وقد استرخت فى وقفتها ، فربت فتنتها ، ولكنه لم يتطلع إلى الجسد الرائع الذى كان يهزه ويحرك

مشاعره الفوارة الكامنة ، إنه أطرق ليصغى إلى القطعة التى سمت بروحه ، وجعلته يسبح فى بحور صافية من الخيال .

وما انتهت القطعة حتى حمل الأسطوانة وهو مأخوذ ، دون أن يلتفت إلى الفتاة ، وهرع إلى البيت لينفرد بالأنغام .

رسول الشتاء

يوم من أيام الربيع ، النسيم يهب عليلا ينعش القلوب ، والوقت ساعة الأصيل ، والشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، وقد توهجت كقرص من نار قبل الخفوت ، وخرج الناس من دورهم ، وصعدت أم وابنتها إلى السطح تستروحان النسيم .

كانت الأم فى الخامسة والأربعين ممتلئة الجسم ، موفورة الصحة ، تتألق عيناها ببريق أكثر ما يلمع فى الربيع ، ترتدى ثوبا أسود من تلك الثياب التى ترتديها زوجات الصناع والعمال والباعة الجوالين ، وجلست إلى جوارها ابنتها شامخة الصدر ، نحيلة الخصر ، حلوة جذابة نامية ، فى السابعة عشرة ، أنضر من وردة الربيع .. كانت فى السن التى تحلم فيها بالرجال الأشداء ، والزوج المنشود .

وجاء غراب ، ووقف على الحائط ونعق : غاق .. غاق .

فرمقته المرأة مستطلعة ، وقالت فى لهفة : خير ؟ . خير ؟ .

وفطنت ابنتها إلى لهفتها ، فقالت فى عجب :

— أى خير تنتظرين ؟

فقالت لها أمها فى إنكار :

— ألا تعلمين ؟

فقالت الفتاة فى دهش :

— أعلم ماذا ؟

— ما تعلمه جميع النساء .

— عن أى شىء تتحدثين ؟

— عن رسالة الغراب التى ذهب بها .

— إية رسالة ؟

— الرسالة التى أوفدته النسوة بها ، ولم يعد بعد بردها .

— والله لا أدرى ماذا تقصدين . غراب .. نسوة .. رسالة ، ما كل هذا ؟

— كبرت ، وصار الأمر يهمك ، فما من امرأة إلا تعرف هذا الأمر ، اسمعى .

وتعلقت عينا الفتاة بأمها ، وقد أعارتها سمعها ، وأخذت الأم تقص قصتها :

— من مئات السنين ، أباح الله للرجال أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ، وحرم على المرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، فساء ذلك النساء ، واجتمعن فى مؤتمر يتدارسن الأمر ، فقر رأيهن على أن يقين من الله أن يسوى بينهن وبين الرجال ، أن يبيح لهن الزواج من أربعة رجال ، كما أباح للرجال الزواج من أربع نسوة ، وكتبن الرسالة ، ولكن من ذا الذى يحملها ؟ كان الغراب حاضرا ذلك المؤتمر فتطوع بحملها .. أخذها وطار . وغاب رسول النساء ، ومرت أجيال وأجيال ، ونحن ننتظر أوبته متلهفات ، كلما نعق غراب ، حسبناه الرسول قد عاد ، كلما صاح : « غاق » هتفنا به مستبشرات : خيرا ! » ، لعله قد جاء بالفرج .

وصمتت الأم ، والفتاة تنظر إليها ساهمة ، وجاء غراب ونعق : غاق .

فأفاقت الفتاة من أحلامها ، وقالت فى لهفة : خير .. خير إن شاء الله !

ليلة حمراء

وقف فى النافذة يرقب ساعى البريد فى قلق ، فقد وافى ميعاده ، وهو يخشى أن يتكرر ما حدث فى الأيام الثلاثة المنصرمة ، من إقبال الرجل ثم انطلاقه فى طريقه ، دون أن يعرج على داره ، ويترك الرسالة المرتقبة .

إنه طالب فلسفة فى السنة النهائية فى جامعة فؤاد الأول ، نفدت نقوده التى بعث بها إليه أهله ، ليعيش عليها طوال شهره ، فكتب إليهم يلتمس منهم مددا يعينه على مواجهة الحياة الباهظة فى العاصمة الشرهة ، التى فقدت فيها النقود قيمتها .

واشرأب بعنقه ، ونظر إلى الطريق ، فلم يلمح ساعى البريد المنتظر ، فدار على عقبيه فى ضيق ، وراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة وهو متبرم ، وفكر فى الرسالة التى كتبها إلى أبيه ، فألفاها بفضل ما فيها من مغالطات فلسفية ، وأكاذيب قوية ، تستدر عطف الأب الساذج ، وترغمه على أن يبعث إلى ابنه الغريب فى مدينة قاسية — ما يطلب من مال .

وشعر بالجوع يهصر أحشاءه ، فزاد تبرمه ، وهب ضميره يبكته ، ويصيح به أن ما يصل إليه من البلدة يكفيه لولا ذلك الضعف البغيض ، الذى ينتابه عقب وصول النقود إلى يديه ، فقطب جبينه ، وجعل يطمئن نفسه أنه لن يستكين إلى ضعفه إذا بلغه ما طلب من أبيه .

وسار إلى النافذة ، ورمى ببصره ، فرأى ساعى البريد مقبلا ينساب

كثعبان ، فما أن يتجه إلى اليمين ويترك رسالة حتى يعود إلى اليسار ، وسرعان ما يذهب إلى اليمين ليعود إلى اليسار ، وجعل يرصده خافق القلب ، يتجاذبه اليأس والرجاء ، حتى إذا ما بلغ داره ، ودخل من بابها ، هرع إلى السلم وقد أرهفت حواسه ، وداعب أذنيه صوت الرجل وهو يهتف باسمه ، فسرت فى صدره نشوة ، وراح يقفز الدرج قفزا ، وتناول الرسالة وفضها فى لهفة ، وما إن أطلت منها الحوالة المالية حتى انبسطت أساريره ، وانشرح صدره وهدأت نفسه ، فقد خلق اللمحظة خلقا آخر .

وانطلق إلى مطعم فاخر ، وتناول طعاما دسما ، وما أن امتلأت معدته حتى نسى جوعه ، وما قاساه فى الأيام الثلاثة الماضية من ضنى شديد ، ونسى وعده لنفسه بأنه لن يستسلم لضعفه ، وأسبل عينيه ، وراح يفكر فى أن يقضى ليلة حمراء صاخبة ، يختزن فيها من المشاعر والإحساسات مايهون عليه جدب الليالى ، ومرارة الأيام ، إذا ما قبع فى داره ولم يبق له إلا الذكريات يجترها فى لذة وسرور .

كان يؤمن فى أعماقه بما قاله أحدهم : حسبت عمرى ، فوجدته أربعة عشر يوما فقط ، هى لحظات حياتى التى تقضت دون كدر أو هموم !! فكان يحاول اغتنام ساعات الصفو ، وأن يجعل حياته أطول من حياة ذلك السعيد . إن كل لحظة من لحظات لذته هى التى يحسبها فى عمره ، أما ما عداها فهى عبث وهباء منثور .

وغادر المطعم وهو مسترسل فى التفكير فيما يفعله فى ليلته ، ففى يده نقود ، وما خطر له على قلب ما اعتزمه فى ساعات جوعه من مقاومة ذلك الضعف الذى تذوب بسببه النقود ، وما هب ضميره ليزجره ، فما يفيق الضمير من سباته العميق إلا بعد وقوع المحظور ، وذهب يضرب فى

الطرقات ، ثم عرج على مكان يتناول فيه كأسا تنعش روحه ، وينظر حتى تذهب طلائع الليل ، فما كان لطالب لهو مثله أن يخرج ليبحث عن صيده إلا بعد أن يهجع الناس الطيبون .

ومضت ساعات ، وهدأت المدينة ، ودقت ساعة معلنة النصف بعد منتصف الليل ، فقام يفرك يديه ، وخرج إلى الطريق .

وسار يتلفت ، حتى إذا ما بلغ تقاطع عماد الدين بشارع فؤاد الأول ، رأى على ناصية الطريق امرأة فى ثوب أحمر بديع ، يبرز مفاتن جسمها ، ورنا إلى صدرها ، فألفاه شامخا بديع التكوين ، ودنا منها ، فراعه دقة تقاطيعها ، وتناسق ملامحها ، وحدجها بنظره ، فلم تجفل ، بل خيل إليه أنها تبتسم وفى عينيها دعوة صريحة ، وعلى الرغم من ذلك لم يتقدم ، فقد أرهبه جمالها ، وأدار عينيه فى المكان ، فألفى على قيد خطوات رجلا فى ثياب نظيفة ، فطاف برأسه أن ذلك الرجل هو رجلها الذى يدفعها لتعرض نفسها على الغادين والرائحين ، وأعاد النظر إلى الرجل ، فوجد أن منظره لا يوحى بأنه من ذلك الطراز الذى ويتعيش من دفع امرأة إلى عرض الطريق ، ولكن فلسفته أقنعته أن المنظر خداع ، وأن حسن البزة ، والتسربل بالوقار وإظهار الأنفه ، أصبحت من مستلزمات الصنعة ، لتعمل فى نفس الزبون عملها . إن جميع القرائن تدل على أنه معها ، فالطريق خال ، وليس هناك غيرهما ، ومع ذلك بقيا مدة كل فى مكانه يرقبان صيدهما ، وأقنع نفسه بأن الرجل قوادها ، فاتجه إليه فى جسارة ، وقد صورت له فلسفته أن من الأصوب أن يحادثه مباشرة فى أمرها ، بدلا من أن يضيع وقته فى مغازلتها دون جدوى .

واقترب من الرجل وحياه وهو يبتسم ، ثم التفت إلى المرأة ، وغمز له بعينه ، فنظر إليه الرجل فى إنكار ، ولكنه لم يأبه لاستنكاره ، إن هو إلا من



لوازم دوره ، وقال له فى بساطة :

— لم يعد هناك ضرورة لاستمرار عرضها وقد جاء الشارى .

فاتسعت حدقتا الرجل ، وامتقع لونه ، وأذهلته المفاجأة ، فلسم يجد لسانه ، وقال الشاب :

— أظن أننا نستطيع أن ننهى هذه الصفقة لو دعوتها لتقف معنا .

فقال الرجل فى ثورة :

— اذهب من فضلك .

ومرت سيارة فاخرة ، فرمقها الرجل بنظره ، فقال صاحب الفلسفة فى ثقة :

— لن تجد لها الليلة صيدا أفضل منى ، عصفور على الأرض خير من عشرة فى كريزلر .

— انصرف خير لك .

— هكذا أنتم ، إذا أقبلنا عليكم تدللتم ، وإذا أعرضنا عنكم تهافتم علينا تهافت الذباب .

— اذهب قبل أن أحطم لك وجهك .

— لست مفلسا حتى تحطم لى وجهى ، إنى أعرف كيف أهدئ من ثورتك .

ومد يده فى جيبه ، وأخرج بعض أوراق مالية ، وقال وهو يبتسم :

— ما رأيك فى هذه الأوراق ؟

فقال الرجل فى حنق شديد :

— أنت أوقح من رأت عيناى .

فقال الشاب وهو ينحنى :

ـــ متشكر ، وأنت أبرع من امتهن هذه المهنة ، مظهرك قد يخدع كثيرا من الأغرار ، ولكنه لن يخدعني أبدا .

وأخذ الرجل يتلفت فى غيظ ، فقال له الشاب فى سخرية :

ـــ لا تتعلق بالأوهام . لن يأتى .. وأعدك وأحلف ، ولكن لا بأس . لن تخسر شيئا .. أنا هنا .

ارحمها من تلك الوقفة ، فقد تعبت ساقاها .

ـــ اغرب من وجهى قبل أن ..

ـــ سأنصرف حتما إذا وضعت يدى فى يدها .

ولم يعد الرجل يحتمل أكثر من ذلك ، فراح ينادى فى حدة :

ـــ عسكرى ! . عسكرى !

فصاح الشاب فى استخفاف :

ـــ عسكرى ! عسكرى ! .. ماذا يهمنى ؟ ! لن تفضح إلا نفسك .

وأقبل جندى يهرول ، واقترب من الرجلين ، وما أن وقعت عيناه على الرجل الثائر ، حتى دوى صوت حذائه ، وارتفعت ذراعه بالتحية العسكرية ، فقد كان الرجل من الرجال البارزين ، وقال فى احترام :

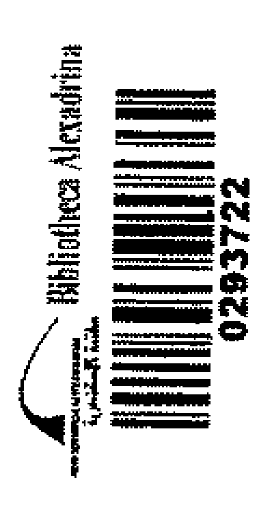
ـــ أفندم .

واضطرب الشاب لأول مرة ، وذابت شجاعته ، وتفككت أوصاله ، ودارت الدنيا به ، وما كاد يسمع ما يهدر به الرجل الثائر ، ولكنه شعر بالجندى يدفعه أمامه ، فسار ذليلا ينعى على فلسفته تغريرها به ، وتوريطه فيما قاده إلى القسم ، ليقضى فيه ليلة ، كان يرجو أن يقضيها فى سرور ، لتزيد أيام حياته على أيام ذلك السعيد الذى وجدها أربعة عشر يوما فحسب .

فهرست

رقم الإيداع ٢٥٦١ الترقيم الدولى ٣ ــ ٢٢٧ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٥٠ قرشا